سيبيبجاج (1)

اســـــم العمـــــل : ســـــــــــيبيجاج (1)

النـــــــــــــوع : روايـــة أدبيـــة تاريخيـــة

تـــــــــــأليف : فـــــاروق عبـــــدالله

تصـــميم الغـــلاف : حكـــــيم صـــــالح

إخـــــراج داخلـــــي : عبـــــدالقادر فـــــايز

مراجعـــــة لغويـــــة : رشـــــا فـــــاروق

الطباعـــــــــــة : اتيليـه تـاتش – المحروسـة

الناشـــــــــــــر : الـــدار للنشـــر والتوزيـــع

المـــــدير العـــــام : محمـــد صـــلاح مـــراد

تليفـــــــــــون : 01125800467

البريـــد الإلكترونـــي : eddar_press@yahoo.com

فـــــيس بـــــوك : www.facebook.com/eldarpublish

رقـــــم الإيـــــداع : 2016/8288

التـــــرقيم الـــــدولي : I.S.B.N.: 978-977-702-137-1

سيبيبجاج (1)

روايــة

الجزء الأول

فاروق عبدالله

الدار
للنشـر والتوزيـع

2016

مقدمة سيبجاج

رواية مثيرة عن ثورتين وحربين وشعبين معاً

رواية فريدة مثيرة، مزجت بين الخيال المذهل الذي لا يجعل القارئ يشك لحظة واحدة بأنها قصة غير واقعية، ورواية **سيبيجاج** مليئة بالقصص والحكايات الحقيقية التي سبكت في قالب روائي وببساطه تعبيرية خلابة، مع متانة في اللفظ المكثف العميق، تجعل القارئ لا يشك لحظة بأنها ليست واقعاً تاريخياً وهي سباحة ماهرة في الخيال، إنها ملكة روائية نادرة، تحول الحقائق إلى خيال، وتملأ الخيال بالحقائق.

هكذا تكون الرواية وإلا فلا، كنت في ذات مساء في شرفة فندق الأوراسي بمدينة الجزائر العاصمة أتابع بنظراتي العاشقة ذؤابات جدائل الشمس قبل الغروب، مندهشاً بمنظرها الآخاذ، حتى ربت على كتفي رجل من أعز أصدقائي المصريين الشاعر الناقد الدكتور/ حسن فتح الباب طيب الله ثراه، وكنت مدعواً من وزارة المجاهدين الجزائرية لحضور المهرجان الكبير بمناسبة اليوبيل الفضي لثورة الجزائر سنة 2002م. إلتفت لأنظر من ذا الذي ربت بكفه على كتفي فإذا بي أرى رجلاً ودوداً مبتسماً يجمع بين السحنة العربية واللهجة المصرية، يقف بجوار الدكتور/ حسن فتح الباب وبادرني

بالتعارف الودود، ولم يكن يبدو على ملامحه ما يحمله في صدرة وقلبه من ملكات غزيرة من الإبداع، فإذا بي مع صديقي الشاعر الروائي الأديب الكبير/ فاروق عبد الله، الذي استطرد بتواضع جم حديثه الماتع عن علاقته الطويلة والمبكرة بالجزائر الأرض، والجزائر الإنسان، والجزائر الثورة، فحكا عن الجزائر وسنوات من عمره قضاها في الجزائر، وحكايات من الذكريات العذبة كأنها رواية أخرى.

تبادلنا التعارف، وذهب كل منا لوجهته، لكن شغف الأدب ورحم العلم وشراكة الإبداع رابطت بين قلوبنا وعقولنا، فتلاقينا مراراً في فعاليات الجزائر، ورحلاتنا السياحية والثقافية فيها، كذلك في رحاب شاعر الثورة الجزائرية المناضل الثائر مفدي زكريا، بدعوة كريمة من نجله زميلي الودود المثقف السفير سليمان الشيخ مفدي زكريا، شاركت في رحلة ماتعة للصحراء في غرب الجزائر، وإلى مدينته الريفية (غرداية) بصحبة الصديق الأديب الرئيس الجزائري عبد العزيز بو تفليقه، حيث تم تدشين متحف المناضل مفدي زكريا في (غرداية) وكنت يومذاك أمثل ثقافياً منتدى المثقف العربي الذي أرأسه في القاهرة ومؤسسة الابداع للثقافة والآداب والفنون بصنعاء، أدباً وإبداعاً، وأمثل الجمهورية اليمنية في

المهرجان الرسمي للدولة بصفتي سفيراً لليمن بمصر ومندوباً دائماً لدى جامعة الدول العربية.

لكن المبتغى ليس الرسميات ولكن معرفة الأدباء والشعراء والنقاد والسياسيين والفنانين في الجزائر الحبيبة، وقد أهدى لي هذا الطود الروائي الموهوب الأديب/ فاروق عبد الله مجموعة من كتبه، وأشعاره، ورواياته، وتشاركنا جولات في ضواحي العاصمة، ومن إهداءاته رواية ألفتت نظري باسمها الغريب **سيبيجاج** فعدنا إلى القاهرة من الجزائر بعد مهرجانات ومشاركات سالبة خالبة للألباب. واستمرت بيننا المودة والتواصل واللقاءات على جسور المعرفة في مصر، وكنت لأول مرة أعرف اسم نهر في أقصى جنوب شرق الجزائر يسمى **سيبيجاج** وباسمه عُنونت هذه الرواية العذبة، التي لا تسمح للقارئ أن يتوقف قبل الانتهاء من قراءتها، والمرور المتأني بالمكان والزمان حيث جرت أحداثها، والانتقال معها حيث انتقلت، فهي سجل تأريخي واقعي محبوك في قالب روائي، عن ثلاثة شعوب.. وعن ثلاث ثورات.. وعن حربين ضروسين.. حرب تحرير الجزائر ضد الاستعمار الفرنسي، بين 1953 حتى تحررت برحيل الاستعمار 1962م، وعن حرب ثورة اليمن الجمهورية مع النظام الملكي (آل حميد

الدين) المتزامنة بين 1962م حتى 1970م. وعن فصول من إيجابيات وسلبيات الأداء في ثورة مصر الجمهورية الرائدة ضد عائلة محمد علي الملكية في يوليو 1952م. الثورة التي أيقظت الشعوب العربية من سبات الاستعمار والاستبداد.

لقد تدفقت أحداث هذه الرواية كالسلسل العذب، متخذة لمسارها قصصاً غرامية، ومثيرات عاطفية، تعيش مع الكفاح الدامي، والصراع الشرش مع الثورات، في الجبال، في الصحارى، في المدن، في القرى، وفي التعليم، وفي أدوار المخابرات السرية. وهكذا صنع الروائي المتمكن الأديب/ فاروق عبد الله بطلات وأبطال لروايته قصصاً مليئاً بالشجى والشجن، وجعل للرواية عدداً من الأبطال رجالاً وإناثاً على مدار أحداث الرواية، تبدأ من بداية الرواية ولا يغادرون المشاهد المثيرة إلا في أواخرها مغادرات مليئة بالأحزان والوجد والألم. ناهيك عن كون أبطالها من جنسيات متعددة، وتدور حول محور ثورة التعريب في الجزائر بعد الاستقلال، ومواجهة فريق المتفرنسين وانتشار المدرسين للغة العربية في جبال وصحراء ومدن الجزائر، المدرسون الذين كان لهم فضل إنقاذ اللسان العربي في الجزائر العربية التي طمست فرنسا بثقافتها ولغتها اللغة والثقافة العربية، بتجهيل الجزائريين لغتهم

الأصلية، ولولا رابط الدين وشعائره المشتركة التي حافظت على شيء من الاعتزاز باللغة العربية والقرآن العربي المبين، لما أدرك الجزائريون من عروبتهم وثقافتهم شيئاً. لقد كشفت رواية **سيبيجاج** في سياق سرديات الحب والغرام، عن تدفق كبير ضمن حملة التعريب للآلاف بل لعشرات الآلاف من المدرسين المصريين والسوريين الذين ذهبوا للجزائر بتوجيه من ثورة يوليو المصرية التي حملت على كاهلها تبني الثورتين الجزائرية واليمنية، بالمال والسلاح والمدربين والخبراء والمدرسين والمقاتلين، وكان الأديب الروائي/ فاروق عبد الله ضمن تلك الحملة القومية لمصر لتعريب الشعب الجزائري، وبسبب تلك البعثة أصبح جزائري الهوى مثلي.

لم تكن هذه الرواية بسحرياتها المشحونة بالمغامرات الغرامية المبثوثة والمترابطة في الرواية المثيرة مجرد توظيف لشد القارئ كغيرها من الروايات، ولكنها لتكمل صورة الوقائع التاريخية، وما كان البطل المصري **عمر** المناضل المدرب المقاتل المريض، العاشق الماجن المغامر التاجر الجاسوس الوقور، وزوجته المصرية **وفاء** بنت منصور باشا فهمي، إلا لغرض الإيماءات السردية عن قوة وحضور الدور المصري في ثورة تحرير الجزائر وثورة اليمن، اقتصادياً وسياسياً

وعسكرياً، وهي الأدوار التي لا ينبغي أن تغيب. كما كان دور البطلة **سوزي** اليهودية الفرنسية، في صنعاء دوراً يعكس حرب الجواسيس وقلق إسرائيل من ثورة يوليو وعبد الناصر. وتحالفه مع الاتحاد السوفيتي، وتكشف عن الدور الإيراني لإمبراطورية (محمد رضا بهلوي) الملكية إبان تلك الحقبة لدعم الأنظمة الملكية الحليفة للغرب، كما كان دور البطلة المثيرة الجزائرية **جميلة** و**أمل** هو الدور المحوري الذي ارتكزت عليه مسارات الرواية، لكشف الواقع النضالي والاجتماعي للشعب الجزائري. وكما رسمت الرواية بدور البطل **غسان** السوري ملامح القوة للحملة العربية المصرية السورية العراقية لتعريب الجزائر، وما كاتب هذه الرواية إلا واحداً من أبطال هذه الحملة وفرسان هذه الرواية، واحداً من الذين انصهروا في المجتمع الجزائري، في القبائل النائية والمدن البعيدة ليعيدوه إلى لسانه العربي المبين، وللجزائر باع مديد في ريادة التمسك بعروبتها، وانحيازها لأمتها، وقضاياها. كما أن **سيبيجاج** لم تفلت أخطاء إدارة قياد الثورة المصرية من التناقض والأضداد والنقائض، كأخطاء الزعيم جمال عبد الناصر الذي كان يفشي أسرار دولته خلال خطاباته في سبيل الإلهاب لعواطف الجماهير، إفشاء للمفاخرة لا يحيج خصومه

للتجسس على أسلحته وقواته، كما نقدت الرواية صراع الأجنحة في مصر خاصة بين الإتحاد الاشتراكي بقيادة علي صبري، وبين عبد الحكيم عامر الذي اعتمد جهاز المخابرات العسكرية بديلا عن الدولة.

لقد وفقت يا صديقي الشاعر الروائي الموهوب، أهنئك وأهنئ من يقرأ **سيبيجاج** وأتمنى أن أراها على شاشة السينما العربية، فيلماً باهر الإعداد والإخراج. لتكتمل الدهشة، ويخلد للأجيال قصة واقعية في رواية مثيرة، ومترجمة لعدد من اللغات.

برمنجهام – بريطانيا – في يوليو 2016م
السفير الدكتور/ عبد الولي الشميري
رئيس مؤسسة الإبداع للثقافة والآداب والفنون – صنعاء
رئيس منتدى المثقف العربي – القاهرة

الفصل الأول

معركة الثلوج البيضاء

كانت الثلوج تتساقط بغزارة على السفوح والهضاب المحيطة بجبل "عامور" الشاهق الارتفاع بأقصى جنوب غرب الجزائر، في ذلك الشتاء القارص البرودة من عام 1962، حينما دارت تلك المعركة الضارية بين القوات الفرنسية التي تواجدت بكثرة بنواحي مدينة "آفلو" عاصمة جبل عامور، وبين قوات التحرير الجزائرية التي بدأت تقوى وتشتد وتنظم صفوفها في ثورتها المقدسة ضد المحتل الغاصب من أجل تحرير الوطن.

ولقد اكتسبت المعركة أهميتها لأسباب عدة أهمها: موقع مدينة آفلو الذي تدور فيه الحرب، فبرغم ضآلة المدينة وبعدها عن كل وسائل الحضارة والمدنية، إلا أنها اكتسبت أهميتها وتأكدت استراتيجيتها الحربية باعتبارها المعبر الوحيد الموصل ما بين هضاب الجزائر العليا وصحرائها الكبرى، خاصة بعد اكتشاف البترول بالصحراء مما أسال لعاب المستعمر الفرنسي وجعله يطيل من أمد تواجده بالجزائر برغم خسران كفته بعد تصاعد المد الثوري بها وتأييد العالم الخارجي للثورة، خاصة الدول العربية المجاورة التي لم تنس وحدة العمق التاريخي لشعوبها، فكانت بمثابة البعد الاستراتيجي الذي أمد الثورة

بالوقود المشتعل من الرجال والعتاد، وعلى وجه الخصوص بعد أن تفجرت الثورة المصرية بقيادة: "عبد الناصر" الذي أعلن الحرب على الاستعمار العالمي ودعاه لأن يحمل عصاه على ظهره ويرحل، فأيقظت دعوته الشعوب الغافلة، وألهبت نداءاته قلوب الثوار في كل مكان حتى لقد غزت المستعمرات البعيدة، ووجدت صداها لدى الفقراء والمستضعفين فثاروا على سادتهم واشتعلت بفضله الثورات في كل الأرجاء، تطالب بطرد المستعمر والجلاء بالدماء..

كانت الثورة الجزائرية من الثورات الأولى التي اشتعلت بالمنطقة عقب قيام الثورة المصرية بقليل، وانطلقت شرارتها في الفاتح من نوفمبر عام 1954، بفضل إيمان شعبها وبقيادة نخبة من أبطالها الذين قادوا ثورتها وقد صلب عودهم وقويت شكيمتهم بمساندة الأشقاء العرب لهم، من هؤلاء الثوار الجزائريين: أحمد بن بللا وهوارى بومدين والشاذلي بن جديد وعباس فرحات وقايدى أحمد.. وغيرهم من المجاهدين الأبطال الذين نظموا صفوفهم وقادوا جيوشهم من خلال تحصيناتهم التي أقاموها بجبال الجزائر المنيعة، فكانت لهم بمثابة الدرع الواقي الذي حماهم من طائرات الجيش الفرنسي، وصد عنهم دباباتهم وترساناتهم البرية والبحرية المزودة بأحدث الأسلحة، بينما أعتمد المجاهدون في حربهم ضد فرنسا على حرب

العصابات الخاطفة والأسلحة الخفيفة المكونة من البنادق والقنابل اليدوية، مما مكنهم من مفاجأة العدو وإرباكه وشل حراكه وتدمير مخزوناته، والهرب بسرعة قبل أن يسترد العدو قواه الضائعة أو يتمكن من رد الضربة وصد الهجوم، كل هذا مما كان يطيش بصواب المستعمر ويجعله أكثر عصبية وأشد شراسة، فيعمد للانتقام من المدنيين العزل من السلاح حينما يفشل في تتبع المجاهدين الذين سرعان ما يلوذون بمخابئهم المنيعة بين الجبال.

لكن المعركة الدائرة حول جبل "عامور" في شتاء 1962 لم تكن مجرد حرب عصابات خاطفة كدأب المجاهدين منذ بداية حرب التحرير الجزائرية، وإنما كانت ثمرة معارك حرب ضروس امتدت سنوات عدة، أشتد خلالها جيش الثوار وتمرس على القتال وتزود بالرجال والعتاد، مما جعلهم يظهرون في أحيان كثيرة بمظهر الجيش النظامي الذي سيطر على محاور بأكملها خاصة الجبلية منها، ومن أبرزها محور جنوب غرب الجزائر بقيادة البطل: "عشراتي".. الذي تمركز بقواته حول مدينة آفلو ودارت بها المعارك الضروس التي أجبرت العدو الفرنسي على التخلي عن المنطقة التي خضعت آخر الأمر لسيطرة الثوار الذين أحكموا قبضتهم على المدينة فقطعوا بذلك خطوط إمدادات العدو نحو الجنوب.. لذا فقد أسرع الفرنسيون

في تقهقرهم يطلبون العون والإمدادات من قيادتهم الشمالية المتمركزة في محور "وهران– معسكر– تيارت" ، تمهيداً لرد الهجوم ودحر الثوار.. لكن طبيعة المنطقة الوعرة وبعدها السحيق عن كل مراكز الإمدادات وأقربها مدينة تيارت، ويقدر البعد الفاصل بينهما بما يزيد على المائة والخمسين كيلومتراً، تمتد عبر صحراء جليدية جرداء، خاصة في هذا الشتاء البارد حيث تنغلق معظم الطرق لانسدادها بالثلوج، مما يجعل المدد متعذراً، بل يكاد يكون مستحيلاً حتى ولو كان بطريق الجو، إذ لا يمكن للطائرات أن تحلق بالمنطقة أثناء تساقط الثلوج الذي كان غالبا ما يمتد أياماً طويلة أثناء موسم الشتاء.. كل هذا مما أعطى الثوار الفرصة لإحكام سيطرتهم حول المدينة، وحصار الفلول الفرنسية المتمركزة في نقاط حصينة بين الجبال..

إجتمعت قيادة الثوار داخل قصر الأمير "عبد القادر" وسط مدينة آفلو، الذي هو بمثابة المركز الإداري لها، فقل أن تخلو قرية أو مدينة جزائرية من قصر أو مدرسة تسمى باسم ذلك الأمير الخالد الذي عاش في وجدان الشعب الجزائري ما يزيد على القرن من الزمان، لما كان له من فضل وما نسب إليه من مآثر في مقاومته للفرنسيين والتصدي لهم في احتلالهم للجزائر أوائل القرن الماضي، وكانت له معهم صولات وجولات

انتهت باستسلامه لهم ونفيه مع أسرته خارج البلاد، وتكرس بعده احتلال فرنسا للجزائر.. لكن الجزائريين مع ذلك ظلوا على ولائهم له وحبهم إياه، ونصبوه رمزاً لكفاحهم ضد المحتل، وقل أن تخلو دار جزائرية من صورته بل انتسبت إليه معظم الأسر العريقة تيمناً وتبركاً به خاصة في سنوات الثورة الأخيرة، وعلى هذا جرى الحال بمدينة آفلو التي توسطها قصر الأمير عبدالقادر، وسكنه نسل من أشراف المدينة ادعوا نسبهم للأمير عبدالقادر، كان آخرهم: "الشريف بن أحمد"، آخر سلالة الأمراء والحاكم الروحي للمدينة، والجالس على صدر مائدة الاحتفالات الضخمة التي غصت بالخراف المشوية التي مزقتها أيدى المجاهدين القوية، وغيبتها أفواههم الشرهة في بطونهم التي طالما باتت على سفوح الجبال خاوية، بلا زاد أو طعام سوى ما تقتات به من حشائش الأرض ونبات الصحراء.

بعد أن أخليت المائدة من بقايا الطعام، وعلى رشفات الشاي الأخضر الذي أدفأ الصدور وأنعش النفوس، بدأ الشريف بن أحمد خطبته العصماء، حيث حمد الله وأثنى عليه، ثم ترحم على الشهداء، وشكر المجاهدين على كفاحهم المشرف وهنأهم بالنصر، الذي هو فاتحة ومقدمة للفتح المبين والنصر على الغاصبين.. بعد ذلك تبارى الشعراء في إلقاء قصائدهم الغراء، يتفاخرون بحسبهم ونسبهم، ويستلهمون بطولات الأوائل

الفاتحين، الذين غزوا البلاد وأخضعوا لحكمهم العباد، كل هذا مع التصفيق والهتاف، مما قوى العزائم وألهب الحماس.. استعداداً للمعركة القادمة..

بعد أن اكتفي الشعراء، تناول "عشراتي" الكلمة، حيث أثنى على الشريف بن أحمد لمساعدته القيمة للثوار أثناء تواجدهم بالجبال، فقد كان خير مدد لهم في قيادته لحركة المقاومة السرية داخل المدينة أثناء الاحتلال الفرنسي لها، وليس ذلك بمستبعد على أحفاد الأمير عبد القادر الذين صمدوا وحاربوا المستعمر على مر السنين.. ثم إلتفت نحو شاب صغير السن أسمر البشرة مفتول العضلات، يجلس في استكانة وتواضع بعيداً عن الأنظار في طرف المائدة، قدمه إلى الحاضرين باسم الملازم: "عمر هاشم" الضابط المصري الشجاع الذي قاد برغم صغر سنه الهجوم وخطط له، وكان له الفضل الأكبر في النصر الساحق على الأعداء، نتيجة لاستخدامه الأساليب الحديثة المتطورة في الحروب التي طبقها مع الأسلحة الجديدة التي أرسلتها القيادة المصرية برفقته سراً إلى الثوار الذين أحسنوا استخدامها بعد تدريبهم عليها، مما أربك الفرنسيين وأخذهم على حين غرة، فأخل بحساباتهم وأطاح بصوابهم وأنزل بصفوفهم الرعب والدمار، فولوا الأدبار ولاذوا بالفرار.. ثم أنهى "عشراتي" كلمته طالباً من الجميع التزام جانب الحذر

فالحرب مازالت قائمة لم تنته بعد، لذا فإن أمر الملازم "عمر".. مع أسلحته المتطورة يجب أن يظل أمراً مخفياً وسراً حربياً لا ينتقل خارج المكان، خاصة إلى الجانب الفرنسي، حتى لا تفشل خططهم، فضلاً عما يمكن أن يثيره ذلك من أزمات سياسية بين الحكومتين المصرية والفرنسية، وغير بعيد أن تتطور الأمور بينهما إلى مواجهة عسكرية كما حدث بينهما عام 1956، حينما قامت فرنسا بالاشتراك مع إنجلترا وإسرائيل بالاعتداء على مصر، بسبب ما قدمته من مساعدات عسكرية لحرب التحرير الجزائرية (ولأسباب أخرى خاصة بالعلاقات ما بين مصر وكلا من إنجلترا وإسرائيل).

تناول عمر الكلمة، حيث شكر أعضاء القيادة الجزائرية على تكريمهم له وثنائهم عليه، فهو لم يفعل سوى الواجب المكلف بأدائه من القيادة المصرية نحو أشقائه الجزائريين.. ثم انتقل إلى خريطة كبيرة للمنطقة بسطها أمامه على المائدة، وأخذ يشير من خلالها إلى المواقع المحيطة بهم، مبيناً عليها مواقع القوات واحتمالات الموقف.. ورجح قيام الفرنسيين بهجومهم المضاد الكبير بفلول قواتهم المتناثرة عن قرب، مع احتمال تزويدهم وتدعيمهم بإمدادات تأتيهم من قواعدهم القريبة، وذلك لاستعادة هيبتهم التي أطاحت بها هجمة

الفدائيين الغير متوقعة، خاصة في تلك المنطقة الحيوية بجبل "عامور" التي تتحكم في طريق الصحراء..

وسرعان ما احتدم الرأي واشتد الخلاف بين الموجودين.. ما بين مؤيد لرأي عمر في ضرورة توخي الحذر وإعلان حالة الطوارئ بين المجاهدين، بينما انصرف آخرون لرأي مخالف يرون به عدم توقع هجوم فرنسي مضاد سريع.. على الأقل طوال فترة هطول الثلوج التي قد تمتد لأسابيع قادمة، نتيجة لتعذر وصول الإمدادات إلى المنطقة، وعجز الفلول الفرنسية المتواجدة في ظروف سيئة بين الجبال من القيام وحدها بالهجوم المضاد، لذا فلا بأس من الانتظار والراحة فترة يحتاجها المجاهدون ولاشك بعد معاركهم الشاقة الماضية، فينظمون صفوفهم ويستردون قواهم، ليكونوا من بعد أقدر على معاودة الحرب والهجوم..

بعد فترة هدأ خلالها الحديث، تساءل "بن دحمان".. أحد قادة المجاهدين قائلاً: ترى ما هي أخبار الضابط الفرنسي الذي أسرناه في المعركة صباح اليوم؟..

أجابه "ڤويدر".. القائد التالي له مباشرة: لقد تم إرساله مع الحراسة المشددة، إلى القيادة العليا لاستجوابه، ولقد حاولت أن أستجوبه بنفسي فور اعتقاله، ولكنني لم أستطع أن أحصل منه على شيء، وما أظنه إلا مخادعاً كبيراً يخفي العديد من

الأسرار العسكرية الخطيرة، التي ستُفيدنا حتماً لو علمناها منه..

أجاب عمر بقلق بالغ قائلاً : هذا ظني أيضاً، فلقد لاحظت تلك النظرات الماكرة في عينيه، وإستعجاله الرحيل إلى القيادة لاستجوابه بعيداً عن هنا، اكتساباً لمزيد من الوقت والمراوغة، وهذا مما يزيد من شبهاتي وإحساسي بالخطر ويحثني على طلب المزيد من الحذر والاستعداد الدائم لقتال شديد مفاجئ وغير متوقع..

أجابه أحد القواد ضاحكاً: لا تقلق! فهم يعرفون في القيادة كيفية التعامل مع أمثاله.. وسوف يبلغوننا بما لديه من معلومات.. إن كانت تستحق ذلك..

تدخل "عشراتي" في الحديث قائلاً: الحذر واجب دائماً.. لكن في مثل ظروفنا تلك فهناك أولويات تفرض نفسها علينا، تتعلق بالوضع الداخلي السيئ للمدينة وحالة المرافق التي تدهورت بها، فالتعليم متوقف منذ فترة طويلة، ولقد تحول معظم المعلمين والمعلمات للمساعدة في عمليات التمريض للأعداد الضخمة من المصابين في العمليات الحربية الأخيرة، فضلاً عن نقص الأدوية والمعدات الطبية مما يستدعي تكثيف الجهود لدعمها وتوفير المزيد منها.

قبل أن يتشعب الحديث مرة أخرى، فيحتدم الرأي ويشتد الخلاف.. تدخل الشريف بن أحمد بصوته المهيب قائلاً: الرأي أن نخلد إلى الراحة الآن، فلقد كان اليوم شاقاً والقتال مريراً، وعلينا أن ننتظر إلى الغد لنرى ونعيد بحث الأمور مرة أخرى بحكمة أكثر على ضوء ما تتكشف عنه الأحداث، وعلى كل حال.. فعلينا أن نكون – كما قال إبننا البطل المصري عمر – أن نكون دائمي الحذر وعلى استعداد دائم لكل الاحتمالات، لذا فلا بأس من أن نضاعف الحراسة عند المواقع الهامة، وأن تبث العيون في شتى الجهات لرصد أي تحركات غير متوقعة للعدو.. ثم لا تنسوا أن بيننا الآن الكثير من فلول الأعداء والمتعاونين معهم، يجب علينا أن نطهر المكان منهم لنظل آمنين..

بعد قليل.. انفض الاجتماع، فانصرف القواد كل إلى موقعه المكلف بقيادته خارج المدينة، بينما توجه القائد عشراتي إلى مقر القيادة الذي أقيم بفندق المدينة، برفقة أقرب قواده قويدر وبن دحمان.. اللذان أحاطا عمر عن يمين ويسار، وأيديهم على السلاح في استعداد لحمايته وإبعاده عن العيون تنفيذاً للتعليمات المشددة الصادرة إليهم لإخفاء سر تواجده بينهم.

كان الجو بارداً، والثلوج البيضاء تغطي مساحات شاسعة من الطريق والمنازل، وقد التحف الجميع بأرديتهم الوطنية

الثقيلة وفوقها "الجلباب" المصنوع من شعر الأغنام وصوف الخراف السميك، يحيط بكل الجسم والرأس فلا يبين سوى مجال ضيق للعيون التي ضاقت لترى بحدة في الطريق المظلم، إلا من ذبالات ضئيلة لمصابيح خافتة علقت على أبواب المنازل والمحلات لتعطي الفرصة للحرس الدائر في المدينة لتبين الرائحين والغاديين، والتعرف على شخصياتهم استتباباً للأمن الذي بدا مستقراً، بعد معارك الأمس الطاحنة التي تركت آثارها المدمرة على المكان.

عند وصول القواد إلى نزل المدينة، حياهم الحرس الواقف على الباب تحية عسكرية بسيطة تعكس بساطة حياتهم وعلاقاتهم الشخصية فيما بينهم مهما كان التفاوت في رتبهم وألقابهم، فكلهم مجاهدون في سبيل الله، لا فضل لأحدهم على الآخر إلا في اضطلاعه بالمزيد من الواجبات والمسئوليات..

كان الفندق قد تحول منذ آخر النهار إلى مقر مؤقت لقيادة المجاهدين، حيث وزعت غرفه القليلة بينهم ليشترك كل اثنان أو ثلاثة في واحدة منها، بينما ظلت إدارة النزل موكولة لمديره السابق المسمى "عزوز".. والذي أطلق عليه الفرنسيون اسم "زيزو".. ليكون أسهل في النطق والمناداة..

إستيقظ "عزوز" من نومه المتقطع على أريكته التي يحتفظ بها خلف باب الفندق، إثر الجلبة التي أحدثها الحراس في

استقبالهم لمجموعة القواد في عودتهم المتأخرة للفندق، فأسرع زيزو لتحيتهم.. وهو يطرد النعاس عن عينيه، راح يمارس دوره الأثير لديه في مداهنتهم وهو يشيعهم بعبارات النفاق والتملق، وهم عنه منصرفون إلى غرفهم التي أغلقوها خلفهم في استعدادهم للنوم، دون أن يعيره أحد منهم التفاتا، من ضآلته وقلة شأنه بينهم..

كانت الحجرة التي إشترك فيها عمر مع رفيقة قويدر وبن دحمان، رحبة فسيحة واسعة، ضمت إليها ثلاثة أسرة كبيرة، وزودت بمدفأة تعمل بالماء الساخن عن طريق تدفئة مركزية تقع أسفل المنزل.. لذا فما أسرع ما تخلص الرفاق من ملابسهم الثقيلة واستلقوا على أسرتهم الوثيرة يتنعمون بالدفء الذي سرى في أجسادهم المقرورة التي طالما رقدت بلا غطاء بين الثلوج وعلى رؤوس الجبال في كفاحها الطويل ضد الغاصب الدخيل، إلى أن حان وقتها ها هنا لتنعم بدفء النصر.

كانت فترة ما قبل النوم منطلقاً فسيحاً للأخيلة والأحاسيس، بحيث وجد فيها عمر متنفساً لأماني نفسه التي انطلقت تعربد بداخله، خاصة وقد وجدت المناخ المناسب لانطلاقها في ذلك المكان الهادئ والجو الدافئ والرقاد اللذيذ الذي لم ينعم عمر بمثله منذ بداية حربة الشرسة مع المجاهدين ضد العدو الفرنسي الغاشم المزود بأحدث الأسلحة التي استعملها بضراوة

للفتك والتدمير، خاصة ضد المدنيين المسالمين العزل من السلاح والبعيدين عن القتال..

* * *

كان عمر ضمن فريق من الضباط المصريين أرسلتهم القيادة المصرية سراً إلى الجزائر مزودين بأحدث الأسلحة والمعدات الحربية المتطورة لتدريب المجاهدين على طرق الحرب وفنون القتال الحديثة، بعد أن تعثرت عملياتهم الحربية الأخيرة، وطال أمد قتالهم الشرس الغير متعادل، ما بين ثوار بسطاء لا يملكون سوى إيمانهم وبنادقهم الخفيفة، ومحتلين غاصبين مدججين بحقد أسود وأسلحة ثقيلة فتاكة.. ومنها المحرم دولياً.. لذا فلا غرو أن تحولت حرب التحرير الجزائرية إلى حرب إبادة راح ضحيتها ما يقرب من المليون شهيد من خيرة أبناء شعب الجزائر المجيد.. ومن هنا جاءت مبادرات الشعوب العربية للمشاركة في ذلك القتال إلى جانب أشقائهم الجزائريين، بهدف تقصير أمده وتعديل مساره لصالح المجاهدين، فكان عمر ورفاقه من الضباط المصريين إحدى تلك المبادرات من شعب مصر، وعربون صداقة من عبدالناصر لشعب الجزائر الشقيق..

وهكذا وزع الضباط المصريون بأسلحتهم الحديثة على شتى الجبهات الجزائرية بأعداد قليلة لعدم إثارة الشبهات أو لفت

الأنظار، فكانت الجبهة الجنوبية الغربية من نصيب عمر الذي عمل فيها بجد وحماس تحت قيادة قائدها عشراتي الذي أوكل إليه أمر القيادة الفعلية في الكثير من المواقف والمعارك الصعبة، لما لمسه فيه من علم واسع بفنون القتال، ومقدرة فذة على استعمال السلاح الحديث.. وأخيراً لما امتاز به من شجاعة وجسارة وإقدام، ساعده في ذلك اثنان من أشجع القواد الجزائريين هما قويدر وبن دحمان.. اللذان رافقاه دائما في أصعب المعارك وأشرسها، فتقاسموا فيها البطولة وجلبوا النصر تلو النصر، بفضل إصرارهم على الكفاح بإيمان راسخ وقلوب ثابتة لا تعرف الخوف أو التردد..

كانت حياة الجبال في البداية شاقة على عمر الذي ألف الأراضي المنبسطة بوادي النيل، وكثيراً ما كان ينتابه الدوار في بداية تواجده بالجزائر وهو يدور حول قمة شاهقة، أو في هبوطه لهوة سحيقة، لكنه سرعان ما أعتاد المشاق، وألف بعد قليل الخشونة البادية للمجاهدين في تعاملهم فيما بينهم، وقد ظنها نتيجة لسوء في الأدب أو نقص في التربية، لكنه سرعان ما إكتشف جوهرهم النقي الكامن وراء مظهرهم الفظ الغليظ، وأنهم كالتبر المختلط بالتراب.. سرعان ما يتحول إلى ذهب خالص إذا ما تعرض للهب الشديد، وهكذا كان شأنهم دائماً.. يتحولون إلى أبطال وعمالقة وهم يحترقون في لهيب المجد

وأهوال القتال، فما لبث أن ألف إليهم فأحبهم وأحبوه، وهو يجد فيهم مثله العليا.. سرعان ما حقق بهم ومعهم النصر تلو النصر، هازئين بالمخاطر مستخفين بالهلاك..

في البداية كانوا يحاربون بروح التضحية والفداء، طالبين الشهادة كهدف نبيل، لكن عمر سرعان ما علمهم كيف يمكن أن يحاربوا بذكاء ويظلوا أحياء، وبذا فقد قلت مع الوقت خسائرهم، واشتدت شكيمتهم وقويت شوكتهم، إلى أن كان نصرهم الأخير في "آفلو" الذي عزز مواقعهم ورفع من قدرهم وقوى معنوياتهم، وحفزهم للمزيد من النصر والكفاح..

لكن عمر – مع ذلك – لم يكف لحظة واحدة عن القلق، بل شعر بعظم المسئولية الناتجة عن النصر، ليظل محتفظا بما حققه من نجاح، فما زالت كفة العدو هي الراجحة في الأشخاص والمعدات، ويجب ألا يخدعه هذا النصر الذي ربما تحقق نتيجة لعدة عوامل مؤقتة، من بينها بعد منطقة "آفلو" عن إمدادات الجيش الفرنسي، وتحصنها الطبيعي فوق قمم جبل "عامور" الشاهقة الارتفاع، المغطاة بالثلوج خاصة في هذا الموسم البارد من فصل الشتاء.. وعلى فرض أن فرنسا قد خسرت معركة اليوم، فليس معنى هذا أن تتخلى عن ذلك الجزء الهام من الجزائر، الذي أكتسب أهميته البالغة من تحكمه في طرق الصحراء، حتى لقد سميت آفلو بحق "بوابة

الصحراء"، لذا فعليه أن يتوقع الهجوم المضاد، الذي سيكون بكل ضراوة وبأسرع مما يتوقع أو يدور بحسبان..

انتبه عمر من تأملاته على صوت بن دحمان الذي استوى على فراشه وهو يتأهب للنوم قائلاً: ترى.. أيمكن أن تنقضي ليلتنا تلك بدون هجوم جديد؟..

أجابه قويدر وهو يحكم حوله الغطاء قائلاً: اسأل قائدنا: عمر.. فلديه كل المعلومات..

أجابهما عمر وهو يتدثر في فراشه قائلاً: أظن أنه يمكننا أن ننام الليلة في هدوء.. حتى الصباح..

* * *

نعم.. فذلك الهجوم المنتظر لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون اليوم، أو بالأحرى فلن يكون في تلك الساعات القليلة القادمة، الفاصلة ما بين الليل والنهار، والتي يحتاجها الجميع لينعموا خلالها ببعض الراحة بعد عناء القتال المرير الذي راح ضحيته زملاء وأصدقاء، قتلوا أو باتوا في المستشفيات مثخنين بالجراح ما بين الحياة والموت، لا يعلم أحد أيموتون! أم سيقدر لهم أن يروا الصباح الجديد؟.. أما هو فأسعد حظاً، يرقد في فراش وثير بعد وجبة عشاء دسمة، يستمتع بالدفء وينتظر النعاس، بينما يطلق لخياله العنان ليحلق في الآفاق البعيدة، يجتر ذكرياته الحلوة التي عاشها بالقاهرة- أم الدنيا- قبل

حضوره إلى الجزائر، وما تخلل حياته من عمل دائب وكد وكفاح مشرف، انتهى به بتلك النجمة العسكرية التي يتشرف بحملها فوق كتفيه ليصبح ضابطا بجيش عبدالناصر، القائد المنتصر المكافح العظيم، الذي رفع شعار العزة والكرامة، وحرر مصر من محتليها وغاصبيها ومستغليها، فصحح بذلك الأوضاع، وأعاد للفقراء والعمال والفلاحين حقوقهم المسلوبة وكرامتهم الضائعة، في ظل حكم ديمقراطي سليم، امتدت أنواره لتشمل كل نظم الحكم الاستبدادية في المنطقة، فأنهضت شعوبا من سباتها الطويل، وجعلتهم يقفون في ثبات أمام المستعمر يطالبون بالجلاء ونهاية عهد الاستبداد، بل جعل كل فرد مهما كان بسيطاً يشعر بأنه قائد في موقعه، ومدافع عن الحرية والكرامة في كل بقاع الأرض.. لذا فإن "عمر" لم يتوان أو يتردد في قبوله التطوع بالجيش الجزائري عقب إعلان ثورتها، من واقع إحساسه العميق بمسئوليته عن قضية التحرر التي جعلها عبدالناصر قضية كل الناس، وبعد أن تيقن لديه أن قضية الحرية في العالم هي واحدة لا تتجزأ، مهما اختلف الغاصب وتعدد المستعمرون..

في اللحظة التي همَ فيها "عمر" أن يجتاز بخياله ويعبر إلى نهر الحب العظيم، الذي جمعه في مصر بزوجته وحبيبة قلبه "وفاء".. حيث عاش على ضفافه لحظات ساحرة، مسروقة من

ملحمة الحرب، مطرودة من قاموس الكفاح العسكري المدمر الرهيب.. ففي الحرب يعبر الإنسان في ظل وادي الموت، فتتضغط الحياة وتموت الأحلام، ولا يبقى إلا عالم خرافي عجيب يظهر من خلال فوهة البندقية، مساحته محددة بالمدى الفاصل ما بين انطلاقة الرصاصة ووصولها إلى الهدف المحدد لها، وبقدر دقة التصويب.. يكون الأمل في الحياة..

في اللحظة التي همَ فيها بالعبور إلى نهر الحب العظيم، إلى حيث تقف حبيبته وفاء، ترمقه في فتنة وتمد إليه يديها في حنان.. في تلك اللحظة عينها، تكلم قدور قائلاً: لكم توحشنا إلى الأسرة والعيال..

أجابه بن دحمان وهو يتقلب في فراشه قائلاً: منذ أن خرجنا إلى الجبال.. فقد طلقنا نساءنا وتزوجنا الجزائر..

بإزاء صمت عمر، فقد سأله قدور قائلاً: وأنت أيها القائد عمر.. هل أنت متزوج؟..

أجابه عمر وقد برقت عيناه ببريق الذكرى قائلاً: نعم.. لكن لفترة قصيرة فقط، جئت بعدها إلى الجزائر..

أطلق قدور ضحكته الخشنة التي جلجلت في فراغ الغرفة قبل أن يجيبه قائلاً: يا لسوء حظك.. إذ مازال الشوق في داخلك كالنار المشتعلة..

أجابه بن دحمان وهو يعلن سخطه على النساء قائلاً: بل هو محظوظ ولا شك.. فلو طالت عشرته لها، لاكتشف عيوبها ولطلقها بعد قليل.

ساد الصمت برهة.. سمح للأخيلة أن تعيد انطلاقها في الرحاب البعيدة، والنوم يداعب العيون، عبر عمر بخياله إلى نهر الحب العظيم، إلى حيث تقف على شاطئه زوجته وحبيبته: وفاء.. فاتنة فارهة القوام، وقد أنتثر شعرها على أكتافها العارية، كجنية الماء التي طالما ظهرت للمارة في أنصاف الليالي المقمرة، فمد إليها كلتا يديه، فأمسكته بقوة، وغيبته معها في الأعماق السحيقة..

الفصل الثاني

جميلـــة

في الفترة السابقة على معركة الثلوج البيضاء، وفي طرف من أطراف مدينة "آفلو"، كانت تسكن فتاة جزائرية جميلة تدعى "جميلة"، تقيم بمفردها في دارها الريفية الهادئة التي تحيط بها حديقة واسعة، كانت قد اقتطعت إليها من السلطات الفرنسية بسعي من الشريف بن أحمد، الزعيم الشعبي الذي قام بتزكيتها لدى الفرنسيين، فألحقها مسيو "بو".. الحاكم العسكري للمدينة كممرضة في مستشفى آفلو العسكري، وزاد بأن أهداها عربته الخاصة "الكارتة" التي يقودها حصانه الأشهب السريع لتستعملها في داخل المدينة، كرمز للصداقة الفرنسية الجزائرية التي كانت تسير في طريق الانحدار منذ إعلان حرب التحرير الجزائرية.. لذا فقد كان لزاماً على الفرنسيين التذكير بها بين الحين والحين، على شكل هبات وعطايا يغدقونها على الأتباع والمقربين، أو أصحاب السلطة والنفوذ، لضمان ولاءهم وجلب رضاهم..

كانت جميلة.. شقراء فاتنة فارهة القوام ممشوقة القد، لكن في تحشم واحترام، جمة النشاط موفورة الذكاء، متداخلة متفاعلة مع الأحداث، ذات صلات طيبة بالعديد من

الشخصيات الهامة بالمدينة، مما جعلها محبوبة من الجميع.. لكن جميلة قد كان لها فضلاً عن ذلك دوراً آخر خفي تقوم به في خدمة المجاهدين، فتنقل إليهم ما يصل إلى علمها من معلومات تطلع عليها بحكم صلاتها بالفرنسيين واختلاطها بهم أثناء عملها بالمستشفى العسكري.

وربما تاريخ جميلة كله سلسلة من الكفاح الوطني، فلقد كان مولدها بقصر الأمير عبدالقادر، مقر الحاكم الإداري للمدينة، حيث كان أبوها "الشيخ "عمران" يعمل بستانياً للقصر، بينما كانت أمها "خديجة" بمثابة الوصيفة وكاتمة الأسرار للأميرة "عائشة" زوجة الشريف بن أحمد الحاكم الإداري والشعبي للمدينة.. كانت الأميرة عائشة جميلة مهيبة شأن عظماء النساء، فأحبها الجميع لتفانيها في عمل الخير وحبها لشعبها وبلادها، وقد وجدت في جميلة العوض عن عدم الإنجاب، فوهبتها كل الحب وأسبغت عليها كل ما إختزنه صدرها من أمومة وحنان.. حتى بعد أن إنتقل والدي جميلة ليستقرا بضيعتهما الموجودة بضواحي آفلو، ظلت جميلة تعيش بالقصر في كنف الشريف بن أحمد وزوجته الأميرة عائشة، فأشرفا على تعليمها الأولي فنهلت من العلم، وكانت على مقربة من كل الأحداث الوطنية والاجتماعات الهامة التي عقدت بالقصر، فتفتحت مداركها منذ نعومة أظفارها على

قضية البلاد، ووهبت نفسها لحب الجزائر التي أرادتها حرة بعيدة عن الدخلاء والغاصبين..

ما أن أتمت جميلة تعليمها الأولي بآفلو، حتى انتقلت لتستكمل تعليمها الثانوي بمدينة "تيارت" عاصمة الإقليم التي تبعد عن آفلو بمئات الكيلومترات، وهناك تعمق مفهومها للعمل الوطني، واتصلت مداركها بالثورة المنظمة على المحتل الفرنسي.. سمعت بدايتها تتردد لأول مرة على لسان معلمها الكهل الأستاذ "سحنون" مدرس التاريخ بالمدرسة، الذي أعاد لهم شرح تاريخهم الذي حاولت فرنسا أن تخفيه عنهم، فكشف لهم الأستاذ "سحنون" عن الدور البشع الذي قامت به فرنسا لاحتلال الجزائر عام 1830، وحرب الإبادة التي مارسها المستعمر لإجلاء الوطنيين عن أراضيهم ودفعهم للجنوب ليعيشوا حياة الذل والعبودية، ثم محاولاتهم الدائمة الدائبة لسلب الشخصية الجزائرية وطمس اللغة والعادات والتقاليد، بدعوى أن الجزائر فرنسية، ثم سحق الثورات المتعاقبة التي حاولها الكثيرون من أبناء الجزائر الشرفاء، وانتهاءً بالوضع المزري الذي يعيشه الجزائريون الآن، والذي يفرض عليهم الثورة والمطالبة بالجلاء، مهما كانت المصاعب والتضحيات..

ولقد تشربت جميلة بروحها الثائرة كل الكلمات الحلوة التي علمها إياها أستاذها سحنون عن تاريخ الجزائر، ومن خلال

الإدراك جاء العزم والتصميم، ومن خلال مناقشات ومحاورات امتدت لأنحاء متفرقة من المدينة، توطدت صداقتها الروحية لأستاذها.. بل كثيراً ما حضرت المناقشات المطولة التي عقدها الأستاذ سحنون بمنزله حيث التقت هناك بالعديد من الثائرين والمخططين للثورة، وهناك عرفت "عمار" ابن أستاذها سحنون.. الثائر ابن الثائر المتحمس مثلها لقضية البلاد، وسرعان ما اشتعلت محبتهما وذابت في محبة الوطن، فلم تعد تعرف لأى منهما الحدود..

في تلك اللقاءات السرية، شحذت إرادة الشباب، وعبئت أحاسيسهم لمقاومة المحتل، وأشرف على تدريبهم فيها نخبة من الوطنيين المخلصين، بقيادة أستاذها سحنون وإبنه وحبيبها عمار، بينما تولت أمه السيدة "أمينة".. قيادة العنصر النسائي وتدريبهن على طرق المقاومة وأساليبها، واشتركت معهم في التدريب على فنون التمريض والإسعافات الأولية، حيث التحقن كمتطوعات بمستشفى تيارت العام تحت إشراف الدكتور "سرباح" أحد أقطاب الحركة الوطنية والمخططين لثورتها..

سريعاً ما تلاحقت الأحداث.. فما أن قويت الثورة ضد الفرنسيين، حتى ازداد ظلمهم واستشرى بطشهم وتنكيلهم بالثوار، فعمت الفوضى وأغلقت معظم المدارس، وإلتجأ معظم طلبتها ومدرسيها إلى الجبال هربا من بطش الفرنسيين، حيث

تجمعوا مع المجاهدين للذود عن الوطن، وأعلن الكفاح المسلح في سبيل الله والوطن، والذي أُطلقت أولى طلقاته في الفاتح من نوفمبر عام 1954.

هناك في الجبال، حيث الحياة في أبسط صورها أشتعل حب جميلة لعمار، وسرعان ما تطورت العلاقة بينهما إلى غرام جارف عنيف، توجت بزواجهما السعيد الذي باركه المجاهدون، فأقاموا له الأفراح والليالي الملاح، وتقاسموا على شرف زواجهما النعاج المطهية والكباش المشوية.. وانتهى حال الحبيبين لاحتلال كوخهما المتواضع الصغير فوق الجبل، حيث لا مستعمر ولا غاصب ولا دخيل، بل أحرار أبناء أحرار.. أياماً عاشوها مع السعادة الخالصة كأنما قد نسيهما الزمن أو غفلت عنهما الحياة، إلى أن كان اليوم الذي دعاهما فيه داعي الوطن فلبيا النداء، وافترقا.. هو ليلتحق بالعمل كمترجم ضمن صفوف الحامية الفرنسية المرابطة على الساحل الشمالي لمدينة "وهران" بأقصى الشمال، وهي للعمل كممرضة بالمستشفى العسكري لمدينة "آفلو"، أما دورهما الحقيقي فقد كان جمع المعلومات من الفرنسيين وعنهم، وإيصالها إلى المجاهدين..

في بداية انتقال جميلة للعمل بمدينة آفلو، عاشت فترة من الزمن كما كان عهدها السابق بكنف والديها بالتبني الشريف

بن أحمد والأميرة عائشة، اللذان ضماها إليهما وفرحا بقدومها وملأهما الزهو بعد أن علما بطبيعة الدور المشرف الذي رسمته لها المقاومة السرية في جمع المعلومات عن الفرنسيين ونقلها للمجاهدين، لذا فقد أقبلا بهمة ونشاط على ترسيخ أقدامها بين صفوف الفرنسيين، الذين رحبوا بالتعاون الظاهر مع ربيبة الحاكم الشعبي للمدينة، فأغدقوا عليها العطايا والهبات، انتهاءً بإقطاعها منزلها المنعزل البعيد عن العمران، فكان لها خير ستار تستقبل بداخله فلول الفدائيين فتلم شتاتهم وتضمد جراحهم وتمدهم بالعون والإرشاد والمعلومات.

كانت لعبة الذكاء التي تمارسها جميلة خطرة في مضمونها ومحتواها، لكنها بفضل إيمانها بقضية شعبها، وبمعونة من المجاهدين المخلصين، وبدعم من الشريف بن أحمد وزوجته الأميرة عائشة، فقد ظلت تقوم بعملها خير قيام، شهوراً امتدت لتكمل سنوات، وهي لا تكل ولا تمل، بل تتألق وتتجدد من الداخل لمزيد من البذل والعطاء.

وبين الحين والحين، كانت جميلة تذهب لتزور أبويها حيث يقيمان بضيعتهما ناحية قرية "سيدى بو زيد" التي تروى من نهر صغير يدعى "نهر سيبيجاج" فكانت تقضي بصحبتهما أجمل الأوقات وهي ما تفتأ تحدثهما عن آمالها وتطلعاتها إلى يوم قريب سعيد تجمعهم فيه بزوجها "عمار"، بعد أن يتحرر

الوطن، فيلتئم بذلك شملهم ويستقر حالهم في ضيعتهم، فيعيدون بناء ما تهدم منها، ويرعون حيواناتها، ويتعهدون زرعها، حتى تفيض بخيراتها كعهدها القديم، قبل أن يهجرها عمالها للانخراط في صفوف المجاهدين والكفاح في سبيل الوطن.. لم يبق بالمزرعة معينا للأبوين الشيخين، سوى كلب المزرعة الضخم الوفي الملقب ب "الباشا"، ذلك الذي عوض نقص العمال، فأتقن حراسة قطعان الماشية، والذود عن المزرعة وحراستها ليلاً من الدخلاء والذئاب، فكان للشيخين خير معين..

وهكذا استقر الحال بجميلة، فقامت بدورها الذي أُوكل إليها خير قيام، لكنها برغم ذلك حرصت على أن تحضر حصص الدروس التي كانت تلقى سراً لتعلم وتعليم اللغة العربية التي حاربتها فرنسا طوال فترة احتلالها للجزائر، وأحلت محلها اللغة الفرنسية في التخاطب والتعامل حتى أوشكت اللغة العربية على الاندثار.. لذا فقد أعتبر المجاهدون اللغة العربية رمزاً للشخصية الجزائرية، فحاربوا من أجل بقائها وسعوا في سبيل انتشارها.. حتى نشطت حركة التعريب في الجزائر خاصة في السنوات الأخيرة للثورة، قادها الكثير من الرواد والمفكرين أمثال: بن باديس والشيخ البشير الإبراهيمي.. وبعضهم أُضطهد ونُفي إلى أقاصي البلاد، خاصة إلى مدينة "آفلو" لما

تتمتع به المدينة من تكوين طبيعي يجعلها أشبه بالقلعة البعيدة المنعزلة بين قمم الجبال الشاهقة، مع عزلتها وبعدها عن المدنية والعمران.. لكن تواجد هؤلاء الرواد في آفلو لم يكن كله عبثاً، فلقد أثمرت تعاليمهم ونمى غرسهم على مضي السنين، وأصبح لهم الكثير من الأتباع والمريدين، يتنافسون على تعلم وتعليم اللغة العربية ونشرها في البلاد متحديين في ذلك الإرادة الفرنسية، وعلى رأسهم جميلة التي تابعت رسالة التعريب حيث كانت تعقد لذلك الندوات وحلقات الدرس داخل قصر الأمير عبدالقادر، فيقوم الشريف بن أحمد بتعليم الرجال، بينما تشرف زوجته الأميرة عائشة على تعليم النساء.

كانت ندوات الدرس تعقد أولاً في الخفاء، لكن سرعان ما قويت واشتدت فأصبحت تعقد على مرأى ومسمع من الفرنسيين، حيث التحم الرجال والنساء والأطفال في مظاهرة حب للغتهم العربية وأحياء تراثها القديم، فعُقدت لذلك الندوات وأُلقيت فيها الخطب الحماسية وأشعار الفخر لإشعال العزة والكرامة وبعث المجد العربي القديم.. ومازالت الدروس تُلقى والحماس يشتد، إلى أن رضخت الإدارة الفرنسية أخيراً لرغبة شعب مكافح في سبيل الحرية، وسمحت بتدريس لغته العربية كلغة ثانية يتعلمها الصغار بعد الفرنسية، وكان أن أُوكل تدريسها بمدرسة آفلو إلى جميلة، بل لقد ذهب الكابتن" بو

جيرار" الحاكم العسكري للمدينة إلى أبعد من ذلك بكثير، في محاولة منه لاحتواء الغضب الثوري ولاسترضاء المواطنين، فعين البعض منهم ممن يتقنون اللغة العربية كمترجمين ضمن صفوف الإدارة الفرنسية، تستعين بخبرتهم في الترجمة من العربية إلى الفرنسية وبالعكس، وكان من بينهم جميلة التي عينها الحاكم العسكري كمترجمة رسمية لحاميتها، لما تتمتع به من ثقة القيادة الفرنسية، ولجهودها الممتازة في خدمة فرنسا..

وبالمثل.. فقد كان عمار– في موقعه– شعلة من الجسارة والأقدام، وهو يقتحم بشجاعته صفوف الفرنسيين، أثناء عمله كمترجم بينهم في حاميتهم الكبيرة بمدينة "وهران"، التي كانت تتمركز بها أضخم القوات، وتشرف على محاور الغرب والجنوب.. ولقد استطاع عمار أن يكتسب بذكائه ثقة ومحبة الكثير من القواد العظام، وأن يلم بحكم عمله بالكثير من أسرار الجيش.. عمل على نقلها سراً إلى المجاهدين، بواسطة مجموعة متصلة ومتشابكة من الأعوان المخلصين، ممن زرعتهم المقاومة بالقرب من الفرنسيين، فأتقنوا عملهم وقاموا بدورهم خير قيام، كل هذا مما ساعد كثيراً على إفشال خطط الفرنسيين وألحقت بصفوفهم أبلغ الخسائر وأشد الأضرار..

استطاعت جميلة أن تكتسب بذكائها وسرعة بديهتها ثقة الكابتن "بو جيرار".. قائد المنطقة العسكرية لمدينة آفلو، التي

ضمت حاميتها جيوشاً جرارة، وأصبحت قاعدة عسكرية ضخمة تنطلق منها القوات الفرنسية شمالاً وجنوباً وفي شتى الأنحاء والأرجاء.. لكن أمضى سلاح استخدمه مسيو بو، قد كان سلاح الترغيب والترهيب، الذي استعمله بكفاءة نادرة لاستمالة أنصاره وإرهاب أعدائه.. فكان إذا أغدق أسرف، وإذا انتقم فلم تكن تعرف لنقمته حدود، وحينما أغدق على جميلة من هباته وعطاياه، فقد كان يقصد في نفس الوقت إظهار مدى عظمة فرنسا وإسرافها في مكافأة المقربين، ابتغاء جذب المزيد من الأعوان والمساعدين، في وقت وصلت فيه الكرامة الفرنسية إلى الدرك الأسفل.. لذا فقد أفرد لها ذلك المنزل المنيف ذو الحديقة المزهرة المتاخمة للمزارع والحقول في حي الأثرياء الراقي.. ثم زاد فأهداها عربته الخاصة التي يجرها حصانه المدلل القوى السريع الذي يعرفه الجميع كأنما ليعلن عن وجوده بينهم، وكلما ركبتها جميلة وسارت بها في شوارع المدينة يتبختر الجواد في عظمة، ليعلن بجلاء ووضوح عن مدى عظمة فرنسا وسخائها في مكافأة الأتباع والمريدين..

كان الترغيب مثيراً.. وكان الإرهاب قاسياً وعنيفاً.. فلقد برعت فرنسا- ممثلة في مسيو بو- في استعمال ذلك السلاح الرهيب فاستطاع أن يجمع قلة من الخونة والمحبين لفرنسا للتلصص والإيقاع بالوطنيين إحكاماً للسيطرة على البلاد

وإخضاعها لحكم الغاصبين.. ولقد جمعهم مسيو بو في مكتب مخابرات أطلق عليه أسم "ديزيم بيرو" أو "المكتب الثاني" وظيفتهم نقل أخبار الشعب إلى الفرنسيين، وهو في سبيل إحكام قبضته عليهم فقد أبقاهم فرادى متفرقين لا يكاد يعرف أحدهم الآخر، حتى يضمن اختفائهم وعدم ذيوع خبرهم فيما لو إنكشف أحدهم أو حاول خيانته، إذ لن يكون هذا الشخص المكتشف قادراً على كشف زملائه الآخرين لأنه لا يعرفهم.. لذا فكثيراً ما كان يمني المجاهدون بخسائر فادحة بسبب توصل أحد الخونة السريين إليهم ونقل خططهم إلى المستعمرين، ومن هنا فقد برزت أهمية جميلة في الكشف عن هؤلاء الخونة والتوصل إليهم ومعرفتهم داخل صفوف الفرنسيين، بفضل ما تهيأ لها من سلطة ونفوذ وثقة القيادة الفرنسية بها، مع ذكائها الفذ ومظهرها البريء، استطاعت أن تحافظ على توازنها وأن تكسب المزيد من النقط في قيامها بتلك المهمة الخطرة دون أن تتطرق إليها الريب أو تطالها الظنون.. لذا فقد كان هدفها الأكبر هو التقرب إلى مسيو بو، ومازالت به حتى أنس بها وعهد إليها بالكثير من مهماته باعتبارها المترجمة الخاصة له التي دأبت على مرافقته في رحلاته وجولاته بالقرى المحيطة بالمدينة فكانت له خير معين.. ثم هي – وفقا لمخطط منظم ومدروس – دأبت على إمداد مسيو بو

بالعديد من الأخبار الوطنية والمعلومات التي تتعلق بالمجاهدين، ظاهرها الخيانة وباطنها إشاعة الفوضى والبلبلة في صفوف الفرنسيين.. كل هذا مما رجح كفتها لدى القيادة الفرنسية التي لم تلبث أن منحتها ثقتها كاملة باعتبارها واحدة من أهم أعوان فرنسا المخلصين.. ومن خلال ذلك كله استطاعت جميلة أن تتوصل إلى اكتشاف العديد من الخونة والمتعاملين مع فرنسا، فكانت تبلغ بهم قيادة المجاهدين الذين كانوا يعملون على تصفيتهم بانتظام، وكان أخطرهم هو "زيزو" أو "عزوز" صاحب الحانة التي اتخذها الفرنسيون ملتقى لهم يسهرون بها إلى ساعات متأخرة فيعاقرون الخمر ويخالطون النساء، ويلتقون فيها بأعوانهم، فتدور بين جدرانها الكثير من الأحداث والأحاديث، يلتقطها عزوز ويبيعها لمن يدفع الثمن..

في الكثير من تلك الحفلات التي كانت تعقد بفندق المدينة كانت تتواجد جميلة أيضاً، باعتبارها أمينة سر مسيو بو ومترجمته الخاصة، ولم تكن تلك الحفلات كلها بريئة، بل كثيراً ما غصت بالنساء والخمور لاستمالة الخونة والعملاء.. لكن جميلة عرفت كيف تحافظ على نفسها دائماً، مما أكسبها مناعة واحتراماً في أعين الجميع، وقنعوا منها بدورها المفيد في الترجمة والتعاون من بعيد.. لكنها لم تكن أبداً غافلة عن ذلك الدور الفذ الذي قام به "عزوز" كعميل مزدوج سائر بالأخبار

بين الطرفين لمنفعته البحتة، نظير الأجر والعائد الأعلى.. ولقد استلفتت جميلة أنظار عزوز أيضاً، بجمالها الفاتن الذي حرك شهيته على الافتراس، وحازت إعجابه بدورها المميز الذي كانت تقوم به في الترجمة للفرنسيين، وهو يعجب للتناقض الظاهر في شخصيتها الذي يجعلها تخالط الفرنسيين وتتعاون معهم دون أن تأخذ عنهم عاداتهم أو تنغمس في خطاياهم.. وبحاسة الشم المدربة لديه استطاع أن ينفذ إلى أعماقها فيرى دورها الآخر النظيف الذي تقوم به في خدمة المجاهدين، لذا فقد حاول كثيراً استدراجها وخداعها لتكشف له عن مكنونها، فيبيعها لمن يدفع الثمن.. فدأب على أن ينقل إليها العديد من الأخبار الهامة عن الفرنسيين زاعماً بُغضه لهم ومقاومته إياهم، اكتساباً لثقتها فيه فتكشف له بالتالي عن دورها الذي تخفيه.. كادت جميلة أن تنخدع فتبتلع الطعم الذي قدمه إليها فتكشف له عن دورها في الولاء للمجاهدين، لكن الصدفة وحدها لعبت دورها فكشفت لها في اللحظات الأخيرة عن حقيقة دوره المزدوج في خيانته للطرفين، فلقد عثرت مصادفة بمكتب الكابتن بو.. أثناء ترتيبها له وتنظيمها إياه، على بعض الوثائق الهامة التي تشير إلى حقيقة الدور البارع الذي لعبه "زوزو" في خيانته للمجاهدين ونقل أسرارهم إلى الفرنسيين، وبرغم اختلاف اسمه المدون بالأوراق عن ذلك الذي يُدعى به، فلقد كانت كل

الدلائل تشير إليه بما لم يدع لديها شك في شخصيته أو من يكون على وجه التحديد، لذا فقد سارعت جميلة بنقل الخبر إلى المجاهدين الذين عقدوا الاجتماعات المطولة لبحث موقفه الخطير منهم.. وأخيراً استقر رأيهم على ضرورة إبقائه كما هو.. عميلاً مزدوجا للطرفين، دون أن يعرف أنهم قد توصلوا إلى حقيقته، فيكون ذلك أجدى وأنفع لهم ليوظفوه فيما يريدون نقله إلى الفرنسيين من أخبار.. ومنذ ذلك التاريخ قل شأن "زيزو" وتضاءل خطره على المجاهدين، بل قل نفعه للفرنسيين كذلك، بعد أن تضاءل الدور الذي يقوم به في كشف المجاهدين، فنسوه أو تناسوه، فلم يعد يثير اهتمام أحد.. ولطالما أجهد "زيزو" ذكاءه ليعرف من أين جاءت الضربة، أو من ذا الذي يكشف أوراقه ويفسد تدبيره، دون أن يدور بحسبانه أنها تلك الفتاة الصغيرة الجميلة، بريئة المظهر.. جميلة.

حينما اشتدت هجمات المجاهدين على آفلو قبل استسلامها الأخير، أُغلقت مدارسها وتحولت إلى مستشفى ضم العديد من جرحى الفرنسيين بعد أن تعددت خسائرهم بدرجة ظاهرة، وفي مسلسل الإغداق على الأتباع، فقد عينت جميلة بما لها من خبرة في التمريض، مشرفة على تمريض الجرحى ورعايتهم ضمن فريق الأطباء والممرضين الفرنسيين، ولقد استطاعت جميلة أن تكون ذات فائدة للمجاهدين في استخلاصها للكثير

من الأسرار الهامة من بين شفاه الجرحى الذين لم يكونوا يحرصون على ما يقولون كثيراً بتأثير جراحهم أو حالاتهم النفسية التعسة، مما ساعد كثيراً على تفوق المجاهدين في سعيهم نحو النصر.. كذلك فقد أمكنها الحصول على العديد من الأدوية والمعدات الطبية الهامة نقلتها سراً إلى المجاهدين لعلاج جرحاهم الذين أتخذوا لهم أماكن آمنة داخل المدينة بعضها في قصر الشريف بن أحمد تحت رعاية الأميرة عائشة، والبعض الآخر بمنزل جميلة البعيد عن الرقابة والعمران، فكان يلقى فيه الجرحى من المجاهدين الرعاية الكافية والأشراف الطبي الكامل تحت رعاية جميلة وبمعونة نخبة من النساء الجزائريات المخلصات لقضية بلادهن.. فإذا ما شفي المجاهد عاد بسلام ليتابع كفاحه من أجل تحرير الجزائر.

كانت لعبة الذكاء مسلية، لكنها خطرة.. ولطالما حامت الشكوك حول جميلة في نقلها لأخبار هامة أو أسرار أطلعت عليها، بل كثيراً ما كانت تختفي الأدوية الطبية والمعدات الهامة التي تشرف عليها أو تحوزها بحكم عملها في التمريض.. بل وفي مرات كثيرة تعرضت لوشايات مغرضة من "عزوز" وأمثاله من الخونة والحاقدين عليها والحاسدين لطموحها ونجاحها لدى الفرنسيين.. لكنها في كل مرة تعرضت فيها للإدانة أو الشبهات استطاعت الإفلات من الرقابة وتبديد

الشكوك، وخرجت بذكائها بريئة من كل التهم الخطرة التي لم يكن يعرف لها سوى جزاء واحد يتقنه الفرنسيون جيداً.. وهو القتل رمياً بالرصاص، في كل هذا بقيت صامدة في شجاعة، يملأ قلبها حب الوطن، دون أن تفكر لحظة واحدة في جسامة المخاطر أو فداحة التضحيات، بل مضت تقوم بدورها المرسوم لها في براعة واتقان، إلى أن حانت لحظة الهجوم الكبير، الذي دارت فيه معركة "الثلوج البيضاء" التي انتهت بانتصار المجاهدين ودحر الغاصب وإجلائه عن المدينة، فعمت الفرحة وهدأت القلوب.. وتنسم الناس أخيراً أريج "الحرية".

الفصـل الثـالـث

الهجـوم المضـاد

نهض عمر في الصباح الباكر الجميل، وهو في فراشه الوثير بفندق مدينة آفلو، فإذا هناك أشعة خافتة تنساب إلى الحجرة من خلال نافذة الحجرة الكبيرة، استطاعت أن تنفذ من بين السحب الملبدة السوداء، وقد تراءت لناظريه أطراف الأشجار الجرداء تتعالى إلى السماء وهي مكسوة بالثلوج، كأنما تدعو الله في ضراعة وإبتهال.. فتمطى في فراشه الوثير، لا يكاد يصدق رقاده آخر الأمر على سرير ناعم داخل حجرة دافئة، بعد أن كان يفترش الأرض ويلتحف بثلوج السماء.

في طريقه إلى حجرة الطعام، كان الرفاق قد سبقوه إليها، وقد جلس الجميع لشرب القهوة بالحليب كعادة الجزائريين كل صباح، وقد تصاعدت رائحتها تعبق الأجواء، بينما أشرف زيزو مع فريق خدمه وخادماته الجميلات، على خدمتهم وإمدادهم بالمزيد من القهوة والطعام.

في اقترابه من عمر، استطاعت عينا زيزو النفاذتان أن تلحظا اختلاف سحنته وهيئته عن الآخرين، فأقترب منه متفحصاً، وحام حوله كما يحوم الكلب حول صيده الثمين، ثم بادره بحديث نفاقه يسأله عما يلزمه من طعام وشراب.

كاد عمر أن ينخدع فيجيبه على الحديث بالحديث، فينكشف بذلك أمره وتفضح لهجته المصرية سره الذي حافظ الجميع على كتمانه، خاصة عن الفضوليين من أمثال زيزو المعروف بولائه للفرنسيين، لذا فقد لزم عمر الصمت دون أن يعبأ بالرد عليه، بينما هب قدور لنجدته، فنهر عزوز طالباً منه الابتعاد.. والكف عن مضايقة الآخرين.

ابتعد زيزو عن عمر وقد داخله شك أكبر في الغموض المحيط به، وقد دلته حاسته المدربة وغريزة الصيد الكامنة فيه، بأنه يسعى وراء صيد ثمين، وأنه إزاء أمر بالغ الخطورة، يمكن له إذا ما اكتشفه أن يسترد به هيبته الضائعة واحترامه المفقود، فيرد له الفرنسيون اعتباره ويعيدوا تقييمه فيضموه إلى صفوفهم الأولى من جديد.. ربما مثل احترامهم لجميلة أو يزيد، ومن تكون جميلة تلك؟.. سوى فتاة حسناء أغرت الفرنسيين بجمالها وأطمعتهم فيها حتى أغدقوا عليها ما هي فيه من نعيم مقيم.. إذ أنه على مدى معرفته لها لم يعهد فيها شيئاً متميزاً يمكن أن يفضلونها عليه بسببه، بل لم ير خبراً واحداً مثيراً استطاعت أن تنقله إلى الفرنسيين يكون من شأنه صد هجوم أو الكشف عن أعداء فرنسا من المجاهدين المجانين.. هؤلاء الذين ينادون بالاستقلال عن فرنسا برغم ما تبذله لهم من محاولات للنهوض بالجزائر والبعد بها عن شبح التخلف ومرارة الفقر.. فإذا بهم

يحاربون فرنسا كجزاء على إحسانها لهم، والأدهى والأمر.. هو انقلاب الموازين الذي حدث بالمدينة بعد "معركة الثلوج البيضاء" وجلاء الفرنسيين المؤقت عن المدينة، فلقد ساد الأذلاء وتحكم الضعفاء، وهاهم يجلسون في عظمة وخيلاء داخل حانته التي طالما حوتهم خافضي الرؤوس أمام عظمة الجنرالات من حكام فرنسا، لكن مهلاً! فإن فرنسا لابد عائدة لتأديب هؤلاء الرعاع والخارجين على القانون، فلا أحد يستطيع أن يقف في وجه الترسانة الحربية الفرنسية، ولا أحد يمكن أن يتفوق على عبقريتها الفذة وعلمها الواسع الغزير.. قريب هجومها الكاسح المضاد الذي عليه أن يمهد له بالتعاون مع محبي فرنسا الشرفاء من أمثاله! ولا يظنهم إلا كثيرين، لكنه مع ذلك وفي قرارة نفسه فهو عاتب على الفرنسيين، فهم لم يقدروه حق قدره، ولم ينيلوه ما كان خليقاً به من مجد، سوء حظ ما فتئ يلاحقه لا يعرف سببه أو مبعثه، فهو برغم ذكائه الفذ وتفانيه بما يملك من مال ونساء وأتباع مسخرين في خدمته لفرنسا، إلا أنه ظل لديهم في المرتبة الثانية دائماً، يفضلون عليه جميلة وأشباهها من المنافقين والمخادعين، ولطالما حاول جاهداً أن يكشف للفرنسيين عن حقيقتها، ولكن خانته الدلائل، وفسرت شكوكه نحوها في مرات كثيرة على محمل الحقد عليها والحسد والغيرة منها، لكنه هذه المرة لن يخيب.. إحساسه يخبره

بذلك، خاصة وأنه قريب الآن من مركز الأحداث.. الكثير من الأسرار التي كانت تخفي في وجود الفرنسيين أصبح من السهل الجهر بها وكشفها الآن.. من ذلك الأخبار التي يتناقلها الكثيرون عن جميلة ودورها المشبوه في المستشفى المقام داخل المدرسة وتحويله لخدمة جرحى المجاهدين تحت إشراف الشريف بن أحمد الذي انكشف دوره هو الآخر في خدمة الثوار، وأفصح عن نياته في الاستقلال، وفوق هذا وذاك.. فهناك ذلك الصيد السمين الذي يسعى إليه المتمثل في ذلك الشاب الأسمر الجالس بثقة بين صفوف القادة والمجاهدين الكبار دون أن يفتح فمه بكلمة واحدة، ومع ذلك فهو محترم مهاب، تدور حوله الحوادث والأحداث، مما يحمله على الاعتقاد بأن وراءه أمراً خطيراً سوف يهتدي إليه.. وهو حينما يعلم كل ذلك – وهو لابد سوف يعلمه – فستكون تلك هي لحظته التي طالما انتظرها للانتقام.. والذي سيكون هذه المرة عظيماً ومريعاً.

في الضحى.. كانت هناك جلبة خارج الحانة، وهرولة في الداخل، ورسول يدخل مسرعاً لاهثاً.. يخبرهم بقدومه من طرف أحد المجاهدين في وهران يحذرهم من هجوم غير متوقع كبير يقوم به الجيش الفرنسي سريعاً لاسترداد آفلو، كان للنبأ وقعه المباغت على المجاهدين مما أخل بتوازنهم وتركهم بإزائه لفترة

حائرين لا يعرفون أمام قلة المعلومات التي وصلتهم.. متى أو من أين يأتيهم ذلك الهجوم الكبير المضاد؟.

استبعد المجاهدون هجوم الطائرات، فالجو العاصف مازال منذراً بهبوب عاصفة ثلجية جديدة، يتعذر معها تحليق الطائرات، فضلاً عن تمركز قوات المجاهدين بأسلحتهم الحديثة ومدافعهم المضادة للطائرات على مشارف الجبال المحيطة بالمدينة يتحصنون بها ضد الطائرات التي يصبح تأثيرها محدوداً داخل الجبال، بينما يمكن للمجاهدين رؤيتها وإسقاطها بسهولة.

وفي نفس الوقت فهناك الثلوج الكثيفة التي تحيط بالمدينة وتقطع الطرق مما يعيق تقدم أية مصفحات أو دبابات أو معدات عسكرية.. بل من أين يأتي الهجوم أصلاً، ولا توجد إمدادات للفرنسيين على شتى الجبهات المحيطة وأقربها في تيارت التي تبعد عنهم إلى الشمال ما يقرب من المائتي كيلو متراً من الطرق الجبلية الوعرة المغطاة بالثلوج، يستغرق وصولها في هذا الجو العاصف أياماً قد تمتد لأسابيع أو شهور، ريثما تذوب الثلوج في الربيع؟.. لكن الحيرة ظلت مع ذلك تلاحقهم، وهم على ثقة من صحة الرسالة التي وصلتهم من عمار لثقتهم التامة فيه، وأنه لا يمكن أن يكذب أو يخون.

بعد أن تدارس المجاهدين الأمر، استقر رأيهم على التحصن في مواقعهم الدفاعية حول المدينة بالوضع الذي هي عليه الآن من جهة الشمال، لمناعتها من ناحية، ولصعوبة تحريكها أو تغييرها في ذلك الوقت العاصف، ولتكون في مواجهة الهجوم المرتقب عليهم الذي لو حدث فسيكون من جهة الشمال الوهراني، مصدر الرسالة ومقر القوات الفرنسية، وتحسباً لكل الاحتمالات.. فقد جاء حرص القيادة على إخلاء داخل المدينة من القوات المحاربة حرصاً على حياة المدنيين بها، وعدم تعرضهم لأية اشتباكات بداخلها قد تعرض حياتهم للخطر.. لكن عمر كان له رأي آخر في توزيع القوات، فما داموا لا يعرفون تفاصيل الهجوم المرتقب كاملة، أو من أين يمكن أن يأتيهم ذلك الهجوم.. فمن الخطورة أن تجمع معظم القوات في اتجاه واحد حتى لا تُفاجأ فتدمر كلها، فضلاً عن أن توزيعها حول المدينة سيضمن عدم المفاجأة، بل سيهب بعضها لنجدة البعض الآخر الذي سوف يفاجئه القتال، ويكون بمثابة الاحتياطي الذي يعزز القوات المدافعة ويؤخر تقدمها مهما كان حجم الهجوم أو مكانه.

برغم وجاهة رأى عمر إلا أن أحداً لم يوافقه عليه، ربما لعنصر السرعة، وصعوبة تحريك القوات المتمركزة في الشمال بين الجبال في ذلك الجو العاصف، الذي استبعدوا معه أية

هجوم للفرنسيين على الأطلاق.. لكنهم بإزاء إصرار عمر وتمسكه برأيه، فقد سمحوا للقوات التي أجليت من داخل المدينة بالتمركز حول المداخل الأخرى للمدينة.. ثم أسندوا قيادة قوتها الجنوبية لعمر، باعتباره صاحب الفكرة، وبهدف خفي لم يشأ أحد أن يطلعه عليه، هو حرصهم على سلامته وإبعاده عن مواقع القتال المرتقب من جهة الشمال، وحفاظاً لسره بينهم، وقد رافقه – كعادته – صديقاه وحارساه المخلصان قدور.. وبن دحمان..

برغم أن حجرة العمليات التي خُصصت لمناقشة خطة صد الهجوم المضاد، قد كانت بمكان داخلي بالفندق غير مطروق، أحاطه المجاهدون بالحراسة المشددة حفاظاً على سرية ما يدور بداخله من أحاديث وأسرار.. إلا أنها لم تكن بمنأى عن عزوز الذي استطاع بذكائه الفذ وأساليبه الجهنمية، أن يسترق السمع ويحد البصر ليسجل معظم ما دار بداخلها من أسرار حرص المجتمعون على حفظها، دون أن يدور بخلدهم أنها قد وصلت إلى زيزو الذي أسرع بإرسالها عن طريق أعوانه المنبثين في أرجاء المدينة، فطارت كالبرق وسرت بين الجبال، لتصل في لحظات إلى مركز قيادة القوات الفرنسية بوهران، الذي تولى تحليلها بما لديه من خبرة فنية، ولم يكن من الصعب عليهم بعدها التعرف على العميل الجزائري الذي يعمل بين صفوفهم،

والذي دأب على إفشال خططهم بتوصيل أسرارها إلى المجاهدين، وآخرها نبأ الهجوم المرتقب على آفلو.. وكانت الشواهد كلها تؤكد أنه عمار الذي حوكم ووجد مذنباً، فأُدين وأُعدم في الحال.

بدأ الهجوم المضاد سريعاً وكما لم يتوقعه أحد.. من جهة الجنوب، بحامية فرنسية قوية كانت متمركزة طول الوقت بالقرب من مدينة "الأغواط" إحدى واحات الجنوب خفي أمرها عن المجاهدين.. لذا فقد كان من السهل عليها أن تهب لنجدة القوات الفرنسية التي اندحرت في آفلو.. وأن تتقدم إلى المدينة في ساعات قليلة بالنظر لاستقامة طريق آفلو الجنوبي وقصره وخلوه من الثلوج لقربه من دفء الصحراء.. لذا فقد كانت المفاجأة تامة والمقاومة تكاد تكون معدومة، باستثناء القوة الصغيرة التي قادها عمر على المشارف الجنوبية لآفلو.. لذا فقد كان النصر الفرنسي محتوماً.. مرهوناً بالوقت الذي يمكن للحامية الجنوبية أن تؤجله ريثما ينسحب باقي المجاهدين ويفرون بمهماتهم إلى الجبال حصنهم الطبيعي.. حيث ينتمون.. انتشى زيزو بأنباء النصر الفرنسي الوشيك الذي شارك فيه ومهد له.. لكنه أبى إلا أن تكون فرحته فرحتين، وأن يستفيد من الموقف ضعفين، بعد أن ظن أنه يمسك بكل خيوطه بين يديه، وبعدما بلغه من انكشاف أمر عمار ومقلته

على أيدي الفرنسيين في وهران، وانكشفت لعينيه باقي الأسرار، وتداعت أمام عبقريته أعتى الموانع والأسوار، فعرف بالتبعية ما حاولت جميلة أن تخفيه بشأن صلتها بعمار وعملهما المشترك في خدمة المجاهدين.. لذا فقد قرر أن يستبقي سر جميلة بين يديه، يستعمله كورقة رابحة يساومها عليه ريثما يستنفذ أغراضه منها، ثم يجهز عليها فيلقيها فريسة بين أيدي الفرنسيين الذين خدعتهم هي وزوجها كل ذلك الوقت الماضي دون أن ينتبه إليهما أحد أو يكشفهما سواه.. فهكذا هي عبقرية زيزو.. وبمثل ذاك.. يكون انتقامه الرهيب..

في غسق الغروب، وعلى أصوات طلقات القتال الدائر وانفجاراته المدوية، طرق زيزو باب جميلة، حيث وجدها ذاهلة عن نفسها وقد أحس قلبها بهول الفجيعة وعظم المأساة الدائرة مع عجلة الحرب.. التي تحصد الشجعان والأبرياء كما تحصد الخونة والجبناء.. كلٍ على حد سواء..

لكنها أفاقت من ذهولها على وقع تلك الزيارة المريبة، وقد أنكرت من عزوز هيأته المزرية، وقد جحظت عيناه في شبق مفضوح ورغبة جامحة وجرأة وقحة على غير عهدها به.. إذ على مدى معرفتها له، قد كان هو الطرف الذليل دائماً، ينظر إليها في خبث وحسد.. لكن في إنكسار شأن العملاء في تعاملهم مع من هم أقوى وأهم منهم دائماً.. لكن ماله اليوم!

على غير ما ألفت منه.. واثقا مغروراً، شيء ما في داخلها دعاها لكي تتروى وتترفق به قبل أن تطرده من دارها.. فربما أطلعها من أمره على ذلك السر الخطير المرتبط حتماً بالقتال الدائر، الذي أحاله في لحظة من كلب ذليل إلى ضبع يلعق الدماء.

لكن زيزو وهو في نشوة انتصاره لم يكن ليتأنى أو يترفق، فتدفقت أسراره تفيض نقمة على لسانه.. وكلما إقترب من مواطن سرها الدفين شحب وجهها وزاغت عيناها، خاصة حينما تعلق الأمر بزوجها وحبيبها عمار، الذي بقي سره مدفوناً في صدرها كل ذلك الزمن الماضي، حتى لقد ظنته أبعد من أن يُطال، فإذا به في متناول زيزو، يعرف كل تفاصيله بما لا يدع مجالاً للشك أو الإنكار وقد أخفى عنها نبأ اكتشاف أمره أو استشهاده، راح يطالبها بثمن السكوت، أن تعطيه متعة الاستمتاع بجسدها الجميل..

مادت الأرض تحت أقدام جميلة، وقد جرى خيالها وراء الأحداث، فرأت بعقلها وكل كيانها حبيبها عمار.. ميتاً مجندلاً مضرجاً في دمائه.. إذ أن مثل هذا الخبر في يد زيزو ليس له إلا معنى واحد، هو انتقاله إلى الفرنسيين أو منهم، وفي الحالتين فإن عمار – لا محالة – هالك، وفي كل الأحوال.. لا يمكن أن تكون لزيزو كلمه أو لعهوده ومواثيقه ميزان.. ومع

ذلك فقد كانت على استعداد أن تهب حياتها رخيصة فداءً لحبيبها عمار، لو أن ذلك يدرأ عنه الموت أو يقيه من العذاب، لذا فقد داعبها أمل خفي في إمكانية الحفاظ على سرها وسر حبيبها حبيساً بصدر زيزو، ولابد أن هناك من ثمن تدفعه لذلك.. حتى تضمن سكوت عزوز..

كان الأمر من وجهة نظر زيزو مختلفا تمام الإختلاف، انطلقت تعربد بداخله كل الرغبات الشريرة، وهو يشاهد انهيار جميلة بعد هتك سترها، فارقتها عجرفتها الزائفة، وتحولت إلى مجرد أنثى جميلة مكشوفة الأسوار.. مثل مدينتها آفلو تنتظر لحظة السقوط.. تستعطفه وترجوه، تستحلفه بكل عزيز لديه أن يستر سرها وأن يبقى عليها وعلى زوجها عمار.. بينما راح يستحثها على الاستجابة إليه.. والرضوخ لنزواته وشهواته المريضة..

في البهو الفسيح المفروش بأفخر الزرابي في منزل جميلة المنعزل، أبى زيزو إلا أن يستمتع بمشاهدة جميلة وهي تتجرد من ملابسها قطعة وراء قطعة، فتظهر من جسدها البض ما يطير عقله ويفقده صوابه.. وكلما حاولت الإسراع.. يستمهلها ليشبع من غرائزه المشبوبة.. إلى أن تجردت تماماً واستلقت أمامه على فراشها عارية مستسلمة تحاول أن تخفي وجهها في

شعرها المنتثر حتى لا يرى فيه أمارات المهانة والخجل والعار، وقد اتخذت أوضاعا شديدة الفتنة.. رائعة الجمال..

أسرع زيزو بخلع البقية الباقية من ملابسه، وتقدم نحوها كالثور الهائج وقد جحظت عيناه واحمرت وجنتاه من شدة الشبق، ثم انحنى عليها يحتويها بين ذراعيه النهمتين، يمني نفسه باستمتاعه بها..

في اللحظة التي هم بها.. عاجلته جميلة بطعنة نجلاء من خنجرها المسموم الذي استلته خفية عنه من بين طيات فراشها لتغمده في أحشائه على حين غفلة منه.. ثم دفعته عنها بقوة ليسقط على الأرض وهو يجثو على ركبتيه يتلقى أحشاءه بين يديه والدم يتفجر بغزارة يلوث المكان.. وقد تبدلت أسارير وجهه من الشبق إلى الدهشة إلى الألم الممض.. وهو ينظر إلى جميلة وقد انتصبت فوقه وبيدها خنجرها الملوث بالدماء، بصقت فوقه قائلة: كلب .. خائن .. خسيس..

من خلال ألمه الممض، تمالك عزوز نفسه وهو يدرك سوء أمره ودنو أجله، انتزع من بين شفتيه ابتسامة شيطانية، ما لبثت أن اتسعت إلى ضحكة مجلجلة وهو يحشرج قائلاً: كنت أتوقع غدرك بي.. لذا فقد سبقتك بالانتقام، وأبلغت عن عمار.. الذي تمت محاكمته وأعدموه صباح اليوم..

أجابته جميلة بثبات دون أن يختلج وجهها قائلة: لقد كنت على يقين من ذلك.. وأنك لا يمكن أن تفلت من يدك مثل تلك الفرصة المواتية مهما كلفتك من ثمن.. ولقد كان الثمن حياتك..

استندت جميلة إلى حافة الفراش وهي تتهاوى إلى الأرض بجوار جثة عزوز الذي فارق الحياة لاشك إلى الجحيم حيث أمثاله من الخونة والمارقين.. بقيت لحظات خائرة القوى مضعضعة الحس فاقدة الإرادة، تنتاشها الوساوس وتغتالها الظنون ويعصف بها الأسى على فراق حبيبها ورفيق دربها عمار، وفي لحظات تطلعت نحو الخنجر المسموم الذي قتلت به عزوز منذ قليل، وتساءلت عن جدوى حياتها التي تحياها بعد رحيل حبيبها، أفما يليق بها أن تنهيها الآن؟.. بل ها هي ذي وهي في عريها ولوعتها أقرب ما تكون لله، عريانة خرجت من بطن أمها.. وعريانة تعود إلى الله، فمن التراب كنا.. وإلى التراب نعود..

كم من الوقت مضى عليها وهي في ذهولها؟.. لم تعد تدرى على وجه اليقين، فلقد أنعدم لديها الإحساس بالوقت وتوقف بها الزمن عند اللحظة التي ضاع فيها الحبيب..

كان الظلام قد بدأ يزحف ليغطي المكان بردائه الأسود الثقيل، مفسحاً المجال لظلام أشد قتامة غطى أحاسيسها

المثقلة بالأسى.. في الوقت الذي بدأت فيه الطلقات تخبو وتنقطع مؤذنة بانتهاء القتال الدائر حول المدينة.. لاشك لصالح أعداء الوطن، فبعد ما شاهدته من خيانة زيزو ووشايته بالوطنيين وجرأته في اقتحام منزلها ومحاولته للاعتداء عليها، فلم يعد لذلك كله إلا معنى واحد يؤكد: انتصار فرنسا.. وهزيمة الوطنيين..

فجأة.. انتفضت جميلة من ذهولها على وقع أقدام ثقيلة وخطوات مهرولة تقترب من بابها لتتوقف عنده، ثم صكت أسماعها أصوات دقات عنيفة مختلطة بلعنات غاضبة، فقفزت – وقد حفزها الخطر – إلى ردائها القريب تستر به جسدها العاري.. وقبل أن تتمكن من النهوض أو مغادرة المكان.. إنفتح الباب على مصرعيه إثر دفعة عنيفة حطمت أقفاله، بينما انكمشت جميلة في مكانها تستر بردائها عريها، وتتطلع برعب في وجه المقتحمين للمكان.

الفصل الرابع

الجـــريـــح

بدأ الهجوم المضاد للفرنسيين سريعاً من الجنوب وعلى غير توقع أو انتظار، فبينما حشد الثوار كل القوات أو معظمها في انتظار الهجوم المرتقب من جهة الشمال، فوجئوا بدخول القوات الفرنسية – وكما لم يتوقع أحد – من الجنوب.. وقد غاب عن مخابرات المجاهدين وجود حامية كبيرة للفرنسيين تتحصن بالقرب من مدينة "الأغواط" الموجودة على حافة الصحراء استطاعت أن تهب سريعاً لنجدة القوات الفرنسية المبعثرة حول آفلو فشدت من أزرها وقامت بهجوم كاسح عنيف من جهة الجنوب..

لم تستغرق القوة في تحركها نحو المدينة سوى بضع ساعات بالنظر لخلو طريق الصحراء الجنوبي من الثلوج أو المرتفعات التي توقف تقدم العربات المدرعة أو الدبابات.. لذا فقد كانت مهمة القوة الفرنسية سهلة في اكتساح قوة المجاهدين الصغيرة التي تمركزت على المدخل الجنوبي للمدينة بقيادة الملازم عمر بعد أن أبلت بلاء حسنا في صد الهجوم وتعطيله ريثما تنبهت له باقي القوات المتمركزة في جهة الشمال، فعملت على تغيير استراتيجيتها لإنقاذ ما يمكن إنقاذه نتيجة لاختلاف

التقديرات.. في غضون ذلك الاضطراب الذي عم صفوف المجاهدين صدرت الأوامر من قيادة الثوار بالجلاء عن المدينة والتحصن داخل الجبال القريبة ريثما تتم إعادة الترتيب ورد الهجوم من جديد..

لكن عمر لم يستسلم بسهولة، بل ظل على رأس قوته الصغيرة يحارب القوات الضخمة في بسالة واستشهاد، واستطاع بمن معه من رجال برغم قلة عددهم وضآلة معداتهم أن يوقف زحف العدو ساعات طويلة، أمكن أن يفلت خلالها الكثير من الثوار والمجاهدين في انسحابهم إلى الخلف، بينما تساقط العديد من الجرحى والقتلى بين صفوف الفرنسيين الذين ارتدوا في ذعر عدة مرات أمام قوة عمر هلعين فزعين..

فجأة أنار المكان ضوء باهر أعمى العيون، ثم تبعه دوي هائل لانفجار مروع، أطاح بكل ما بالمكان من رجال ومعدات وترك مكانه حفرة عميقة غائرة سكنت على أثرها النيران المنبعثة عن الجانب الوطني الذي أبيد عن آخره.. فلم يبق له من أثر، أفاق عمر بعد برهة من أثر الصدمة العنيفة التي أفقدته الوعي وهو يتحسس الموجودات حوله وقد تلطخ جسده بالأوحال والدماء، أخذ ينادي على رفاقه دون سميع أو مجيب، لكن ما لبث أن أتاه أنين خافت تبينه لرفيقه بن دحمان الذي

تمالك نفسه وهو ينفض عن نفسه الأتربة يسعل بشدة وهو يمسك بسلاحه ليستعيد موقفه من المعركة من جديد.

سأله عمر وهو يتماسك قائلاً: كم من الرجال مازال على قيد الحياة؟

أجابه بن دحمان في أعياء قائلاً: لقد سكت الجميع.. أظنهم جميعاً قد ماتوا..

أجابهما صوت خافت تبيناه لقدور تحت الأنقاض قائلاً: أنا ما زلت موجوداً أيضاً..

هبَ الرفيقان لتخليص قدور من تحت الأنقاض الذي بدا والدماء تنزف من جراحه المتعددة، في حالة يرثى لها من الإعياء، لكنه أبى الا أن يتماسك ويمسك بسلاحه في وضع الاستعداد للقتال من جديد..

حينما سكت الجميع عن رد الجواب، أصدر عمر أمره لرفيقيه بالانسحاب إلى الخلف والتحصن بموقع جديد تجمعت بداخله بعض الفلول الأخرى للمجاهدين، الذين استأنفوا القتال ببسالة طالبين الشهادة غير عابئين بالأخطار.. ما فتئوا يضربون ويضربون، يتساقطون الواحد بعد الآخر، وهم يلحقون بصفوف الأعداء الدمار والخراب.. فيحصدون من رجالهم حصداً.. ثم ما لبث أن دوت فرقعة شديدة تناثرت على أثرها

الدماء والأشلاء، وأسكتت صفوف المجاهدين وسمحت للقوات المهاجمة بإختراق الطريق الجنوبي في اتجاه المدينة..

كان قدور أول المستردين لقواهم التي بددها الإنفجار الهائل، فتحامل على نفسه وهو يوقف سيل النزيف المتدفق من أجزاء جسمه المختلفة، ثم ما لبث أن هز رفيقيه بعنف فاستجاب له بن دحمان في إعياء، أما عمر فلم تبدر منه بادرة تدل على الحياة، فأسرع الآخران بحمله بينهما والاختفاء به بين الأحراش والأبنية المهدمة في تقهقرهما للخلف بعيداً عن أعين الأعداء.. ولقد كانت مهمتهما في التسلل إلى الخلف صعبة، والليل يزحف فيغطي المكان بردائه الأشهب الكئيب، والفرنسيون ما فتئوا يتدفقون على المدينة من شتى الأنحاء والأرجاء، يبحثون بين جثث القتلى عن الجرحى من المجاهدين ليجهزوا عليهم، أو يتتبعون الفلول الهاربة بين الأبنية والمنازل ليقتلوهم أو ليأسروهم أحياء، بينما واصل بن دحمان ورفيقه قدور زحفهما بين الأنقاض وهما يجران خلفهما عمر الغائب عن الوعي وهما لا يدركان مقدار أصابته أو مدى احتمال ما بها من موت أو حياة، لكنهما مع ذلك واصلا الزحف في اتجاه الشمال وقد عقدا العزم على إنقاذ عمر، أو على الأقل نقل ما تبقى منه إلى المجاهدين حتى لا يعثر عليه الفرنسيون أو يأسروه، فيعلمون من أمره ما أراد الجميع كتمانه..

ولقد بدت المهمة بعد حين صعبة بل تكاد تكون مستحيلة، والإعياء يدركهما في كل لحظة يواصلان فيها زحفهما وتراجعهما بحملهما الثقيل، وقد أثخنتهما الجروح حتى أوشكا مرات على فقدان الوعي، لم ينقذهما سوى ذلك المنزل المنفرد المنعزل القائم على مشارف المدينة يظهر باهتاً في الضوء الخافت المتبقي بعد غروب الشمس، وقد أغلقت نوافذه وأبوابه كأنما قد هجره سكانه، فجاهدا للوصول إليه، وقد تبدى لجوئهما إليه أشبه بقارب النجاة في بحر هائج متلاطم الأمواج.. فتحاملا بحملهما الثقيل إلى أن قارباه، ثم تعاونا على دفع الباب بأقدامهما حيث فتحاه عنوة ودلفا بجريحهما إلى الداخل، ليقفا لحظة مترنحين بوجهيهما الداميين وملابسهما المتهرئة الملطخة بالدماء والأوحال، وبينهما عمر بهيئته المزرية.. جثة هامدة دون حراك، وهما يحملقان في المكان..

حينما اعتادت أعينهما على المكان المعتم، تبينا شبح امرأة شبه عارية تتدثر في ردائها لتخفي عريها وهي تحملق فيهما وقد جحظت عيناها من الرعب، بينما تمددت بالقرب منها جثة لرجل عار مضرج بدمائه، حتى لم يتمالك قدور نفسه، فصاح قائلاً: بحق الله.. ما الذي يحدث هنا!؟..

أسرع بن دحمان بالتخلي عن حمله الثقيل.. بتمديد عمر على الأرض.. ثم إستند على الجدار القريب وهو يشهر

سلاحه في وجه المرأة المذعورة، وهو يشير نحو جثة عزوز قائلاً: من هذا يا امرأة؟.. وما الذي جرى هنا؟..

أجابه قدور باحتقار قائلاً: لابد أنه عشيقها.. قتلته بعد أن اختلفا على الثمن..

إنتفضت جميلة للإهانة التي لحقتها من القادم المدجج بالسلاح، فانتصبت أمامهما في إباء وشمخت بأنفها عالياً قبل أن تجيبه قائلة: ويحك! أما أنا فأشرف منك.. وما هذا إلا كلب خائن قتلته جزاء خيانته..

تضرج الدم غزيراً في وجه قدور للإهانة التي لحقته من سباب المرأة له، برقت عيناه وهو يتقدم نحوها ليفتك بها، في الوقت الذي دفعه بن دحمان بشده ليحول بينه وبين ما اعتزمه وهو ينبهه لسوء موقفهما، أجاب المرأة الغاضبة قائلاً: إسمعي أيتها السيدة.. نحن لا يهمنا من أنت أو من تكونين، شريفة كنت أم خائنة، فلسنا هنا لنحاسبك على شيء من هذا.. لكننا مجبرين على أن نستودعك هذا الجريح أمانة لديك نستردها فيما بعد.. والويل لك منا لو أنك فرطت أو خنتنا فيه..

تقدم قدور من مكانها وهو يستل خنجره ليضعه مقابلاً لرقبتها العارية قبل أن يخاطبها وهو يضغط على كلماته وهي تخرج من بين أسنانه قائلاً: أتعلمين ما الذي سوف أفعله بك لو أنك خنتنا.. أو وشيت بنـا؟؟..

أشاحت جميلة يد قدور بعيداً عن رقبتها بشجاعة، وتقدمت نحو الجريح المسجى على الأرض وتأملته متسائلة: ما الذي به؟.. ما الذي حدث؟؟..

أجابها بن دحمان وقد داخله الإعجاب بشجاعتها قائلاً: لقد أصيب في العمليات الحربية.. وقد تكون إصابته خطيرة..

تساءلت جميلة بانزعاج قائلة: وماذا لو مات؟..

أجابها بن دحمان بأسى: سيكون هذا قضاءه وقدره.. وفي هذه الحالة عليك أن تخفي جثته، لأنه يجب ألا يصل إلى أيدي الجنود الفرنسيين.. حياً كان أو ميتاً..

تساءلت جميلة باهتمام قائلة: لماذا؟..

كاد صبر قدور أن ينفذ، لكن بن دحمان أسكته بإشارة من يده، وقد أنس فيها الأمانة أطلعها على الحقيقة قائلاً: أنه ضابط مصري حارب بشجاعة في صفوفنا يدعى عمر هاشم، أصيب في انفجار قنبلة أثناء الهجوم على المدينة، ولا نستطيع حمله معنا إلى الجبال لسوء حالته وحالتنا.. ولأن الفرنسيين في أعقابـنا..

تنبهت جميلة لأول مرة للجراح النازفة من المجاهدين الواقفين أمامها، وحالتهما التي تزداد سوءاً دقيقة بعد أخرى.. فأستيقظ لديها فجأة إحساس الممرضة أمام الدماء النازفة، فخفت إليهما تضمد ما طالته يداها من جراحهما.. ألحت

لتستبقيهما لديها للمزيد من العناية حتى يستردا قواهما.. لكن قدور الواقف بجوار النافذة للمراقبة، أشار بيده لزميله بحركة محذرة تفيد اقتراب الفرنسيين من المكان، فأندفع بن دحمان إلى الخارج شاهراً سلاحه متسللا نحو الخلاء.. بينما انتصب قدور في مواجهة ضابطه الجريح المسجى على الأرض حيث حياه تحية عسكرية، ثم التفت نحو المرأة وخاطبها والدموع في عينيه قائلاً: سيدتي.. حاولي إنقاذه، فهو يستحق أن يعيش.. من أجل الجزائر.. ومن أجل عبد الناصر..

ثم ما أسرع ما تسلل خارجاً متسربلاً بالعتمة المحيطة بالمكان، إلى أن لحق بزميله في اتجاه الجبال..

جلست جميلة بعد انصراف المجاهدين وقد اعتمدت رأسها على كفها، وقد فارقها إحساسها الوقتي بالبطولة المستمد من لحظة الخطر.. فعادت تهاجمها الوساوس وتغتالها الظنون، وهي تتأمل الجسدين المسجيين أمامها على الأرض لا يفرق بينهما سوى مسافة قصيرة ومع ذلك فالفرق بينهما كبير.. هذا خائن لبلاده مصيره العار والنار، وذاك رفع رأس بلاده فله المجد والفخار.. ومع ذلك فمصيرهما في النهاية واحد إلى التراب الذي يضم إليه كل حي، حيث يتساوى فيه الأمير مع الخفير، الخائن مع الوطني الشجاع.

على ضوء مصباح غازي ضئيل راحت جميلة تتفقد جراح الضابط الجريح المسجى على الأرض دون حراك، وهالها ذلك الإصفرار والشحوب اللذان إعتليا محياه الأسمر، فانحنت عليه ووضعت رأسها فوق صدره تتسمع دقات قلبه، فإذا بها واهنة ضعيفة.. حينما اطمأنت الى أنه لم يفارق الحياة بعد، أسرعت إلى أدواتها الطبية فإفترشتها أمامها على الأرض، وراحت تطهر جراحه مما اختلط بها من أتربة ودماء متجمدة، ثم ضمدت الجراح السطحية منها، لكن بقى هناك ذلك الجرح الغائر أسفل رأسه الذي تهتكت بسببه فروة الشعر، وبرزت من خلفها جمجمته فأسرعت إلى مطهراتها وعقاقيرها حتى أزالت ما علق به من تلوث، ثم أسرعت إلى إبرة دقيقة أسرجت بها خيطاً طبياً متيناً، راحت بمهارتها تلم الجرح وتخيطه بيديها المدربتين إلى أن أتمت قفله، ثم ضمدته برباط لفته حول رأسه التي وسدتها برفق على وسادة قريبة، ثم راحت تتأمله برهة في صمت لترى مدى استجابته لما أجرته له من إسعافات، وسرها ذلك التغير الذي ألم بلون بشرته الشاحب فبدأت الدماء تتدفق إليه لتعيد إليه بعضاً من نضارته.. لكنه برغم ذلك بقي غائباً عن الوعي، دون أن تنم عنه حركة تدل على العودة إلى الحياة.. وتساءلت في قلق عما إذا كانت هناك جروحاً أخرى داخلية لا تراها تكون المسئولة عن سوء حالته.. ولكن مدى

علمها كممرضة ينتهي عند ذلك الحد، وما زاد على ذلك من إسعافات لابد لها من طبيب متخصص مع أجهزة للكشف الداخلي مما لا يتوفر إلا في المستشفيات، ونقله إلى المستشفى وفي تلك الظروف.. حيث الجنود الفرنسيون يملؤون المدينة، لن يؤدى إلا إلى نتيجة واحدة محتمة.. هي أن يفتضح أمره فيقع أسيراً بين يدي العدو، الشيء الذي حذرها منه الفدائيان قبل انصرافهما والذي لا ينبغي له أن يكون.. حتى لو مات.. فكل ما يهمهم من أمره أن تخفي جثته بعد موته وإلا تقع في أيدي الفرنسيين حياً كان أو ميتاً.. لأمور لا تعلمها على وجه الدقة ولكنها لابد وثيقة الصلة بالسياسة العليا للبلاد، وما يمكن أن تثيره فرنسا من أزمات دولية لو اكتشفت المساعدات المصرية لشعب الجزائر، خاصة وأن أزمة العدوان الثلاثي على مصر سنة 1956 مازالت ماثلة للأذهان بسبب ما قامت به مصر من مساعدات لثورة الجزائر في ذلك الوقت.. لذا فإن عمر هذا المسجى أمامها على الأرض- وما لو لم تتداركه عناية السماء- هو إنسان هالك.. عليه أن يلحق بحبيبها عمار في جنة الخلد مع أمثالهما من الشهداء، فما أشد التشابه فيما بينهما في كفاحهما البطولي وقتالهما المسلح في سبيل الله والحرية، بل الأغرب.. هو ذلك التشابه في الأسماء فيما بينهما أيضاً، فهذا "عمر" وذاك "عمار".. بل أن النطق الجزائري

للاسمين يكاد يكون واحداً، فهم – في الجزائر – غالباً ما يطيلون في وسط الأسماء ليضيفوا إليها المد بالألف.. لذا فإن "عمر" يمكن أن ينطق بالدارجة الجزائرية "عمار"، وتساءلت جميلة في نفسها لحظة: أفقد جاء هذا التشابه بينهما محض مصادفة، أم أن للسماء حكمة في ذلك؟.. أتكون تلك الحكمة متصلة بأحداث يومها العصيب؟.. أتكون السماء قد وهبتها "عماراً" آخر بدلاً من ذلك الذي مات؟.. جزاءً لها على كفاحها وصبرها الطويل؟ إذ هكذا خبرت الحياة.. حينما تأخذ من جانب فأنها تهب في جانب آخر.. تأملت لبرهة أسارير وجهه الجامدة فإذا به لا يخلو من وسامة، شعرت بأحشائها تئن عليه وهو في غربته وضياعه وحيدا شريداً، لا أم .. لا أب.. لا ولد لا زوجة، لا أحد يمكن أن يهمه أمره أو يقدم له العون والمساعدة.. فقط هي من دون الناس أجمعين: أمه.. وزوجته، وهي الوحيدة في هذا العالم التي علق مصيره بيدها.. فودت في تلك اللحظة لو ضمته إلى صدرها لتهبه قبلة الحياة فينهض على أثرها سليماً مُعافى كأنما لم يُمس بسوء.. وتساءلت عن سر ذلك الانجذاب الغريزي إليه منذ وقعت عيناها عليه وهو مسجى على الأرض؟ أيكون ذلك الذي يسمونه الحب من أول نظرة؟.. أم أنها ليست سوى غريزة الخطر التي تدفع المرأة إلى الرجل وتقرب ما بين الجنسين

خاصة في حالات الحروب والأوبئة والكوارث للمحافظة على التناسل ولضمان بقاء الإنسان واستمرار بقائه على الأرض، تحقيقا لقانون التوازن الطبيعي في الحياة؟

لكنها سرعان ما عادت إلى أرض الواقع، تكبح جماح نفسها التي انساقت وراءها في أحلامها بعواطفها المجردة دون أن تضع الحقائق في نصابها.. فهذا الضابط الجريح لا شأن له بمأساتها، ومأساتها أن "عمار" قد مات ولا شيء يمكن أن يُرجعه أو يُعيده إلى الحياة، لا شيء يمكن أن يعوض فقده أو ضياعه، وعليها أن تتعايش مع تلك الحقيقة المُرة مهما كانت قسوتها أو مرارتها، أما هذا الضابط الجريح فله الله.. وبكفايته ما هو فيه من مصير مظلم معلق بكف القدر بعد أن قطعت عنه كل معونة خارجية، إلا رحمة السماء التي شاءت أن تضعه أمامها طريحاً جريحاً متأرجحاً ما بين الحياة والموت، مرهونة حياته بمدى ما يمكن أن تقدمه إليه جميلة من مساعدات.. وهي كما ترى مساعدات ضئيلة محدودة، وعليها في النهاية أن ترقبه يذوي ويتلاشى أمامها.. إلى أن يموت، فتخفي جثته في سكون.. مثله مثل ذلك الخائن الثاوي بجواره، وربما تجمعهما في الصباح حفرة واحدة بحديقة منزلها تضمهما معاً، تخفي بذلك أمرهما، وليظل سرهما مدفونا معهما إلى الأبد.

الفصل الخامس

البحث عن الجريح

بعد انتصار الفرنسيين واستعادتهم للمدينة، تكونت قيادة عسكرية جديدة بقيادة الكابتن روبير، عملت على إقصاء ما تبقى من القيادة العسكرية القديمة وتحويلها إلى المواقع الخلفية، بينما تولت القيادة الجديدة دورها في إحكام سيطرتها على المدينة ومتابعة الفارين وتأديب المارقين.. ولم يكن هناك أصلح من الكابتن روبير بميوله السادية من القيام بهذا الدور خلفا للكابتن بو جيرار.. الذي نسبت إليه تهم التهاون والتقصير وأُقصي إلى مواقع أخرى أقل أهمية، بينما بدأت حملة إنتقامية واسعة ومنظمة للانتقام من المدنيين العُزل والبحث بينهم عن المجاهدين والسلاح.

عقدت القيادة الفرنسية الجديدة إجتماعاً بالحانة التي أُتخذت مقراً للقيادة بالمدينة، بدأ فيه الكابتن روبير حديثه قائلاً: إسمحوا لي أيها السادة أن أسجل عدم ارتياحي للنتائج التي وصلنا إليها حتى الآن.. فلقد استطاعت مجموعة صغيرة من المجاهدين المرابطين على المدخل الجنوبي للمدينة من وقف تقدمنا كل هذا الوقت الثمين، مما أعطى الفرصة لباقي الثوار

للهرب والفرار، ولو أننا فاجأناهم كما خططت لذلك، لأمكن لنا القضاء عليهم جميعا، وفي وقت قصير..

عقب أحد القادة قائلاً: لا تنس سيادة الرئيس أن الثوار يزدادون قوة يوماً بعد يوم.. فلقد عهدناهم من قبل يحاربون حرب العصابات السريعة بأسلحة عتيقة، أما الآن فلديهم خططاً مدروسة وقتالاً منظماً وأسلحة متطورة، وعيوناً يرصدوننا بها في كل مكان.. لذا فمن الصعب مفاجأتهم أو القضاء عليهم بسهولة..

إستشاط الكابتن روبير غضبا ودق بيده على مائدة الاجتماعات وقد فقد صوابه قائلاً: كل هذا بسبب "ناصر" ورجاله الملاعين، ولقد وصل إلى علمي إمداده للمجاهدين بفريق مدرب من الجيش المصري النظامي مزوداً بأحدث الأسلحة الروسية.. ولكن كل هذا لا يمكن أن يقف لحظة أمام أسطورة الجيش الفرنسي الذي هزم العالم وكانت لنا أمجاد نابليون العظيمة..

سرت همهمة احتجاج بين الجالسين كأنما يتهمونه بالمبالغة والتهويل، كاد البعض أن يذكره بهزيمة الجيش الفرنسي الساحقة أمام قوات الرايخ الثالث الألماني في الحرب العالمية الثانية الذي اجتاح تحصينات الفرنسيين التي حشدوها في خط دفاعي قوي أطلقوا عليه "خط ماجينو" فحطمها الألمان واحتلوا

فرنسا في أقل من أسبوع.. وأوشك الآخرون أن يذكروه بهزيمة فرنسا في موقعة "ديان بيان فو" التي استسلم فيها الجيش الفرنسي في الهند الصينية بلا قيد أو شرط.. بل كاد آخرون أن يذكروه بأن نابليون نفسه قد هزم وأستسلم بلا قيد أو شرط.. وأراد آخرون أن يسألوه عن سبب تواجدهم بعيداً عن بلادهم آلاف الأميال في بلد عربي غريب ما فتئوا يغالطون أنفسهم ويدعون أنه جزء من فرنسا برغم أن بحراً واسعاً من المياه والعادات والتقاليد والحضارة والتاريخ يفصل بينهما، ولا يمكن لهما أن يمتزجا إلا من خلال حروب مدمرة كالتي تجري بينهما الآن.. لكن مسيو روبير أسرع باحتواء التذمر، وأستأنف حديثه بحدة أقل قائلاً: نعم أيها السادة.. لقد علمت من مصادرنا المؤكدة بوجود ضباط مصريين هنا بين صفوف المجاهدين، ولقد كان أحدهم يقود القوة الصغيرة التي دوختنا في المدخل الجنوبي للمدينة وأظنكم خبرتم طريقة قتاله القوي وكيف ربح منا الوقت الكافي لهروب الباقين برغم ضآلة قوته التي لا تساوى شيئاً أمام جيوشنا الجرارة..

همس أحد ضباطه قائلاً: أنه يقاتل بروح "ناصر"..

إلتفت إليه روبير يسأله في حدة: ماذا قلت أيها الضابط؟!..

أشاح الضابط بيده في الاتجاه الآخر علامة عدم الأهمية، بينما زمجر روبير وهو يسترسل قائلاً: الغريب في الأمر أيها

السادة أننا في اقتحامنا للمدينة بعد أن سحقنا القوة المدافعة، تفقدنا جثث القتلى فلم نجد بينهم هذا الضابط المصري، وكذلك فلم نعثر عليه ضمن حملة التفتيش للمدينة، فأين ذهب؟ وكيف اختفى من الوجود؟..

أجابه أحد ضباطه قائلاً: يحتمل أن يكون قد فر إلى الجبال..

أجاب الكابتن روبير بحدته المعتادة قائلاً: مستحيل! فمعلوماتي المؤكدة أنه قد جُرح في المعركة.. ولقد كان هجومنا كاسحاً وعنيفاً مما لا يمكن أن يعطى الفرصة لنقله إلى الجبال وهو جريح.. لذا فأنا أرجح وجوده بالمدينة مختفياً لدى الأهالي.

اعترض أكبر الضباط قائلاً: كيف يمكن ذلك، وقد قلب رجالي المدينة رأساً على عقب في حملة التفتيش الماضية؟..

أجابه روبير في غضب قائلاً: لم يكن تفتيشك أيها الملازم "ميشيل" بالدقة الكافية.. لذا فعليك أن تبدأ حملة تفتيش أخرى واسعة أدق وأشمل لكل منازل المدينة، وعلى قواتك أن تحكم إغلاق كل المنافذ الخارجية حتى تمنع دخول أو خروج أحد منها.. وعليكم بتنفيذ هذا الأمر في الحال..

انتصب الملازم ميشيل في وقفته أمام القائد، ودق بأقدامه على الأرض في تحية عسكرية، علامة الطاعة والامتثال،

وقبل أن ينصرف استوقفه الكابتن روبير قائلاً: دعني أذكرك أيها الملازم بأن عثورنا على هذا المصري يمثل درجة بالغة من الأهمية القصوى، ولقد طلبت قيادتنا العليا إحضاره بأي ثمن.. حياً كان أو ميتاً، ولك في سبيل ذلك كل السلطات المطلقة..

دق الملازم الفرنسي أقدامه في تحية عسكرية إنصرف على أثرها إلى بعض رجاله حيث أعطاهم الأمر، وتوجه برفقتهم إلى المدينة لإعادة تفتيشها وأحكام الحصار حولها.

* * *

بإحدى التجاويف الجبلية.. اجتمعت القيادة الجزائرية لمجاهدي آفلو، لإعادة تقييم الموقف الخطير الناتج عن الهزيمة التي منوا بها وشيكاً ومن أهم آثارها الحزينة، تخليهم عن مدينة "آفلو" لتعود تحت الحكم الفرنسي مرة أخرى من جديد.. كان الوضع أمام القيادة سيئاً، والفوضى والاضطراب يعمان كل المواقع والجبهات نتيجة للهجوم الفرنسي الساحق الذي أتى من الجنوب على عكس التوقعات، وفتكه بالقوة الصغيرة التي وضعت لحماية الممر الجنوبي بقيادة الملازم عمر التي أبيدت عن آخرها تقريبا بعد أن أبلى رجالها بلاءً حسنا في استبسالهم واستماتتهم في الدفاع عن المدينة، لكنهم هزموا بفعل الأسلحة الجديدة والمتطورة التي إستخدمتها فرنسا

لأول مرة في المعركة، مما لم يجد لها المدافعون وسيلة أو دفعاً، خاصة أمام بساطة أسلحتهم الخفيفة التي لم تصمد طويلاً أمام الترسانة الفرنسية الحديثة.. ونتيجة لذلك فقد أصبحت معظم مواقع المجاهدين وتحصيناتهم الشمالية مكشوفة للقوات الفرنسية الآتية من الجنوب، وهذا يستدعى تغييراً استراتيجياً سريعا للمعدات والأشخاص والأماكن لتكون في مأمن من المباغتة الجديدة.. كل هذا مما أحدث الفوضى والاضطراب في جيش المجاهدين الذي أُخذ على غرة فاختلت حساباته واهتزت تخطيطاته، وغير بعيد أن يكون قدراً كبيراً من ذلك الفشل راجعاً إلى الخونة والعملاء المندسين بين المجاهدين الذين سهلوا مهمة دخول المدينة والإيقاع بالوطنيين الشرفاء، لذا فإن أهم شيء يأتي بعد إعادة تنظيم صفوف الجيش، هو البحث عن الخونة والعملاء والعمل على تصفيتهم مع تعزيز جهاز مخابرات الفدائيين بين صفوف الفرنسيين لمتابعة كل تحركاتهم وخططهم مسبقا حتى لا يتكرر ما حدث..

أما الشيء الذي أقلق الجميع حقاً، فهو المصير المجهول الذي لقيه الملازم عمر بعد إصابته وتركه بعد الغروب داخل المدينة، والخوف من أن يقع أسيراً بين أيدي الفرنسيين، فيُعرف من أمره ما تود القيادة العليا أن تخفيه، على الأقل في هذا

الوقت بالذات الذي تحاول فيه الثورة ترتيب صفوفها وتعزيز مواقعها بالأسلحة الحديثة في غفلة عن الفرنسيين، لإحداث أكبر ضغط ممكن على القوات الفرنسية استعداداً للمعركة الفاصلة بينهم، ولا يريد أحد أن تنزلق حساباتهم إلى أي مغامرة غير محسوبة النتائج من شأنها تعريض المجاهدين أو أصدقاءهم لمشاكل أو ضغوط ليسوا على استعداد لمواجهتها الآن..

بعد قليل تكلم القائد عشراتي قائلاً: الموقف أيها الأخوة خطير جداً، فلقد فاقت الضربة كل توقعاتنا، وها نحن نحصي الخسائر ونستوعب درس المعركة، فماذا ترون؟..

تكلم أكبر القواد قائلاً: الحق أيها الأخوة أن الهزيمة التي لحقت بنا قد كانت بسبب ذلك الخائن "زيزو" الذي استطاع بأساليبه الجهنمية أن ينفذ إلى أسرارنا وأن ينقل معظم مخططاتنا للفرنسيين وبذلك أمكنهم مفاجأتنا على غرة ومن حيث لا نتوقع..

رد عشراتي قائلاً: نحن نلام على ذلك أيضاً، إذ أننا نعلم من أمر عزوز كل شيء، ونعلم أنه عميل لفرنسا لذا فقد كان من الواجب علينا أن نحذره أكثر وأن تكون خططنا بمنأى عنه، لكن يبدو أننا قللنا من شأنه كثيراً وأنستنا فرحة النصر الكثير من تدبيرات الحذر، لذا فاللوم كله نتحمله نحن..

تكلم القائد بن دحمان قائلاً: الحق أيها الأخوة أن الهجوم الذي حدث لم يكن مفاجئاً بتاتاً، فلقد سبق وتنبأ به القائد عمر في مشورته لنا بتوزيع القوات كأنما كان يعلم بحدسه الحربي أن الهجوم المرتقب لن يكون من الشمال، ولو أننا أخذنا بنصيحته لما كنا في تلك الفوضى التي نحن فيها الآن ولقللنا من خسائرنا بقدر كبير..

أضاف قدور وهو يغالب حزنه قائلاً: بل أنه بصموده البطولي في الدفاع عن المدينة قد منع كارثة محققة، وحمى ظهر باقي القوات في تقهقرهم وانسحابهم بأقل الخسائر إلى الجبال..

تأسف "عشراتي" قائلاً: لقد كان بطلاً كبيراً.. ولقد إفتقدناه كثيراً، ولكن خبرني أيها الأخ بن دحمان، ما الذي حدث له على وجه التحديد؟..

سرد بن دحمان قصة المعركة التي فاجأتهم بهجوم الفرنسيين الجنوبي المركز والعنيف الذي دك مواقعهم حتى لم يعطهم الفرصة في دفاع متكافئ، إنتهاءاً بإصابة عمر نتيجة انفجار مباشر فوق الموقع وغيابه تماماً عن الوعي مما أضطرهم لحمله ثم التخلي عنه لدى امرأة مجهولة نتيجة لسوء حالته – وحالتهما – أثناء الانسحاب..

أضاف قدور قائلاً: أود أن أسجل ملاحظتي عن القنابل التي استعملها الفرنسيون في هجومهم الأخير، فلم يحدث أنني شاهدت مثيلاً لها من قبل.. إذ فضلاً عن دويها الهائل وتأثيرها المدمر، فلقد رأيت لها قدرة غريبة على إسالة الحديد واشتعاله كأنما هو قطعة من الحطب الجاف..

أجابه أكبر القواد وهو يقهقه ضاحكاً: الحديد يشتعل؟.. لابد أنك كنت في حالة غيبوبة من تأثير "الشمة" التي تدمنها..

قاطعه أحد القواد بحزم قائلاً: الحق ما ذكره قدور.. فلقد تكلم الضابط الفرنسي الذي أسرناه في معركة الثلوج البيضاء، وأبلغنا بطبيعة الأسلحة الجديدة التي زود بها الجيش الفرنسي قواته المحاربة في الصحراء، ومن بينها قنابل "النابالم" المحرمة دولياً، ولها تلك القدرة التي شاهدها قدور في إسالة الحديد وإشعاله.. فضلاً عن بعض الأسلحة الكيماوية الأخرى التي تؤثر على العقل وأجهزة الجسم المختلفة فتصيبها بالشلل والتلف..

ساد الوجوم الحاضرين برهة، قبل أن يتساءل بن دحمان قائلاً:

ألهذا كانت الخسائر الفادحة التي أصابت قوتنا المدافعة؟.. فلقد رأيتهم يتساقطون حولي الواحد تلو الآخر دون أن يتعرضوا لإصابات مباشرة أو خطيرة..

أضاف قدور قائلاً: أغلب ظني أن حالة إغماء الملازم عمر لنفس السبب، فلم أشاهد به جروحاً غائرة أو خطيرة، ومع ذلك فقد كان فاقداً للوعي مدة طويلة بلا مبرر معقول..

أضاف أحد القواد بتهكم قائلاً: أغلب ظني أن إصابته ترجع لكونه ابن المدينة لم ينشأ في الجبال مثلنا.. لذا فما أدرانا أنه لم يفقد وعيه من الرعب والخوف، أو نتيجة للفزع من مفاجأة القتال..

أحمر وجه قدور للإهانة الظالمة التي لحقت قائده الأثير لديه، فأكفهر وجهه وامتدت يده لا شعورياً تتحسس الخنجر الموجود في منطقته، كأنما يهم بنزعه وتسديده لصدر المتهكم على عمر.. حتى ولو كان قائده الأعلى، في الوقت الذي أسرع فيه بن دحمان لزجره ونهيه عن الاندفاع، فتمالك قدور مشاعره بمشقة، بينما تدخل عشراتي في الحديث قائلاً: إن أقوى الرجال يمكن أن يفقد شجاعته إذا ما وضع أمام ظروف صعبة كالتي نمر بها، ومع ذلك فأنا لا أسمح لأحد بأن يشكك في شجاعة الملازم عمر أو مقدرته على المواجهة والقتال، فلقد رأيناه جميعا وفي مواقف سابقة أعتى وأشد يحارب ببسالة وإقدام، ولم نعهده ضعيفاً أو جباناً.. بل كان دائماً وأبداً مثلاً أعلى للرجال.. لذا فهو بحق أثمن هدية من "عبدالناصر"

لشعب الجزائر، ولنا جميعا أن نفخر بوجوده بيننا، ونحاول أن نستعيده مهما كانت الظروف والتضحيات..

لقى كلام عشراتي الموافقة والاستحسان من باقي القادة، بينما تكلم أكبرهم سناً فقال: الحق ما قاله عشراتي فلا يخفي عليكم أيها الأخوة الأهمية القصوى التي تعقدها القيادة العليا على إبقاء تواجد عمر بيننا سراً من الأسرار الحربية، ولا أعتقد أن القيادة الفرنسية ستكف لحظة عن البحث عنه، خاصة بعد تلك الأسرار الهامة التي تسربت من اجتماعنا الأخير في الحانة على يد الخائن زيزو، ونحن لا نعلم مقدار ما وصل منها إلى علم الفرنسيين، لكنهم استطاعوا التوصل عن طريقها إلى بعض أعواننا المخلصين في وهران، وغير بعيد أن يتوصلوا عن طريقها أيضاً إلى عمر.. لذا أرى أن نستعيده مرة أخرى إلى صفوفنا مهما كان الثمن..

ساد الصمت برهة قبل أن يتكلم بن دحمان قائلاً: لا أعتقد أن حالته الصحية بعد إصابته تسمح له بالانتقال إلى الجبال، خاصة مع الظروف الصعبة للمدينة بعد إحكام الحصار حولها..

تكلم عشراتي بحزم قائلاً: أرى أن تقوم مجموعة من أبطالنا المتطوعين، باختراق صفوف الفرنسيين والنفاذ من بين تحصيناتهم التي لم تتم أحكامها بعد، وأن نحاول استعادته إلينا

حياً أو ميتاً، فوجوده خلف خطوطنا مخاطرة جسيمة لا يمكننا التسليم بها أو تحمل نتائجها، فيما لو توصل إليه الفرنسيون قبلنا..

وقف قدور قائلاً: أنا أقوم بالمهمة..

تابعه بن دحمان وهو يقف بجواره قائلاً: وأنا معك..

اعترض عشراتي قائلاً: يمكنكما البقاء وإرشاد زملائكما إلى موقع عمر داخل المدينة، فلا أرى ألا أن جروحكما مازالت لم تلتئم بعد..

لكن قدور وبن دحمان أبيا ألا أن يكونا على رأس القوة الصغيرة من متطوعي المجاهدين التي تتوجه إلى المدينة في تسللها وراء خطوط الفرنسيين، في استعادتها للملازم الجريح "عمر هاشم" حياً أو ميتاً، في مهمة انتحارية، في سباق مع الوقت قبل أن يصل إليه الفرنسيون..

* * *

في جوف الليل الساكن، وريح جليدية باردة تعصف بأغصان الأشجار الجرداء في صفير مخيف فتزيد من وحشة الليل وبرودته.. التقى الفريقان حول منزل "جميلة".. فريق المجاهدين المكلف بإحضار عمر.. وفريق الجيش الفرنسي بقيادة الملازم "ميشيل" المكلف بالبحث عن الجريح المصري الغامض.. وكل منهما يحاول سباق الزمن للوصول إلى داخل

المنزل قبل الآخر.. لذا فالاشتباك بينهما قد كان مسألة أمر واقع من المحتم حدوثه بعنف وضراوة.. فكل منهما لديه أوامره المشددة بإحضار عمر حياً أو ميتاً ومهما كانت الظروف أو التضحيات.. ولم يكن هناك من أمل في أن يحظى أحدهما بعمر، مالم يتمكن أحد الفريقين من القضاء على الآخر الذي يعترض الطريق الموصل إليه.. ولأن الفرنسيين يلعبون على أرضهم، فقد أسرعوا بطلب العون والإمدادات من قيادتهم بالمدينة، بينما حاول المجاهدون سباق الزمن وإنهاء الاشتباك قبل وصول المدد الفرنسي الذي إن وصل بأعداده الكبيرة المتوقعة، فسوف تميل الكفة في صالح الفرنسيين.. لذا فقد عمد المجاهدون لجذب انتباه الفرنسيين بعيداً عن المنزل فترة كافية، تسلل خلالها قدور إلى داخل المكان لإخراج عمر منه قبل أن يتنبه لذلك الفرنسيين، لكن محاولتهم اكتشفت.. فبدأ الفرنسيون يتقاطرون على المكان لتطويقه وإحكام الحصار حوله، لكن المجاهدين حالوا دون إتمام الحصار بحمايتهم للجزء الجنوبي من المنزل القريب من ناحية الجبل حتى يسهلوا مهمة إنسحاب قدور مع الجريح.. لذا فقد إحتدم القتال بين الفريقين، وعوضت شجاعة المجاهدين النقص الظاهر لديهم في السلاح والمعدات، بينما حرص الكابتن روبير على عدم استعمال جنوده لأسلحتهم الثقيلة أو إلقاء قنابل أثناء القتال

لرغبته في الحصول على الأسرى أحياء، وبالأخص ذلك الضابط المصري الجريح التي رجحت مصادره السرية وشواهد الحال تواجده بالداخل.. ومن ثم فقد إستمر يضغط بقواته ويدفع بتعزيزاته الجديدة لقطع طريق العودة على الفدائيين الذين انكمشوا وتضاءلوا في مساحة صغيرة يحاولون من خلالها فتح طريق إلى المنزل وتأمين عودتهم إلى الجبال.. وبدت أهمية مرور الوقت الذي بدأ يتحول لصالح الفرنسيين..

فجأة بدأ الفدائيون ينسحبون من المكان على أثر صيحة متفق عليها من قدور وهو يخرج من مكمنه داخل المنزل ليواجه نيران الفرنسيين الموجهة نحوه من أعدادهم الكبيرة دون حماية تُذكر من جانب مجموعته الصغيرة.. ومع ذلك فقد تقدم قدور في شجاعة نحو صفوف الفرنسيين وتجمعاتهم وهو يحصدهم حصداً، لكنهم أمطروه وابلاً من رصاصهم الذي مزقه إرباً، بعد أن تمكن من إلقاء قنبلته اليدوية بين صفوفهم فقلبت عليهم المكان، قبل أن يتساقط إلى الأرض جثة هامدة.. أطلق صيحته الأخيرة: الله أكبر.. وتحيا الجزائر..

في اللحظات التي تلت الفوضى التي سادت المكان عقب الانفجار، كان الفدائيون قد تمكنوا من التسلل والهرب إلى الجبال بعدما أصبح وجودهم بالمدينة بلا جدوى مهدداً بالخطر، وقد أعطاهم قدور باستشهاده البطولي فرصة الإفلات

من قبضة الفرنسيين الذين أحكموها حول المكان.. بينما الكابتن: روبير لاه عنهم بإعطاء أوامره لاقتحام المنزل للقبض على الضابط المصري الجريح..

ما كادت القوات الفرنسية تتقدم خطوات نحو الداخل حتى سمع لدخولهم دوياً هائلاً ارتجت له جدران المكان، وتناثرت على إثره قطع من النوافذ والأثاث مختلطة بأشلاء الضحايا وأنات الجرحى، ثم ما لبث أن ساد السكون أنحاء المكان، بينما ارتفعت سحابة من الأتربة والدخان ناتجة عن الانفجار لتغطى المكان برداء ثقيل منع الرؤية إلى حين..

استشاط الكابتن روبير غضباً وهو يتفقد المكان عقب الانفجار وانقشاع الدخان، حتى أنه لم يتمالك إلا أن صاح قائلاً: أين الضابط الجريح؟.. أين الفدائيون؟.. أين ذهب الجميع بحق الجحيم؟..

حياه أحد ضباطه وهو يجيبه قائلاً: سيدى.. لقد تحطم المكان لحظة الاقتحام نتيجة شرك نصب لنا بإحكام، لم يبق في الداخل سوى جثة مشوهة لرجل مجهول.. مختلطة مع أشلاء جنودنا الذين اقتحموا المكان..

تقدم الكابتن روبير من الجثة المشوهة وتأملها ملياً وهو يقلبها قبل أن يصيح في غضب قائلاً: الملاعين.. لقد سبقونا إلى الضابط المصري فأجهزوا عليه وشوهوا معالمه، ثم هربوا

إلى الجبال، هم لم يفلتوا فقط من قبضتنا، ولكن أفلت معهم "ناصر" أيضاً..

لم يشأ الكابتن: روبير أن يترك المكان إلا بعد أن أصدر أوامره بحرقه ونسفه من الوجود، كأنما يحمله وزر فشله في مهمته.. وسرعان ما هب جنوده لتنفيذ الأمر الذي يتقنونه جيداً لكثرة ما قاموا به من مهام شبيهة في هدم منازل المدينة التي حولوها في وقت قياسي إلى أنقاض.. لذا فإن هدم منزل جميلة لم يستغرق في أيديهم سوى لحظات قليلة.. لم يتركوه إلا بعد أن سووه بالأرض فلم يعد له من أثر أو وجود..

* * *

في الجبال.. عقد المجاهدون اجتماعهم العاجل لمناقشة آثار هجومهم الأخير الذي قُصد به إنقاذ عمر.. وفي بدايته ترحموا على روح المجاهد قدور الذي نال الشهادة وهو يحارب في سبيل الله، لذا فهو في الجنة مع من سبقوه من الأبرار والشهداء الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون..

بعد أن سرد بن دحمان تقريراً مختصراً عما حدث في الاشتباك الأخير، تساءل أحد القواد قائلاً: اسمحوا لي أيها الأخوة أن أطرح بعض الأسئلة التي تدور بذهني عن المهمة الأخيرة، والتي أراها محيرة بلا جواب.. فلماذا أعطى قدور إشارة الانسحاب؟.. هل وجد عمر بالداخل أم لا؟.. وإن كان

قد وجده: هل كان حياً أم ميتاً؟، وهل كان بمفرده؟.. وما مصير المرأة التي كانت معه؟.. ثم لماذا خطط عمر لنسف المكان في دخول الفرنسيين إليه؟ ثم...؟؟

توقف القائد عن إلقاء الأسئلة وفي عينيه الكثير من علامات الإستفهام!!.. حينئذ انبرى بن دحمان ليجيبه قائلاً: أغلب ظني أن الشهيد قدور أعطانا إشارة الانسحاب لأنه وجد المهمة منتهية بموت عمر متأثراً بجراحه بعد أن تركته المرأة التي تركناه لديها ولاذت بالفرار خوفاً على حياتها من القتال الدائر، ولو كانت بالداخل لحظة الهجوم لسمعنا صوت إستغاثتها أو عويلها.. أما تخطيطه لنسف المكان في دخول الفرنسيين إليه فقد كان لتشويه معالم عمر حتى لا يتعرف عليه أحد وفقاً لاتفاقنا السابق على ذلك في حالة ما إذا أُجبرنا على التخلي عنه.. لذا فإن إشارة الانفجار قد كانت واضحة لنا تماماً ولم نغادر المكان إلا بعد أن شاهدنا الانفجار الذي هو دليل على انتهاء كل أمل في المهمة التي كُلفنا بها، أما السؤال الذي أراد الأخ القائد سؤاله وتوقف عنه إكراماً لاستشهاد قدور، فدعوني أنا أسأله لأنني أعرف إجابته.. السؤال هو: لماذا خطط قدور لاستشهاده على هذا النحو، شاهراً سلاحه مقتحماً صفوف الفرنسيين؟.. إسمحوا لي أيها الأخوة لأجيبكم بأن استشهاده بهذه الطريقة البطولية قد كان الثمن الذي دفعه

لإفلاتنا جميعاً، بل لقد كان السبيل الوحيد لخروجنا من المكان وعودتنا سالمين بعد أن أحكم الفرنسيون حصارهم حولنا، ولقد كسر هجومه المفاجئ عليهم حدة الحصار حيث أشاع الفوضى بين صفوفهم بالقدر الذي أعطانا فرصة الإنسحاب، ولولا ذلك لكنا جميعنا ما زلنا معه هناك..

علق أحد القواد قائلاً: إن هذا هو بالضبط ما أكدته مصادرنا السرية بالمدينة، وهو أن الفرنسيين لم يتمكنوا من أسر عمر بعد انسحابنا من القتال، وكل ما وجدوه.. بقايا أشلاء بشرية ممزقة غير واضحة المعالم مختلطة بجثث الجنود الفرنسيين ممن شوههم الانفجار الكبير الذي خطط له قدور في اقتحام المكان..

ساد صمت ثقيل على المكان، قبل أن يجيب أكبر القواد قائلاً: الحق أيها الأخوة أن قدور قد مات.. ولقد ماتت معه الكثير من تساؤلاتنا وإجاباتها أيضاً.. لم يبق أمامنا إلا أن ندعو له بأن يتقبله الله لديه في أحسن مآب، فما أظنه إلا قد كان بطلاً في حياته وبطلاً في مماته وبطلاً حتى بعد أن مات.. فلقد قتل من الفرنسيين بعد مماته في الانفجار الذي خطط له، أكثر من كل من قتلوا أثناء القتال.. فليرحمه الله برحمته الواسعة..

أضاف عشراتي بعد فترة من الصمت قائلاً: رحم الله الفقيدين عمر وقدور.. فقد كانا من أعظم أبطالنا الشجعان.. وحينما يؤرخ لثورة الجزائر فيما بعد، بعد النصر إن شاء الله.. فلا أعتقد ألا أن أسميهما سوف يكتبان في تاريخها بحروف من نار.. وعزاؤنا أن مثواهما الجنة مع الشهداء والصالحين،،،

الفصل السادس

نهر سيبيجاج

تُرى أين ذهب الجريح؟..

بعد أن أودع قدور وبن دحمان جريحهما النازف الغائب عن الوعي لدى جميلة وفرا بجراحهما إلى الجبال.. جلست جميلة برهة أمام الجسد المسجى ترمقه في سكون بعد أن استنفذت كل وسائلها ومهارات تمريضها لإعادته إلى الحياة بلا جدوى، فاعتمدت رأسها بين يديها تفكر في الموقف الصعب الذي آلت إليه الأمور، وما يجب عليها أن تفعله للتخلص من المأزق الذي هي فيه.. أبسط شيء هو ألا تفعل أي شيء على الإطلاق، فالموقف أكبر من قدرتها على التصرف، بل لا يمكن لأى إنسان في مثل تلك الظروف أن يفعل شيئاً.. فلا مستشفى يمكنها اللجوء إليه لعلاج الجريح، ولا يوجد عون مرتقب يمكن أن تتوقعه من المجاهدين في ظل تلك الهزيمة الضخمة التي لحقت بهم وأدت إلى خروجهم من المدينة إلى الجبال، والعون من الأهالي مستبعد في ظل الإرهاب وحظر التجول المفروضان على المدينة والحملة الانتقامية التي تعرضوا لها من فرنسا كعقاب لهم على فرحتهم السابقة بالنصر.. لذا فكل المطلوب منها في مثل تلك الظروف أن

تبقى مكانها وترقبه في صمت حتى يموت.. فهذا هو ما يتوقعه الجميع ولن يلومها أحد عليه، بل لن يمكنها أن تلوم نفسها أيضاً.. إذ هكذا هي الحروب تفرض علينا ما لا طاقة لنا به، وما يجب علينا أن نتقبله في صمت مكرهين..

لكن ماذا لو وجده الفرنسيون مختفياً في دارها أثناء حملتهم الانتقامية في تفتيش المنازل للبحث عن السلاح والمجاهدين؟ خاصة وقد حذرها المجاهدون من أهمية هذا الجريح الغريب على وجه الخصوص مع ضرورة إخفاء أمره عن الفرنسيين لسبب لا تدريه على وجه التحديد.. لكنها يمكن أن تستنتجه من إصرار الفدائي الكهل على تهديدها بالقتل لو أُكتشف أمره الفرنسيون، ومن حرص الفدائي الآخر على تحية الجريح في مهابة تحية عسكرية حزينة قبل أن يفارقه في فراره إلى الجبال.. ثم ما الذي تتوقعه من الفرنسيين إذا ما اكتشفوا وجوده لديها إلا أن يقتلوها كجزاء لها على تعاونها ضدهم مع المجاهدين؟.. خاصة إذا ما أضافوا لذلك علاقتها التي انكشفت بزوجها الشهيد عمار، وتعاونها السابق مع الثوار وقتلها لعميلهم زيزو وخداعها لقائدهم السابق "بوجيرار".. في كل هذا لن يكون لها من جزاء سوى الموت.. رمياً بالرصاص.

تساءلت جميلة وهي ترقب الجريح الراقد في سكون عمن يكون؟.. وبغض النظر عن أهميته البادية للثورة وللمجاهدين مما يجعلهم يحرصون على إخفاء أمر تواجده حياً أو ميتاً، تساءلت جميلة عن ماضيه، عن حياته السابقة قبل أن يصل إلى هنا هل له أسرة تحزن على ضياعه؟، أله زوجة تتلهف على لقائه وتحزن لموته؟.. أله أولاد يتطلعون إلى اليوم الذي يعود إليهم فيه سالماً من القتل والقتال؟..

فجأة .. شعرت جميلة بثورة هائلة تتملكها حتى لقد أحست بالدماء تغلي في عروقها.. فلماذا هي من دون الناس جميعاً كتب عليها أن تتحمل كل هذا العناء والشقاء، وأن توضع دائماً وأبداً على حد الخنجر في مواقفٍ صعبة ومستحيلة دون أن يكون لها مجرد الحق في الشكوى أو البكاء، بداية من موت حبيبها عمار، ثم الخزي والمهانة اللذان شعرت بهما وهي تستجيب لنزوات عزوز المريضة، وهي تعرض أمامه جسدها العاري، ثم الرعب الذي عانته وهي تمر بتجربتها الأولى في قتل إنسان، ثم الخوف من أن يكتشف أمرها فتلحق بمصير عمار، ثم الخوف من القتل والقتال الدائر في المدينة.. ثم ها هي ذي في نهاية الأمر في مواجهة موقف معقد وفي مقابل قتيل خائن وآخر جريح مجهول، مكتوب أن تشاهده يذوي في صمت حتى يموت..

تباً لهم جميعاً! وليذهب المتقاتلون جميعاً إلى الشيطان، فلقد أخذت نصيبها كاملاً من القتال كما لم يأخذه أقوى الرجال، فلينتصر هذا على ذاك، وليحارب بعضهم البعض، وليمت من شاء أن يموت.. لكن شيئاً واحداً في كل هذا يجب ألا يموت.. هو هذا الغريب القادم من أرض بعيده، ذلك الذي ألقاه حظه التعس بين الحياة والموت أمامها، وجعل مصيره معلق بيديها.. هو وحده يجب أن يعيش مهما كانت النتائج وقسوة التضحيات، ستحارب العالم كله من أجله وتنتصر، وستفوز بحياته غنيمة لها، لقد فرضت عليها المعركة، وهي لن تهرب منها أو تتخاذل عنها بل ستقبل التحدي، لقد خسرت العديد من المعارك التي خاضتها حتى الآن، أما هذه المرة فيجب أن تنتصر، لقد مات عمار.. أما عمر.. هذا الغريب الجريح.. فيجب أن يعيش..

بإرادة شحذها التصميم فأصبحت كحد السيف.. قفزت جميلة من مكانها بخفة النمور.. وتقدمت نحو الجريح حيث نزعت عنه ملابسه الممزقة والبسته بدلا منها ملابس الأهالي الوطنية التي تعلوها "الجلابة" الصوفية الثقيلة التي اعتادوا لبسها في هذا الإقليم لتقيهم برد الشتاء، ثم نزعت دعامتين قويتين من أخشاب الحديقة وربطتهما بأطراف فراش صوفي سميك، فأصبح على شكل نقالة كالتي ينقل فوقها المرضى

والجرحى، ثم جرت فوقها الجريح الغائب عن الوعى وربطته إليها جيدا حتى لا ينزلق أو يتزحزح من مكانه إذا ما تعرض للحركة.. ثم قامت بجر النقالة بجريحها إلى الحديقة وجعلتها في مقابل الباب الخلفي للعربة الخالية من الحصان، ثم هرعت إلى باب الحظيرة حيث أخرجت الحصان وأسرجته ووضعته أمام العربة وربطت إليه حبل البئر الغليظ الذي مررته من فوق العربة وربطت طرفه الآخر إلى طرف النقالة المقابل لرأس الجريح، وبخطوات وئيدة متأنية قادت الحصان بعيداً عن العربة وهو يجر معه الحبل المربوط إلى النقالة، إلى أن ارتفع رأس الجريح وأصبح مقابل الباب الخلفي للعربة، فقامت برفع الطرف السفلي للنقالة وإدارته تدريجيا حول المحور الأعلى إلى أن استوت النقالة في وضع أفقي فدفعتها بالجريح إلى داخل العربة الذي اتسع بالكاد لحمولتها، ثم فكت الحبل ووضعت الحصان داخل ذراعي العربة وشدته إليهما بإحكام.. ثم عادت إلى المنزل مرات لتملأ فراغات العربة ببعض الضروريات التي رأتها لازمة للرحلة، خاصة ما لديها من أدوات طبية وأضمدة وأدوية، ثم ارتدت زيها الرسمي الخاص بالممرضات الفرنسيات، ولم تنس بطاقتها الطبية وأوراق التعريف الخاصة بها.. وأخيراً فتحت البوابة الرئيسية للمنزل وانطلقت بعربتها وهي تقود حصانها بخطوات محاذرة حتى لا تحدث ضوضاء

زائدة قد تلفت لها أنظار الجنود الفرنسيين المنتشرين في المدينة المنفذين لقرار حظر التجول.. لكن حدث ما كانت تخشاه، إذ أن جموح حصانها المدلل أقوى من أن يسيطر عليه إنسان، لذا فما أسرع ما تنبه لها الفرنسيون، فإذا بجندي فرنسي مدجج بالسلاح يعترض طريقها مسلطاً في وجهها مصباحه الكهربائي القوى طالباً منها الوقوف، ويسألها بحدة عمن تكون؟..

أجابته جميلة بثبات بأنها ممرضة ضمن فريق الطوارئ الطبي تساعد في الإسعافات ونقل الجرحى إلى المستشفى في نوبة حراستها الليلية، وأبرزت له أوراقها وبطاقة تعريفها، تفحصها جيدا قبل أن يعترض عليها قائلاً: ولكن بطاقتك موقعة من القيادة الفرنسية السابقة، ألا ترين بأن كل شيء قد تغير؟، فأين توقيع القيادة الجديدة؟..

أجابته جميلة بهدوء قائلة: لقد كان التغيير سريعاً، فلم يترك لي فرصة الحصول على توقيع القيادة الجديدة.. ولكن بربك أسرع.. فمعي جريح في حالة خطرة يتحتم علي توصيله إلى المستشفى قبل فوات الأوان..

وجه الجندي مصباحه إلى داخل العربة وتفقد الجريح الغائب عن الوعى، وحينما تبين وجهه الأسمر وملابسه الوطنية، إكفهر وجهه وتغيرت ملامحه وصاح في المرأة وهو

يوجه نحوها سلاحه قائلاً: فلاجة.. (بمعنى مجاهدين)، أنت تنقلين المجاهدين إلى المستشفى.. أنت تعملين مع المقاومة!..

غاص قلب جميلة بين قدميها من الرعب وهي ترى فوهة البندقية التي يحملها الجندي الفرنسي موجهة إلى صدرها في غضب وتحفز، وقبل أن تتمكن من الإجابة لتبرير موقفها أو الدفاع عن نفسها، صاح الجندي قائلاً: ميلان.. أسرع.. أنظر..

أقبل "ميلان" الجندي الفرنسي الآخر، الذي كان يبدو أنه من رتبة أعلى، وتقدم بخطوات وئيدة، حيث تفقد الحالة بهدوء وبلا عصبية، وتطلع نحو المرأة ثم طابق ملامحها على الصورة المثبتة في بطاقتها.. ما لبث أن أجاب زميله بهدوء قائلاً: لا بأس.. (لسيه باسيه) بمعنى ..أتركها تمر..

حاول الجندي الأول مناقشته، لكن ميلان اتجه بخطوات وئيدة نحو الحصان الذي صهل بشده، فربت ميلان على رقبته بحنان قائلاً: هذا الحصان أعرفه جيداً، لقد كان المفضل لدى قائدنا السابق الكابتن بو جيرار.. ولا يمكن إهداؤه إلا إلى أصدقاء أعزاء.. ثم لا تنس أن أصدقاء فرنسا هم أصدقاؤنا أيضاً.

خفف الجندي الأول من حدة عناده، وهو يخاطب ميلان قائلاً: لكن ألا ترى أنها تنقل في عربتها جريحاً من الوطنيين؟.. وقد يكون..

لكن ميلان قاطعه قائلاً: تلك مسألة أخرى متروكة لقيادة المستشفى، وهناك سوف يتحققون من شخصية الجريح على وجه التحديد..

أعاد ميلان الأوراق إلى جميلة بأدبه الجم، ثم حياها باحترام قائلاً: (بون فوياج).. بمعنى: رحلة سعيدة.

ثم أضاف قائلاً: ولكن إسمحي لنا سيدتي أن نسير في حراستك حتى المستشفى، فالبلد لا يخلو من الأشرار خاصة في مثل تلك الظروف، ولا نريدك أن تتعرضي وأنت وحدك للأخطار، خاصة وأنت بهذا الزي الذي يحمل شارة فرنسا..

استأنفت جميلة مسيرتها المتأنية في حراسة الدورية الفرنسية في طريقها إلى المستشفى وقد أُسقط في يدها، فعن قريب تصل تحت الحراسة المسلحة إلى القيادة الفرنسية لتسلمهم بنفسها الجريح المصري الذي حاولت إنقاذه بالدرجة الأولى منهم، والذي يجب من دون الناس كلهم ألا يسلم إليهم.. حياً كان أو ميتاً.. لذا فقد حاولت اصطناع الحجج واختلاق الأعذار لتعطل مسيرتها حتى يتركونها وحدها وينصرفون عنها.. لكنهم ظلوا يلازمنها في إصرار، وفشلت كل محاولاتها

للتهرب منهم مما جعلها تكف بعد حين خشية من إثارة شكوكهم فيها، ثم ما لبثت أن استسلمت لقدرها وهي تدعو الله في نفسها دعاء خفياً: هذه المرة فقط يا إلهي.. وسوف أشكرك ما حييت.. بحق أوليائك الصالحين.. سيدي علي وسيدي بوزيد.. نذر علي لن أنساه.. زيارتهم وبرهم والدعاء لهم.

حينما وصلت إلى المستشفى وأصبحت في حوزة الجندي الواقف على بابها، انصرفت عنها الدورية المصاحبة لها بعد أن اطمأنت على سلامة وصولها.. وتركتها وقلبها يرجف من الرعب في انتظار اللحظة التي يفتضح فيها أمرها وأمر جريحها الذي تبحث عنه كل القوات الفرنسية المتواجدة بالمنطقة..

حينما طال انتظار جميلة أمام باب المستشفى بلا دخول.. لاحظت بكثير من الارتياح ذلك الصف الطويل من العربات المنتظرة مثلها في حالة من الفوضى غير قادرة على تفريغ جرحاها لعجز المستشفى عن استقبال المزيد منهم.. وكان سرورها أكثر حينما طلب منها حراس الباب التوجه بجريحها إلى المستشفى الفرعي الكائن في الطرف الشرقي للمدينة.. وكأنما كانت تلك منحة السماء لها، إذ ما كادت تولي عائدة حتى وجدت الممر الشرقي للمدينة خالياً من الحراسة، فسارت فيه وهي ما فتئت تتلفت حولها محاذرة، فلما اطمأنت بعد حين

لخلوه من الجنود، غذت سيرها فيه وهي ما فتئت تنحرف إلى طرق جانبية تعرفها جيداً.. قادتها في النهاية إلى مخارج مجهولة للمدينة، انطلقت منها إلى طرق جبلية غير ممهدة وهي تحاذر طول الوقت من الوقوع في الحفر أو الاصطدام بنتوءاته البارزة خوفاً على الجريح المسجى داخل العربة، ولقد أعانها الحصان الذي ما فتئ يسرع أو يبطئ بحسب طبيعة الطريق الذي يمر فيه.. كأنما هو يفكر ويعي، إلى أن خرج بها إلى الخلاء الواسع فاستقام أمامها الطريق وسلس، فأطلقت لحصانها العنان ليطير فيه بلا جناحين، وانطلقت معه كل أحاسيسها ورغباتها المكبوتة إلى أن فاضت بها دموعها على خديها، وهي لا تصدق بالنجاة..

مع خيوط الفجر الأولى وصلت جميلة إلى وادى "بركانا" الواقع على نهر "سيبيجاج" بالقرب من قرية "أولاد سيدي بوزيد".. كان كل شيء بالوادي هادئاً هامداً، وقد التحفت قمم هضابه بالثلوج البيضاء، بينما تزين الوادي بخضرة مختلسة من الربيع الذي لم يأت بعد، ولكن شاء أن يمهد لقدومه بتلك الأعواد الخضراء التي تحدت جليد الشتاء.. بينما أخذ النهر في تلويه.. يحاول أن يشق مجراه بجسارة بين الصخور والثلوج التي تسد مجراه.. وهناك على أحد ضفافه المتسعة البعيدة جلس راعٍ صغير إلى جذع بلوطة عالية ينفخ

في صفارته ويغنى على صوت خرير مياه النهر المتدفق.. أغنية حب.. مطلعها:

وردة بيضة في العلالي

رقصت ما بين الدوالي

وكـــروم التين،،،

صكت الأغنية مسامع جميلة، فقوت من عزمها على السير وأملها في الوصول، بينما تطلع نحوها الراعي الصغير دهشاً، وهو يعجب لإسراعها الذي لا يجد له ما يبرره في ذلك القفر المنعزل البعيد عن المدينة والحروب، ولا يعرف بداخله سوى الصمت الطويل..

دارت جميلة حول النهر دورة كبيرة، قبل أن تجتاز قنطرته الحجرية العتيقة الواصلة بين ضفتيه.. ثم اتجهت إلى مزرعة واسعة تترامى في كسل وتمتد على سفح الجبل لتلتقي مع النهر في عناق رقيق.. فشقت جميلة طريقها بين أشجارها الجرداء، وقد تابعها كلبها "الباشا" في نباحه الدال على معرفته لها وترحيبه بقدومها.. إلى أن وصلت وهو في أعقابها إلى كوخ أبويها الحجري القديم، فأوقفت عربتها في مقابله وهرعت لملاقاة أبويها الشيخين اللذين هبا من نومهما فزعين على الجلبة والضجيج، فارتمت جميلة بين أحضان أمها باكية، بينما أخذ أبوها يربت على شعرها ويهدئ من روعها..

حين سكنت نفس جميلة.. أشارت لأبويها على الجريح الثاوي داخل العربة فهبا إليه، وتعاونا معها على حمله الى داخل الكوخ بسلام ..

بعد أن استقر الحال بجميلة وبجريحها الغائب عن الوعي بمنزل أبويها البعيد عن الخطر، ونار مشتعلة في كومة من الأخشاب الضخمة داخل المدفأة الحجرية العتيقة، يتصاعد دخانها الأسود يتلوى في حلقات ضخمة أعلى المنزل فيدل على وجود الحياة في المزرعة الساكنة التي غطت أرضها طبقة سميكة من الثلوج البيضاء..

ولولت "خديجة" الأم العجوز وهي تنظر نحو الجريح في حزن قائلة: ما أسوأ حظك في الحياة يا ابنتي.. أننا لم نحضر فرحك مع عمار.. والآن نحضر حزنك معه ومصيبتك به.. خبرينا يا ابنتي ما الذي أصابه؟..

وجمت جميلة قليلاً، وهي تفكر فيما قالته أمها التي ظنت بأن هذا الجريح الغائب عن الوعى هو زوجها عمار.. لكنها سرعان ما التمست لها العذر وقد أدركت بأن أبويها لم يشاهدا عمار من قبل، همت أن تخبرهما بالحقيقة وأن الماثل أمامهما الآن ليس زوجها الراحل عمار وإنما شخص آخر يدعى عمر.. لكن سرعان ما توقفت الكلمات على شفتيها وقد أدركت غرابة وضعها وما به من تداخل وتعقيدات يستدعى شرحها

وقتا قد يطول.. ثم كيف تشرح لأبويها وجود رجل غريب عنها بمنزلها لا تربطها به صلة بل لم تعرفه سوى اليوم، وهل سيتقبل منها الشيخان هذا الشرح والتفسير؟ أم أنها سوف تضيف بذلك إلى موقفها المزيد من التعقيدات التي هي في غنى عنها، على الأقل في هذا الوقت الثمين الذي تأتى فيه سلامة الجريح وحياته في الدرجة الأولى من الأهمية.. فالأنسب والأسلم للجميع إذن أن يبقى الشيخان على اعتقادهما الذي تبادر إليهما الآن، والذي أوحى إليهما بأن الجريح الموجود أمامهما الآن هو زوجها عمار، وربما فيما بعد تشرح لهما الأمر فيقدران ويعذران.. لذا فقد أجابت أمها وهي تستجمع أفكارها قائلة: لقد أصيب في المعركة التي دارت مع الفرنسيين في آفلو، فادعى له بالشفاء يا أمي..

تفحص الشيخ عمران الأب العجوز جسد الجريح المسجى أمامه، ثم هز رأسه بقنوط قائلاً: تشجعي يا ابنتي، فما أظنك إلا قد وصلت به متأخرة جداً، فبعد كل تلك الدماء التي نزفت منه.. فلا أخاله إلا في حالة سيئة..

أجابت "خديجة" أمها وهي ترفع يديها إلى السماء بالرجاء والدعاء قائلة: بل الأمل في الله كبير، فهو الشافي وهو المعافي وهو على كل شيء قدير.. في الصباح آخذ نذوري

وأذهب لزيارة سيدى بوزيد، وهناك أوقد شمعة وأصلي وأدعو للجريح بالشفاء..

لكن جميلة لم تركن لحظة واحدة إلى اليأس، بل ذهبت إلى الجريح وهي تستجمع شجاعتها وقد داخلها الأمل وعاودها النشاط، فغيرت ضماداته التي اتسخت وتلطخت بالدماء التي نزفت حديثا من الجروح التي بدأت في التهتك والتقيح بفعل اهتزازات الرحلة الطويلة، ثم ما لبثت أن تفقدت جرح الرأس الغائر حيث طهرته بالمحاليل وشدته بالأربطة النظيفة، ثم عمدت إلى معداتها الطبية التي إستحضرتها معها، حيث أخرجت من بينها حقنة كبيرة طهرتها بالنار والماء المغلي، ثم ملأتها بسائل من محلول الجلوكوز وبحثت طويلا في ذراع الجريح الذي بدأ يفقد الحياة حتى اهتدت إلى مكان الوريد، فحقنت السائل بداخله ببطء، ومازال السائل يسرى بداخل الجسد الهامد وهي تراقب خلجات وجهه التي استجابت سريعا لمفعول الجلوكوز فاستعادت بعض إمارات الحياة، وقد بدأ اللون الأصفر يزايلها تدريجياً، إلى أن انتهت من الحقن فسحبت الإبرة من ذراع الجريح.. ثم بدأت عملية التدليك لأطراف الجريح وأصابعه التي كادت أن تتجمد من شدة البرد، ثم غطته بالأغطية الصوفية الثقيلة، وزادت الحطب الجاف

داخل النار حتى توهجت وأشتد أوارها.. ثم جلست مقابل الجريح في ترقب..

مر يومان منذ أن وصلت جميلة بجريحها إلى المزرعة، والجريح مازال في غيبوبته دون تحسن كبير.. لكن جميلة لم تكف عن مراقبته والعناية به لحظة واحدة، استخدمت كل ذكاءها وخبرتها الطبية التي اكتسبتها أثناء اشتغالها بالتمريض في العناية به.. وسهرت بجوار فراشه ليل نهار في سباق مع الزمن لانتزاعه من بين براثن الموت الذي ما فتئ يحوم حوله في كل لحظة تغفل فيها أو تنام.. ولكم أشفقت عليها أمها من هذا العناء والسهر الطويل الذي وصل إلى حد الإعياء البادي على محياها الشاحب، وكم عرضت عليها أمها أن تقوم بالعناية به نيابة عنها ريثما تنال حقها من الراحة والنوم، لكن جميلة رفضت أن يقوم أحد مكانها برعاية الجريح الذي وضعته نصب عينيها، كأنما تخشى أن هي التفتت عنه لحظة واحدة أن يخطفه الموت من بين يديها.. أما أبوها الشيخ عمران فقد ساهم بما في علمه من خبرة طبية بالأعشاب الجبلية التي استخدم منقوعها لعلاج الجروح التي سرعان ما استجابت لها وزايلها الورم والتهرؤ والإنتفاخ.. وبرغم ذلك كله فلقد استمرت الغيبوبة التي لم يكن يعرف لها معنى أو سبب معلوم..

في الهزيع الأخير من الليل، بعد أن استنفذت جميلة كل وسائل علاجها وعنايتها بالجريح، ركعت بجوار فراشه تتأمله في صمت وقد ساءت حالته فشحب وجهه وتشققت شفتاه وتجعد جلده وساخ كأنما هو لعجوز طاعن في السن.. أغمضت جميلة عينيها واسترسلت في دعاء خاشع لله، تدعوه بحرارة كما لم تدعه من قبل وقد سالت دموعها أن ينقذ لها هذا الغريب، وأن يهب لها حياته هدية وغنيمة..

فكأنما استحال هذا الغريب في لحظة هدفاً لاستمرارها في الحياة التي كانت قد زهدتها منذ حين، وتبدت معركتها لاسترداده رمزاً لكل المعارك المقدسة، بعد أن خسرت كل معاركها الواحدة تلو الأخرى، ولم يعد باقٍ منها سوى ذلك الشعاع الخافت والضوء الضعيف لذبالة ما فتئت تقاوم في وهن عوامل الفناء..

كانت تشعر بالجريح يجاهد أيضاً، برغم بعده عنها في عالمه السحيق، كانت هناك لغة غير منظورة يتبادلانها سوياً، يبلغها بأنه يفهم ويعي ويشكرها على عنايتها به، وأنه لذلك لن يخيب أملها فيه، بل سيقاوم ويتعافى ويعوضها خيرا عن كل المشقة والعناء..

إن الإنسان حينما يفقد الأمل في عالم الماديات، وينغلق أمامه طريق الواقع، فإنه غالبا ما يعبر من خلاله إلى عالم

الأمل عبر مسالك الرجاء ومسارب التمني.. فراحت في إغفاءتها ترى عالماً نضراً أزهرت أشجاره وتحققت أمانيه..

قرب الفجر.. أفاقت فزعة من أحلامها أثر حركة تبنيتها عن الجريح إيذاناً بانتهاء غيبوبته وعودته إلى عالم الموجودات.. داخلتها فرحة طاغية، كادت أن تصيح مهللة فتوقظ أبويها ليشاركانها فرحة الانتصار، لكنها سرعان ما تمالكت مشاعرها وأسرعت تتفقد الجريح الذي بدأ يختلج ويحرك جسده في حركات غير إرادية كأنما مازال يهرب من هول مفجع يدفعه عنه إلى بعيد.. فأسرعت إليه تربت عليه وتهدئ من روعه بكلماتها الهادئة وصوتها الحنون وهي تحكم حوله الغطاء الذي أنزاح عنه أثناء حركته، وتمنعه عن إتيان حركات ربما قد تؤذيه أو تنكئ جروحه، وهي ما فتئت تطمئنه بعباراتها الرقيقة حتى هدأ وسكن.. كأنما اطمأن بين يديها الحانيتين واستكان لكلامها الرقيق.. ثم ما لبث أن فتح عينيه ببطيء ودار بهما في فراغ الغرفة يتفحص ما حوله من موجودات، إلى أن وقعت أنظاره عليها فتأملها ملياً قبل أن يغمض عينيه ويذهب مرة أخرى في إغفاءته البعيدة.. لكنها أسرعت تهزه برفق، فهي لن تسمح له أن يغيب عنها بهذه السهولة.. بل أسرعت تضمه إلى صدرها وفتحت فاه رغما عنه وحاولت بكل ما لديها من مهارة أن تصب قليلاً من الحساء الدافئ في جوفه

الذي بقى أياما بلا طعام.. لكن معظم الحساء أنسكب خارج فمه وعلى ملابسه، ومع ذلك فقد أمكن لجزء منه أن ينفذ إلى داخله مما أدخل إلى نفسها الارتياح، فتركته قبل أن يغص بالحساء، وأعادت رأسه إلى مكانها على الوسادة، وتركته يستكمل رقاده في هدوء..

في حركتها الدائمة الدائبة داخل الحجرة.. راقبت جميلة التحسن الكبير الذي طرأ على الجريح الذي كثرت نوبات إفاقته وتطلعه إلى المكان حوله وهو يرقبها بعينين ذاهلتين متسائلتين، كأنما تسألانها مئات الأسئلة التي توقعتها واحتاطت لها، فبادرته بإجابات سريعة عما توقعه، قائلة: لقد جرحت جرحاً بليغاً، وبقيت عدة أيام فاقدا للوعى.. لكنك الآن أحسن حالاً.. وتقترب من الشفاء..

لكن الجريح مع ذلك ظل على صمته دون كلام، يرقب المرئيات حوله وهو يجهد ذاكرته ليربط حاضره بماضيه وقد بدت في عينيه إمارات الحيرة والقلق، نسيت جميلة أنه يراها ويرى المكان حوله للمرة الأولى في حياته، فأجابته على التساؤلات البادية في عينيه بصوتها الناعم قائلة: أنت الآن معي في أمان.. ونحن في مزرعتنا بالقرب من قرية "أولاد سيدى بوزيد"..

أغمض الجريح عينيه وراح في إغفاءة جديدة.. وقد علت وجهه إمارات الهدوء والطمأنينة.. كأنما قد قنع بما زودته به جميلة من معلومات.. أو كأنما قد وجد فيها الأجوبة على الكثير من التساؤلات..

مع الصباح المشرق الجميل دخل الشيخ عمران وزوجته خديجة إلى حجرة جميلة للاطمئنان عليها وعلى زوجها الجريح كدأبهما كل صباح، وداخلهما السرور للتحسن الذي طرأ على حالته فعلت الفرحة أسارير وجهيهما وحمدا الله على عودته للحياة بعد أن عز الرجاء فيه.

تكلمت "خديجة" وهي تجفف دموع الفرحة في عينيها قائلة: تلك بركة سيدى بوزيد، فلقد زرته بالأمس.. ودعوت الله كثيراً وأنا في حضرة مقامه الطاهر أن يشفي عمار.. ولقد استجاب الله.. فالحمد والشكر له.. وفي زيارتي القادمة سوف أذبح خروفاً على باب الضريح وأتصدق به على الفقراء احتفالاً بشفاء عمار.

حمدت جميلة الله في داخلها سراً، الذي جعل اسم "عمر" مقاربا لإسم "عمار" فذلك سوف يسهل الأمور كثيراً، بل إن نطق الإسمين باللهجة الجزائرية يكاد يكون واحداً، لذا فلن يلحظ عمر الاختلاف الطفيف في نطق اسمه.. حتى ولو تنبه إلى ذلك فسوف تشرح له الأمر فيما بعد، وعليها حينئذ أن

توضحه لأبويها الشيخين كذلك، ولابد أن الجميع سوف يفهمون.. أما الآن.. فلتظل الأمور كما هي حتى تطمئن على سلامة الجريح وأنه قد اجتاز مرحلة الخطر بسلام..

الفصل السابـع

عمـار الجـديـد

أفاق عمر على ضوء ذبالة خافتة لمصباح غازي بمنزل ريفي عتيق، وصوت أخشاب تتكسر في المدفأة أثناء احتراقها وتصاعد دخانها إلى أعلى، وأخذ يدير عينيه الكليلتين في أرجاء الحجرة إلى أن استقرتا على وجه ملائكي لامرأة جميلة تغفو على جانب فراشه وقد انتثر شعرها الأشقر الناعم الطويل على كتفيها كسبائك الذهب، حتى لقد ظنها مجرد صورة ممتدة من الصور الغريبة التي اكتظ بها حلمه الطويل، الذي رأى فيه مردة وشياطين وملائكة وأشباح، وأخيراً تلك المرأة الجميلة.. لكن ما لبث أن أنتابه الهلع وهو يحاول أن يحرك جسمه وأعضاءه فإذا بها متصلبة متخشبة وقد فقدت قدرتها على الاستجابة، إلا من آلام وتشنجات هائلة أحسها بأجزاء متفرقة من جسمه تدعوه للصياح والصراخ.. ومع ذلك فقد وجد نفسه غير قادر على الحركة، وغير قادر على التكلم أو الصراخ أيضاً..

لكن حركته الواهنة كانت قد نبهت المرأة الجميلة النائمة على حافة الفراش التي بدا عليها الاهتمام الشديد بحالته حتى لقد تساءل عمن تكون!.. وهي ما فتئت تطمئنه وتهدهده برفق

تناشده أن يهدأ حتى لا يضر نفسه أو ينكئ جروحه النازفة، ومازالت به حتى طمأنته بحديثها اللين إلى وجوده بأمان بين يديها الحانيتين.. إلى أن هدأ واستكان..

في فترات إفاقته المتقطعة التي تكررت بعد ذلك، حاول أن يستجمع أفكاره التي تبعثرت بين مخالب الألم والدوار ليتذكر ما الذي حدث له؟ وأين هو؟ ومن تكون تلك المرأة الجميلة؟.. بل وأكثر من ذلك كله فقد وجد نفسه عاجزا عن معرفة نفسه أو من يكون؟ أليس هذا غريبا حقا؟ ألا يعرف الإنسان نفسه؟ أو يتذكر شيئاً عن ماضيه كأنما قد ولد اللحظة فقط؟.. لكنه ما فتئ يطمئن نفسه، فهو لابد سوف يتذكر عن قريب، حينما يزول الألم ويفارقه الدوار ويصفو عقله فتعود إليه ذاكرته، فيعرف حينئذ ما الذي حدث له وسبب وجوده في هذا المكان.. لكن فهناك تلك المرأة الجميلة التي تحنو عليه وترعاه، لابد أنها تعلم من أمره ما يجهله هو، لذا فقد حاول جاهداً أن يسألها لتفسر له بعضاً من الغموض الذي يحيط به.. أجهد نفسه كثيراً ليكون الكلمات التي أبت أن تخرج من بين شفتيه، كأنما قد فقد حلقه قدرته على الاستجابة لعقله، وكل ما استطاع أن يأتي به هو حشرجة خافتة انطلقت من داخله في وهن وبلا معنى دون أن ينطق خلالها بكلمة واحدة، لكن المرأة الجميلة سرعان ما هبت إليه تمنعه عن الحركة والكلام،

وتطمئنه لعدم أهمية الأمر، وأن كل ما يهم في هذا الوقت، هو ألا يجهد نفسه وأن يهدأ ويستريح..

في الصباح كان لقاءه الأول مع الشيخين العجوزين الذين فرحا بتحسن حالته وعودته إلى الوعى والإدراك، ولقد استطاع أن يدرك من تواجدهما بالمكان أنهما والدي المرأة الجميلة التي ناديا‌ها باسم "جميلة".. ثم ما لبث أن أدرك بأنه ليس أبنهما وإنما هو إنسان غريب عنهما يهتمان به من خلال جميلة، لذا فقد داخله الارتياح لاكتشافه بأن "جميلة" ليست أخته، وتساءل كثيراً عمن تكون بالنسبة له.. ولقد وجد التفسير الوحيد الذي يتماشى مع واقع أمره الآن.. أن تكون زوجته.. فلا شيء يفسر تواجده بينهم واهتمامهم بأمره إلا أن يكون زوجاً لجميلة التي هفا قلبه بحبها منذ أن رآها لأول مرة منذ قليل، والتي ما فتئت تحيطه بكل مظاهر العطف والرعاية..

حينما إكتشفت "جميلة" فقدانه للنطق والتعبير، أصابها الذهول وأعتصرها الألم.. لكنها ما لبثت أن تماسكت وهي تغالب أساها، إلى أن استردت هدوءها المعتاد فعادت تخاطبه في مودة وتطمئنه إلى أنه ما يلبث أن يستعيد قدرته على الكلام حينما تخف آلامه وتندمل جروحه.. وإلى أن يحين ذلك الوقت فيمكنه أن يعبر لها بأي وسيلة عما يطلب أو يريد وسوف تجيبه إليه دون أن يجهد نفسه بالمزيد من الانفعالات..

كان التفاهم بالإشارة صعباً ومهيناً، خاصةً وهو لا يكاد يقوى على تحريك أطرافه التي خدرها الألم وعاقتها الأربطة.. لذا فقد أمدته جميلة بورقة وقلم ليدون عليها ما يريد، فخط عليها بيد مهتزة سؤاله الأول لها: من أنا؟..

أجابته جميلة على سؤاله بمزيد من الهلع والدموع، وهي تكتشف عدم قدرته على التذكر مضافة إلى عدم قدرته على الكلام والتعبير أيضاً.. وسرعان ما هب والدي جميلة لمواساتها والتخفيف عنها..

حينما تبين الشيخ عمران والد جميلة حالته من فقدان الذاكرة، أجابه على سؤاله بأسى قائلاً:

أنت "عمار" يا بني.. زوج ابنتي جميلة.. ولقد كانت إصابتك بالغة.. ولكن تشجع فعن قريب تتماثل للشفاء..

أغمض الجريح عينيه على الإجابة التي طمأنته قليلاً.. فعلى الأقل لقد عرف أنه: عمار.. زوج المرأة الجميلة.. التي تدعى جميلة.. وأن هذين الشيخين الطيبين هما حمواه.. وأنه مصاب.. لكنه بين أيد حانية أمينة.. وأن حالته تتحسن، وعن قريب يتماثل للشفاء..

لكنه بدأ يلاحظ تدريجياً تلك اللهجة الغريبة المحتوية على بعض الكلمات الغير مفهومة لديه والتي يتكلم بها الجميع حوله.. أيكون التفسير لذلك أنه غريب عنهم وله لهجة

مغايرة؟! أم تكون أصابته قد أفقدته – مع النطق والذاكرة – الفهم لتلك الكلمات الغريبة أيضاً.. حتى ليخيل إليه أنه غريب عنهم؟.. على الأقل فهناك بعض الحقائق الثابتة التي استطاع أن يعرفها عن نفسه، أولها وأهمها أن اسمه "عمار".. ولكن من يكون "عمار" هذا؟ .. الظاهر – مما يبدو حوله الآن – أنه فلاح فقير.. لكنه لاشك قد نال قدراً من التعليم لأنه على الأقل يستطع أن يقرأ ويكتب.. ولكن لماذا تبدو هيئة المرأة الجميلة وملابسها مختلفة عن العجوزين والمكان.. تألقها ويداها الرقيقتان تنبآن أنها من جنس مختلف، مع علمها الواسع لا يمكن أن تكون فلاحة بسيطة بحال من الأحوال..

أراد أن يسأل المزيد من الأسئلة، عن سبب إصابته ولماذا هو هنا؟.. لكن المرأة الجميلة أسكتته بضمة حانية من ذراعيها، وهي تسوى فراشه وتحكم حوله الغطاء، طلبت منه أن يخلد إلى الصمت وأن يستريح..

أفاق الجريح بعد فترة لا يعرف مداها.. على صوت خرير الماء الساخن في إناء كبير بجواره، وجميلة تخلع عنه ملابسه التي اتسخت إستعداداً للإستحمام .. ثم سرعان ما خالط جسده الماء الدافئ والصابون المنعش، أحسهما بأماكن متفرقة بجسده، وهي تحاذر ألا تمس بهما الجروح، وهي ما فتئت تقلبه في شتى الاتجاهات لتصل إلى كل أجزاء جسمه لتنال

حظها من النظافة والماء المنعش، وهو في ضعفه واستكانته يحتويه إحساس غامر بالعجز والمهانة دون أن يملك دفعه أو حتى مجرد الاعتراض.. فأي مهانة يمكن أن يستشعرها رجل أكثر من ذلك أمام امرأة – حتى ولو كانت زوجته – وهو عار عاجز خائر القوى، تقلبه في شتى الاتجاهات وهو بلا حول أو قوة، كأنما هو دمية أو طفل صغير لا يملك من أمر نفسه شيئاً.. لكنها بأدبها الجم.. بيديها المدربتين وأسلوبها الهادئ اللطيف، كانت قد أزالت حرجه وهدأت خواطره وطردت عنه هواجسه الشريرة، وهي ما فتئت تهون عليه الأمر وتمنيه بالشفاء القريب، حتى بدأ يسترخي ويستجيب لتأثير الماء الساخن الذي دغدغ أعصابه المشدودة، فأحس بالدفء والحنان، وهي تدثره بملابسه الجديدة النظيفة، أخذت معها ملابسه القديمة المتسخة، ثم دثرته في سريره وأحكمت حوله الغطاء، وقبل انصرافها خاطبته قائلة:

الآن سوف أتركك تستريح.. الماء بجوار فراشك لتشرب حينما تريد ذلك.. وإذا ما أعوزك شيء فما عليك إلا أن تقرع هذا الجرس الصغير بجوار فراشك فآتى لمساعدتك، والآن.. أتركك مع أحلامك السعيدة حتى الصباح..

بقي الجريح فترة بعد انصراف جميلة يحملق في السقف الخشبي، وهو يفكر في غرابة وضعه وما يمر من أحداث،

يشعر بأنه مازال نائماً يعانى من تأثير كابوس مزعج، يرى نفسه فيه جريحاً وأنه غير قادر على الحركة.. وغير قادر على الكلام.. وغير قادر على التذكر.. وإنه عن قريب يستيقظ من هذا الحلم المزعج، فيرى نفسه صحيحاً معافى ويعرف حقيقة نفسه ومن يكون.. لكن حواسه كلها تدله على العكس، فها هو ذا مستيقظ مدرك ما حوله بكافة حواسه.. لكنه عاجز عن التذكر أو الحركة أو الكلام، لقد أبلغته المرأة الجميلة – التي هي زوجته أو المرجح أنها كذلك – بأن ما يعانيه ناتج من تأثير الإصابة التي حدثت برأسه فأثرت على مراكز التذكر والكلام داخل عقله، فيكون شأنه في ذلك شأن الطفل الصغير الذي ولد اليوم فقط، يرى كل شيء من جديد، ويعيش حياة جديدة، أجمل ما فيها هي تلك المرأة الجميلة التي أشعرته بحنانها أنها الزوجة والأم معا.. وأنها الحياة كذلك، ومن أجلها يجب أن يقاوم وأن يشفى وأن يعيش.. ما عليه إلا أن يخلد إلى النوم الآن استجابة لتعليمات المرأة الجميلة، حتى يعطى جسده وعقله الفرصة لإلتآم الجروح والشفاء..

كانت صدمة جميلة قاسية حينما اكتشفت عدم مقدرة "عمر" على الكلام، ثم ما لبثت أن اكتشفت عدم مقدرته على التذكر أيضاً، كان كل ما يستطيعه هو إطلاق بعض الأصوات من حنجرته في شبه حشرجة، يجد المشقة في توجيهها ويفشل في

فرض سيطرته عليها، كأنما طفل صغير مازال لم يتعلم الكلام بعد.. وتساءلت في هلع عما يمكن أن يكون قد حدث له نتيجة لجرحه الغائر في رأسه، ومدى الأذى الذي يمكن أن يكون قد لحق بمراكز التكلم والذاكرة في عقله.. لكن من يدري فقد يكون ما حدث مجرد مؤثر وقتي نتيجة للضغوط النفسية والآلام الجسدية التي لابد عاناها قبل وإثناء وبعد أصابته، وأنها ما تلبث أن تفارقه فيعود كما قد كان قادرا على التذكر والكلام؟.. إسترجعت في ذاكرتها التوجيهات التي تلقتها في معالجة الأمراض العصبية والنفسية، وأهمها الثبات في مواجهة الحالة وعدم إظهار الهلع أو الخوف أمام المريض حتى يظل على هدوئه بعيدا عن الإثارة والإنفعالات مما يعطيه فرصة أكبر في الشفاء، لذا فقد قررت أن تبدأ معه من حيث انتهى، والواضح أن عقله الباطن قد أختار إنهاء حالة الحرب الدائرة في البلاد ليجنبه مؤقتا ويلاتها التي تفوق قدرته على التحمل، وهذا من لطف الله ورحمته بالعباد، إذ أن في داخل كل منا صمام أمن يغلق كل مدركات الحس الخارجي إذا ما تعرض الكيان البشرى للتخريب والدمار.. لذا فقد استبعدت أية إشارة للحرب في حديثها معه، وكذلك فعل أبواها، وحمدا لله على تلك الطبيعة الساكنة في ذلك المكان البعيد المنعزل عن العمليات العسكرية، حيث لا تكاد تسمع به سوى زقزقة العصافير وثغاء

الشياه.. وأقصى جلبة هي التي يحدثها "الباشا" كلبهم الوفي الأمين، في قيادته لقطيع الخراف ريثما تدخل حظائرها قبل الليل..

كانت جميلة قد عقدت العزم منذ اللحظة التي أحضرت فيها "عمر" وهو جريح إلى المزرعة، أن تصارح أبويها بحقيقة أمره، ثم تصارح عمر نفسه بعد أن يسترد وعيه بما حدث له وعن دورها في إنقاذه.. فلا شيء في هذا كله يستدعى الإخفاء، بل أن ما قامت به هو عمل وطني مشرف ونبيل يتمنى كل وطني مخلص على أرض الجزائر أن يقوم به، إكراماً للثورة ولعبدالناصر.. لكن التطورات السريعة التي حدثت بعد ذلك شغلتها مؤقتاً عن الشرح والتفسير، وجعلت إنقاذ حياة الجريح والحرص على سلامته يأتيان في المقام الأول.. ثم ما لبثت أن اتضحت حالة الجريح من فقدان النطق وعدم القدرة على التذكر، فكان في ذلك القضاء التام على فكرة الشرح والتفسير من أساسها، فلمن سوف تشرح أو تفسر؟ والجريح لا يكاد يعلم شيئاً عن نفسه أو عما يدور حوله من أحداث؟ أم تفسر لأبويها الشيخين الذين اعتقدا سلفاً بأن الجريح هو زوجها عمار، وفي المزيد من الشرح لهما المزيد من التعقيدات؟.. فالأسلم للجميع، أن يظل الحال على ما هو عليه، ففي هذا القدر ضمان السلامة للجميع، خاصة سر عمر الذي يجب ألا يعلمه

إنسان.. على الأقل في تلك المرحلة الحرجة التي يمر بها المريض، مع حالة الحرب في البلاد.. لذا فالأجدى أن تركز جهودها في العناية بعمر، وتحاول إخراجه من حالة فقدان الذاكرة والكلام بعد أن أوشكت جروحه على الإندمال.. لكنها سرعان ما اكتشفت مدى عجزها وقصور معلوماتها عن إدراك حالته الجديدة على وجه التحديد، فالمعلومات التي تلقتها أثناء تدريبها على التمريض هي معلومات محددة وقاصرة بالنظر لقصر المدة وقلة الإمكانيات، لذا فقد شرعت على الفور بالكتابة لأستاذها الدكتور/ سرباح (الذي تتلمذت على يديه) على عنوانه الأخير حيث يعمل بمستشفى تيارت وشرحت له حالة عمر، وطلبت منه الرأي وطريقة العلاج..

بعد أيام وصلها رد الدكتور/ سرباح متضمنا رأيه في الحالة مع وصفه للعلاج الذي أوصى بأن يستمر بلا انفعالات أو إثارة.. وافقها بداية على أن تجنب المريض كل ما يتعلق بحالة الحرب أو ماضيه، وأنه وقد تأثرت مراكز الكلام والذاكرة في عقله أشبه بالطفل الوليد الذي يتعلم كل شيء من حوله لأول مرة.. لذا فإن عليها أن توفر لعقله الظروف المناسبة والوقت الكافي ليبني أنسجته الجديدة بدلاً من تلك التي أُتلفت، وهو على ثقة – وما لم يكن التلف خطيراً – من أن المريض سوف يتمكن من إستعادة مقدرته على التذكر والكلام في وقت

قريب.. ثم طلب منها أن تبلغه بتطورات الحالة حتى يمدها بما يلزم من نصائح وإرشادات..

بعد أيام تحسنت جروح "عمار"، فأمكن له الحركة والتنقل داخل المنزل وفي فناء الدار، ثم مضى مع الوقت يوسع من مجال حركته وقد غمرته فرحة النجاح، هام مع "الباشا" في الأنحاء القريبة، يعانق بشوق حياته الجديدة، ويتشرب على مهل طلاوة اللغة الجديدة التي تبادلها في صمت مع حيوانات الحقل وطيور السماء، فكأنما قد خطا بقدميه إلى عالم عجيب كل ما فيه ناطق بالسحر والجمال، وأجمل ما فيه.. تلك المرأة الجميلة التي ما فتئت ترعاه وتتولاه بكل المحبة والحنان، وهي تخطو به خطواته الحثيثة نحو الشفاء.

الفصل الثامن

الباشــا

بعد أن استعاد الفرنسيون مدينة "آفلو" من جيش الثوار، بدأت على الفور حملة انتقامهم الوحشية من السكان العزل من السلاح، كأنما يحملونهم وحدهم وزر فشلهم واندحارهم المهين أمام أعداد بسيطة من المجاهدين الشجعان.. لذا فقد تعددت حملات تفتيشهم في المنازل والطرقات بحثا عن الأسلحة والثوار، فأضطهد البعض وأعدم الآخرون لعلاقاتهم المزعومة بالمجاهدين، وعانى السكان المسالمون من بربرية الجيش الفرنسي التي فاقت فظائع النازيين، حيث عمد جيش الاحتلال إلى انتهاج أساليب تعذيب وحشى بالكلاب والكي بالكهرباء للحصول منهم على معلومات عن أماكن تواجد الفدائيين بالمدينة أو خارجها.

وبرغم علم الفرنسيين بالصلة الوثيقة التي ربطت ما بين المجاهدين والشريف بن أحمد، إلا أنهم ظلوا مع ذلك على دأبهم السابق من تكريمهم له دون أن يقتربوا منه أو يمسوه بسوء، لعلمهم بأنه الرمز الذي تمحورت حوله الثورة، وفي مساسهم به تأليب للثوار، وفتح لأبواب جديدة من الكفاح المسلح المستميت ضد فرنسا، مع مزيد من الكراهية والحقد

عليها، في الوقت الذي حاولت القيادة الفرنسية فيه أن تستميل إليها كل القوى المؤيدة لها، لتكريس الاحتلال ولضمان تواجد أطول بالبلاد.. لكنهم مع ذلك عمدوا إلى تحديد إقامة ابن أحمد داخل قصره وأحاطوه بالأعين والجواسيس لمراقبة حركاته وسكناته، والرجل في شموخه لا يأبه بهم أو يلتفت إليهم، بل ظل كدأبه عطوفاً محباً للأهالي، دائم السعي إليهم للاطمئنان عليهم والسؤال عن أحوالهم لذا فقد تواصل حبهم له والتفافهم حوله.. بل كثيراً ما توجه إلى قصره الرعاة البسطاء حاملين إليه من خرافهم ونتاج أغنامهم الهدايا القيمة ملتمسين بها رضائه وبركته، وفي مقابل ذلك فقد ظل المدد الروحي والعون المعنوي الذي قدمه إليهم شريفهم، أغلى لديهم من كل كنوز الأرض ونعيم الحياة..

وبرغم ذلك الحصار والتضييق اللذان فرضتهما فرنسا على الشريف بن أحمد، فلم تنقطع علاقته بالمجاهدين، بل ظل على علاقته السرية معهم، آمراً أتباعه بالسعي إليهم والالتحام بهم، وتلقي أوامرهم لتدعيم حركة المقاومة السرية داخل المدينة التي نشطت واستعادت تنظيم صفوفها مرة أخرى لمزيد من المعارك والنصر.

كذلك كان دأب زوجته الأميرة عائشة التي لم تكن لتقل عنه حباً في الخير وسعياً للكفاح والجهاد في سبيل الله، حيث

نجحت في إعادة التنظيم للحركة النسائية داخل المدينة، بكل ما تفرع عنها من أعمال التمريض وعلاج الجرحى بالمستشفيات، انتهاء إلى التدريب الخفي على استعمال السلاح والمقاومة السرية للاحتلال.

كثيراً ما استمدت الأميرة عائشة من محبة مواطنيها لها مدداً لمزيد من التألق والإبداع لإبراز طاقاتها المتجددة، بالقدر الذي ساعدها على اجتياز صدمة الهزيمة، فراحت تجبر النفوس الكسيرة، وتواسى القلوب المصدومة، وتشد من الأيادي المرتخية، وهي تقطع الصمت بملاحم البطولة واسترجاع سير الأجداد العظماء أمثال الأمير عبدالقادر والمقراني وأبو زيد الهلالي، مما ألهب حماس الأبطال الذين التفوا حولها وحفزتهم للمزيد من الأمل والكفاح..

لكن أشد ما آلم الأميرة عائشة، قد كان ذلك الخبر المشئوم الذي وصلها عن هدم منزل ربيبتها جميلة مع ضياع كل أثر لها، فلا هي بين الأحياء أو الأموات، لكنها مع ذلك ظلت تغالب شجنها وراحت تتمسك بإحساس قوي ما فتئ يراودها مؤكداً لها بأن جميلة مازالت على قيد الحياة، وأنها ما تلبث أن تلتقى بها سالمة معافية عن قريب.

من خلال ألمه الممض، وحزنه على المصاب الأليم، راح الأمير الشريف بن أحمد يتابع بحثه عن جميلة ضمن ذلك

السباق المحموم والبحث المستميت من كلا الفرنسيين والمجاهدين على حد سواء للوصول إلى جريحها الخطير.. وبرغم استمرار حملات البحث والتفتيش وشمولها لكل النواحي والأرجاء، إلا أنها قد باءت جميعها بالفشل، وأخفقت كل المساعي وعجزت كل الوسائل عن الوصول إلى أنباء عنها، إلى أن تناقص مع الوقت الأمل في تواجدها بين الأحياء، وترجح موتها بجريحها ضمن الأعداد الهائلة من الموتى المجهولين الذين قتلوا في المعارك، وغيبتهم الأرض تحت أنقاضها.

كان قد مر شهر.. حينما بدأت الثلوج التي غطت مزرعة جميلة في الذوبان والتسرب إلى نهر سيبيجاج الذي عاود تدفقه مرة أخرى من جديد، معلناً عن ربيع ما فتئ يتقدم على استحياء وقد قفزت أعواده الخضراء إلى أعلى في محاولة منها لتطول الشمس ولتعانق السماء التي قل سحابها وبرق أديمها وأمتد دفؤها، معلنة بذلك عن انحسار موجة الشتاء والثلوج العارمة، كانت قد التأمت خلالها جروح الغريب لتتركه على أعتاب الربيع سليما معافي، إلا من هزال ألم به نتيجة للمعيشة الجافة التي ما فتئ يحياها في الجبال.

تحسنت حالة الغريب وإلتأمت جروحه، وأنطلق مع كلبه "الباشا" الأمين يجوب الفيافي والقفار المحيطة بالمكان في

تتبعه للأغنام أثناء رعيها، وبدأت العافية تعرف طريقها إلى أعضائه الذاوية فاستردت نضارتها مع الربيع الوليد.. لكنه مع ذلك ظل على الحالة التي وجد نفسه عليها من فقدان للنطق والذاكرة.. عبثاً أجهد نفسه لمعرفة من يكون، أو ليتذكر الأحداث السابقة على إصابته الأخيرة، لكنه مع ذلك ظل ناسيا.. بل أسوأ ما في الأمر، تلك الأحلام المزعجة التي ما فتئت تنتابه في منامه المتقطع الغير مستقر، ليرى من خلالها آلافاً من البشر الغير مميزين يتقدمون نحوه وقد فغروا أفواههم وأبرزوا مخالبهم وأنيابهم كأنما يودون إفتراسه، فيهب من نومه صارخاً متوجعاً، ليجد جميلة – ملاكه الحارس – بين يديه، تبعد عنه الأشباح وتجذبه بعيدا عن المخالب والأنياب، ما تفتأ تسكن من ورعه وتهدئ من مخاوفه، إلى أن يهدأ ويستكين.

كثيراً ما حلت لغة العيون بينهما محل لغة الحديث والكلام، كانت تتأمل عينيه مليا ثم تجيبه عن السؤال الذي أراد أن يسأله دون أن تنطق به شفتاه كأنما تقرأ داخله في كتاب مفتوح، وكانت إجاباتها إليه بلطف وبساطة أشبه بالنسمة الرطيبة في ليالي الصيف، بالقدر الذي يبدد عنه الحيرة ويذهب عنه اللوعة والضياع، لكنه شعر بها في أحيان كثيرة بعيدة عميقة تخفي عنه الكثير، لكنها أبداً لا يمكن أن تكون شريرة، فهو لم يقرأ في عينيها سوى الحب والحنان.. أتراها

تخفي عنه الجزء السيئ من مأساته لتجنبه صدمته به شفقة عليه؟.. إن كان ذلك حقيقة؟ فما الذي في ماضيه بمثل ذلك العنف والجبروت ما يجعله يهرب منه فينساه ويجعلها تشفق عليه من مواجهته؟ .. أهو أمر شائن مهين؟ أم مجرد أحداث مصيرية قدرية لا دخل لإرادته في صنعها أو دفعها؟.. لكنه أحس في نفسه أنه لا يمكن أن يكون في ماضيه شريراً طاغي الفساد، فالأشرار لا يحظون من الملائكة بمثل ذلك الحب الذي ما فتئ يطالعه في عينيها الطاهرتين.. لكنه مع ذلك يريد أن يعرف كل الحقائق عن ماضيه مهما كانت مفزعة أو قاسية، خاصة تلك التي سببت له كل تلك الجروح والآلام، لطالما سألها عن كيفية إصابته وعن السبب فيها؟ لكنها أبداً سكتت عن الجواب، أجابته بأشياء أخرى أشد بهجة وإشراقاً.. حتى وهو يحاصرها بالسؤال، أرجأته لما بعد، وأنه سوف يجد الإجابة علي أسئلته وحده وبطريقة تلقائية حينما تصبح ذاكرته قادرة على التذكر، وأن في عدم تذكره لتلك الأحداث الدامية نعمة ورحمة.. لذا فكثيراً ما كانت تجيبه على تساؤلاته وهي تضحك قائلة: إن عقلك الباطن أكثر حكمة منك، فهو لم يحجب عنك تلك المعلومات إلا لأنه لا يريدك أن تتذكرها الآن وأنت بمثل ذلك الضعف والوهن، لذا فعليك أن تسعى جاهدا لاسترداد عافيتك وأن تلتهم كل ما يقدم إليك من طعام..

بل إنه كثيراً ما كان يلمح في عينيها الحيرة والشك، وهو يسألها أسئلة معينة تتعلق بأحوال ماضيه: من هو؟.. ماذا كان يعمل في ماضيه؟.. أين كان من قبل وكيف حضر إلى هنا؟.. لكنها كانت تجيبه بمزيد من الشك وعدم اليقين، حتى لقد أنطبع لديه إحساس مع الوقت أنها أشد جهلاً منه بماضيه، وأنها غريبة عنه لا يمكن أن تكون زوجته أو قريبته بحال من الأحوال، كل شيء هنا ينطق بأنه غريب عن المكان، برغم الألفة التي ربطته سريعا بكل ما فيه من نبات وإنسان وحيوان، خاصة ذلك الكلب الشجاع الذي رأى في جسارته ما حفزه للبحث في ماضيه عن جسارة مماثلة، فكأنما قد رأى في ذلك الكلب صورة ماضيه بكل ما قد حوى من عنف وتوحش وإقدام.. رد فعل "الباشا" السريع العنيف أمام المؤثرات غالباً ما كان يجد له صدى مماثلا مع سرعة رد فعله على أتفه المؤثرات المحيطة به، أقل حركة لطائر عابر أو خربشة لحيوان مذعور كانت كفيلة بأن تنبهه من مرقده ليرهف حواسه ويتنصت إليها في اهتمام، إلى أن تصرفه جميلة عنها بابتسامة مهدئة تبلغه بها حبها إياه وأن لا شيء هناك يهم سواها.. فيهدأ ويستكين.. وكثيراً ما تساءل في داخله عن سر ذلك التماثل والتشابه بينه وبين الباشا في الاستجابة التلقائية والسريعة للمؤثرات.. التفسير الوحيد المنطقي لذلك – لكنه

المضحك أيضاً – إنه قد كان في ماضي حياته كلباً، نزل في معركة مع الذئاب الضارية حتى أثخنته بالجراح، وألقته وحيداً في الفلاة ما بين الموت والحياة، إلى أن قابلته جنية فاتنة، لابد أنها جميلة، فعطفت عليه وسحرته إلى صورة إنسان، حتى يمكنها أن تعتني به وترعاه..

ضحكت جميلة كثيراً حينما أبلغها – كدأبه – كتابة بفكرة الكلب التي راودته عن ماضيه.. أجابته ضاحكة: أظنك اقتربت كثيراً من الحقيقة، لابد أن هناك تشابها بين ما تراه في "الباشا" وبين ماضيك، عليك أن تبحث عنه وتصل إليه، وبقليل من التفكير سوف تهتدي إلى الحقيقة.. لكن الشيء الذي أنا متأكدة منه أنني لست بجنية، وأنك لم تكن في يوم ما غير ما أنت عليه الآن من جمال ورقة وذكاء..

لكن سؤالا آخر ظل دائما حبيس صدره لا يجرؤ على توجيهه أو الإفصاح عنه لما في إجابته من خيبة وإخفاق.. سؤال يتعلق بعلاقتهما معا.. لقد صدق لأول وهلة بعد إفاقته إنها زوجته، وكان سعيداً لهذا الاكتشاف، خاصة بعد أن أكد له أبواها الشيخان تلك الحقيقة التي أجازتها جميلة في حينها ولم تشأ أن تنفيها أو تعترض عليها، لم تكن المشكلة في بدايتها ظاهرة أو محل تفكير، فبتأثير وهنه وجراحه النازفة لم يكن يتطلع إليها كامرأة فاتنة بقدر ما كانت لديه الملاك

الحارس الذي يعتنى به ويرعاه.. لكن المشكلة بدأت تظهر مع تماثله للشفاء، وهي تتباعد عنه تدريجياً بلا معنى ظاهر في الوقت الذي كان يفترض فيه العكس تماماً، خاصة وأن نظرات المحبة في عينيها هي نفس النظرات، إن لم تزدد توهجاً واشتعالاً.. لكن أشياء أخرى في تصرفاتها أجابته تدريجياً على السؤال الذي عجز عن أن يسألها إياه.. نظراتها الحذرة تجاهه وهي تلمحه في تماثله للشفاء يطيل النظر إلى مفاتنها التي تعرت في غفلة عنها، فكانت تجيبه وجنتاها وقد تضرجتا بحمرة الخجل، وهي تضم إليها ثوبها لتخفي ما قد تعرى وهي تشيح ببصرها إلى بعيد حتى لا يلمح ما اعتراها من إضطراب وارتباك.. برغم حرصها الدائم على رقتها الظاهرة، تلطفها معه واستسلامها له، خضوعها المطلق لأوامره ونواهيه، إلا أنها مع ذلك حافظت على مسافة من البعد فصلت دائما فيما بينهما، كل هذا تركه بعد حين وجهاً لوجه أمام الحقيقة السافرة التي تبدت أمام ناظريه بكل بهاء وجلال، وهي أنها برغم شجاعتها الظاهرة.. حنوها عليه واهتمامها بأمره، فهي مع ذلك كله.. ليست زوجته.

ولكم آلمته تلك الحقيقة القاسية، حتى لقد تمنى في أحيان كثيرة لو أنه كالطفل لم يبلغ الإدراك بعد، ليظل في ضعفه أقرب إلى أحضانها قريبا من صدرها الذي طالما ضمه إليه في

وهنه ورعاه.. لكنه الآن قد شب ونما، وها هي الحقيقة تتجلى أمام عينيه ولا مهرب منها مهما كانت قاسية، عليه أن يواجهها بشجاعة وأن يعترف بها، بل عليه أن يزداد لها محبة واحتراماً، فهي في شجاعتها مثال نادر للجمال، فأي جمال أعظم من أن تضم امرأة إليها إنسانا غريباً عنها صادفته ولاشك ملقى في الفلاة – كالكلب – نازف الجراح ما بين الموت والحياة، أثر معركته الضارية مع الذئاب الجائعة..

لكنه ظل مع ذلك يسألها في صمته المطبق:

من أنـا؟.. مـن أنت؟؟..

حينما تردد السؤال كثيراً داخل عينيه المتسعتين وقرأته بوضوح، كان لابد لجميلة أن تجيبه عنه إجابة صريحة لتنقل إليه بها جزءاً من حقيقة تواجدهما معا، خاصة بعد أن أصبح في حالة تمكنه من التصدي والمواجهة والإدراك.. أجابته بترفق قائلـة:

أنت غريب أتيت من بعيد.. أنت مصري تدعى "عمر" أحضرك إلى زميلان لك لا أعرفهما، وتركاك عندي وأنت جريح في حالة سيئة.. فأشرفت على العناية بك إلى أن تماثلت للشفاء..

دق قلب عمر بين جوانحه دقات سريعة وجلة، وهو يغمض عينيه ليستوعب في داخله الحقيقة التي جابهته بها جميلة،

والتي أكدت له شكوكه التي طالما راودته عن نفسه وعن جميلة وعن المكان، ومع ذلك فعليه أن ينتبه إلى تلك الحقيقة جيداً، فهي أول شعاع ضوء يصل إلى حجب عقله من خلال سحب الدخان المتراكمة التي حجبت عنه الرؤية.. وهو برغم ضآلته إلا أنه ممتد عبر أزمنة وبلاد، ينبئ بقصة طويلة مفزعة اختلطت في تجاويف عقله المظلمة بالجراح والدماء، لا يعلم حقيقتها الآن.. لكنه يشعر بدُنوها السريع من مداركه مما يجعله على يقين من أنه لابد مدركها عن قريب..

فتح عمر عينيه أخيراً ليطالع بهما وجه جميلة الملائكي الذي ازداد جمالاً وبهاءً لحظة اعترافها الخطير له.. حينما لمحت جميلة في عينيه المزيد من الأسئلة، توالت إجاباتها الهامسة قائلة: أمي وأبى لا يعلمان من أمرك شيئاً.. أنهما يعتقدان أنك زوجي الذي سمعا به ولم يشاهدانه من قبل.. إخفاء أمرك لدواعي أمنك وسلامتك.. هكذا طلب منى رفيقاك اللذان أوصلاك إلى.

تراقصت الدموع في عيني جميلة وهي تجيبه إلى سؤاله التالي قائلة: أراك تتساءل: من هو عمار؟.. الاسم الذي ينادونك به؟.. إنه زوجي السابق الذي مات..

راح عمر يتطلع بعينيه من خلال فراغ النافذة إلى الحقول البعيدة وقد أشاح بوجهه بعيداً عن جميلة، حتى لا ترى ما ألم

به من آلام داهمته بإزاء أنباء جميلة المفزعة التي نقلتها إليه.. أحداث مرت بها فوق الطاقة والاحتمال.. ومع ذلك فقد واجهتها وحدها بكل بسالة، إلى أن غلبتها مشاعر ضعفها الإنساني لحظة اعترافها الأخير له.. فأفلتت من عينيها تلك الدموع الغالية، التي أشعرته بضآلته وتدانيه أمام ما تبدى من شجاعتها وقوة احتمالها..

لكن جميلة.. وقد لحظت ما ألم به من شجن، أسرعت تمد إليه يديها الحانيتين، تضمه إليها وقد اختلطت دموعه بدموعها، ما فتئت تسرى عنه وتهدئ من خواطره.. إلى أن قادته عبر أزقة نفسه ودروبها الملتوية ببراعة إلى شاطئ السلام وبر الأمان..

لكنه برغم ذلك ظل يتساءل في نفسه عن معنى الأحداث التي علمها توا من جميلة، ما معنى تواجده كمصري على أرض بعيدة تبعد عن بلاده آلاف الأميال؟.. ما معنى أن يترك وحيداً في ذلك المكان القحل نازف الجراح ما بين الحياة والموت، دون أن يكون في إمكان أحد مساعدته أو العناية به، سوى ملاكه الحارس جميلة.. التي لولاها لكان الآن في عداد الأموات؟.. ثم لماذا أُحيط تواجده لديها بكل تلك السرية وذلك الكتمان، حتى عن أبويها وأقرب المقربين لها؟.. أفيكون في

تواجده هنا خطر داهم ومصاب أليم؟.. أهو إنسان شرير تورط في جرائم مشينة جعلته طريد العدالة مطلوب للقصاص؟؟..

حينما علمت جميلة بتساؤله الأخير، أجابته وقد رفعت رأسها إلى أعلى في شموخ كأنما تدرأ عنه وعن نفسها تهمة باطلة، أجابته بشمم وإباء قائلة: أنت أشرف من وطأت قدماه أرض الجزائر..

طمأنته إجابتها الحازمة لسلامة موقفه، أطبق عينيه كأنما يبحث عن الراحة بعد مشوار عدو طويل، تلاشت من أمام ناظريه تدريجياً كل الرؤى المفزعة ولم يبق منها سوى ملاك حارس رقيق ما فتئ يعبق أفق سمائه الجرداء بعطر المحبة وأنس الوجود.. بحيث لم يعد يهمه من أمره إلا تواجدها معه وقربها منه.. حينما فتح عينيه أخيراً أجابها من خلال دموعه.. وهو يخط إليها سائلاً:

أتقبلـين الزواج بي؟؟..

تضرجت وجنتاها بحمرة الخجل المحببة لديه، ثم لم تلبث أن أجابته من خلال ابتسامتها الماكرة قائلة: نعم.. بشرط عندي: أن تطلبني أولا من أبويّ..

احتواها بين ذراعيه وهو يكاد يطير بها من الفرح، ما لبث أن أطلقها وهو يخط إليها قائلاً: سوف أطلبك منهما على الفور..

سألته من خلال إبتسامتها الحانية قائلة: كيف؟..

كتب إليها قائلاً: سوف أكتب إليهما..

أجابته بغموض قائلة: أنهما لا يعرفان القراءة أو الكتابة..

كتب إليها وهو يغالب حيرته قائلاً: ما الذي يعنيه ذلك؟؟..

أجابته بحزم وإصرار: يجب أن تتكلم أولاً حتى يمكن لك أن تطلبني منهما وأن يفهماك.

تولى عنها عمر حزيناً كاسف البال، وهو يظنها ترفضه أو تتلاعب بعواطفه، لكنها وقد لمحت ما ألم به من تغير، أسرعت تأخذ رأسه بين كفيها الصغيرين، قبلته بحنان قائلة: لماذا يحزن صغيري الجميل؟.. أتستكثر على أن يكون مهري لديك هو كلمة أسمعها منك تعبر بها عن حبك لي؟.. ومع ذلك فأنت قريب من الشفاء الآن..

ردد ورائي: أحبك يا جميلة..

رسمت شفتاه خطوطا للكلمة التي أحسها تخرج من عقله وكل كيانه في الوجود، لكنها مع ذلك تأبى الخروج من بين شفتيه.. لكن جميلة- كدأبها معه- لم تيأس ولم تكل، لم تتركه حتى كرر محاولاته عدة مرات، وهو يجاهد ليقول الكلمة التي تمنى قولها، حتى تصبب وجهه من العرق برغم برودة الجو، وكل ما استطاع قوله هو بعض حشرجة من حلقه كتلك التي يطلقها الأطفال الصغار بلا معنى في تعلمهم للكلام، ولقد كان

في ذلك الشيء الذي أرضى جميلة وجعلها تضمه إلى أحضانها الدافئة وهي تحنو عليه قائلة: وأنا أحبك أيضاً يا فارسي النبيل..

الفصل التاسع

الثعبـــان الأرقـــم

كانت الحياة بالمزرعة شاقة بالنظر لقلة الأيدي العاملة بها بسبب ظروف الحرب التي فرضت على السكان الانخراط في كتائب المجاهدين، ونتيجة لحرب الإبادة التي مارستها سلطات الاحتلال الفرنسية على المواطنين المسالمين، فقتلت منهم الآلاف في مذابح دموية أفنتهم دون تمييز ما بين شيخ أو طفل أو امرأة.. الكل حصدتهم بنادق الغاصبين عقابا لهم على رغبتهم الشريفة في التحرر والاستقلال..

لذا فقد قام بالعبء الأكبر في المزرعة، الشيخ عمران.. والد جميلة الذي قضى حياته كلها عاملاً بها حتى أصبح جزءاً منها، أشبه بشجرة البلوط الضخمة التي غرست جذورها فوق الربوة وامتدت أغصانها تعانق السماء وتظل الأحياء.. لذا فقد كان هو العارف بأسرارها القائم برعيها، يعلم مواعيد الزرع والحصاد، ولديه الدواء لكل داء.

أما "خديجة".. والدة جميلة، فقد كانت محور الحياة المنزلية من إعداد للطعام وطحن للحبوب في طاحونة المزرعة المقامة على منحدر الغدير البعيد، كذلك فقد كان من مهامها الجسام

الإشراف على إطعام حيوانات المزرعة ورعاية صغارها وحلب ماشيتها وتخزين سمنها ولحمها وشحمها.

أما جميلة.. فقد قاسمت أمها في أعمالها، بينما انضم عمر إلى الشيخ عمران في أشغال الحقل، مما خفف العبء عن الشيخين، وجعل الحياة تتدفق في المزرعة منبئة بموسم حصاد طيب وفير..

ولم يكن الدور الذي يلعبه "الباشا" بأقل مما يقوم به الآخرون، فهو الحارس الأمين لكل كائناتها، وهو العدو اللدود لكل من يحاول أن يضر بنتاجها أو يهدد الحياة بها، سواء أكان هذا العدو إنساناً سوّلت له نفسه التطفل أو الاعتداء، أو كان ذلك العدو حيواناً.. ذئباً كان أو زواحف وحشرات.. فهو لم يكن يتردد لحظة عن التصدي لذلك العدو الدخيل، وما يزال به إلى أن يجليه عن المكان أو يزيله عن الوجود.. هذا فضلا عن دوره الأساسي في رعاية الأغنام، فهو الذي يستيقظ معها في الصباح الباكر، فيشرف على قيادتها إلى المراعي المجاورة ويظل في حراستها إلى أن ينتهي اليوم فيعود بها إلى حظائرها بسلام..

مع الوقت أصبح عمر جزءاً لا يتجزأ من حياة المزرعة التي أخذت كل وقته واستغرقت كيانه وملأت وجوده، وقد ألف أن يناديه الآخرون باسم: عمار.. كان التشابه ما بين الإسمين

كبيرا حتى أنه في أحيان كثيرة لم يكن يلحظ الفرق بينهما، "عمر" أو "عمار"؟.. ماذا يهم؟.. مادام لا يعرف أيا منهما.. حتى جميلة تناست مع الوقت أن إسمه الحقيقي "عمر" ولم تعد تناديه إلا بإسمه الجديد "عمار"، كأنما هي في داخلها تفتقد فيه زوجها وحبيبها "عمار" الذي غاب.. لابد أن عمار هذا قد كان إنسانا رائعاً حتى لقد أحبته جميلة كل هذا الحب وأكبرته في نفسها كل هذا الإكبار، لذا فمنتهى أمله أن يكون مثله وأن يعوضها عنه خير الجزاء، لذا فلم يشعر ولو لحظة واحدة بغضاضة من اسمه الجديد، بل تقبله في بساطة وامتنان.. تقبله لكل المعطيات التي وهبتها إليه حياته الجديدة بالمزرعة.. جيد أن يمنح الإنسان حياة جديدة بعد أن كان قد شارف على الهلاك.. جميل أن يفتح الإنسان عينيه من العدم فيجد حوله قلوباً دافئة عامرة بالمحبة تعتنى به وترعاه.. حتى "عمار" فقد وهبه في مماته اسماً يحقق له نوعا من التوازن والحماية والانتماء.

كثيراً ما تساءل عمر في داخله عن حياته السابقة قبل مجيئه إلى هنا؟.. أفقد كانت بمثل ذلك الجمال الذي تشربته روحه وأحسه في كل ما حوله من كائنات الآن؟.. أتراه كان فلاحاً في حياته السابقة التي لابد قد عاشها من قبل والتي إنقطع عنها بفقدانه كل ما يذكره بها؟.. أشياء كثيرة أنبأته

بإختلاف الحياتين، خاصة تلك الأحلام المزعجة التي ما فتئت تراوده عن شياطين ومردة وأدوات للفتك ومظاهر للدمار، أشياء بعيدة كل البعد عما يعيشه في المزرعة الآن من هدوء ودعة.. في وحدة وانعزال، إلا من عمال مسالمين وشيوخ طيبين يصادفهم في تنقلاته حول المزرعة يبتسمون في وجهه مرحبين، ثم ما تلبث أن تشغلهم أعمالهم فينصرفون إليها مودعين.

أما جميلة فقد أضاءت حياته الجديدة بشعاع فضي رائع البهاء، وهي ما فتئت تشجعه وترعاه، تحبو به إلى المدارك العليا وتعلمه حياته الجديدة في محبة وصبر وأناة، كأنه طفل وليد ما فتئ يتعلم المشي والكلام.. لكنه كرجل تعلم أن يحبها بكل ما فاضت به روحه من محبة وحنان.. لذا فقد كان دائماً في أعقابها يرى حياته في عينيها فتضئ حينما تبتسم إليه، وتغيم حينما يلمح فيهما الحيرة، وتتقوض حينما يقرأ فيهما هما أو شقاء، لكن الغيوم ما تلبث أن تتبدد بابتسامة مشجعة تنطلق من بين شفتي جميلة تتصيد بها كل الهموم وتمحو الشقاء، فتعود الحياة تبتسم من جديد.

طابت لعمر حياته الجديدة بالمزرعة، واستعذب ما يحياه الآن بقربه من جميلة وما حققه له ذلك من نعيم وهناء، وتناسى مع الوقت أو أراد أن ينسى حياته السابقة، خاصة وقد

وجد في حياة المزرعة عالماً بأسره يناديه في شوق إليه، فهناك أغنام في حاجة إلى الرعاية والحراسة حتى لا تطغى على المزروعات أو تتوه بين الفيافي والوديان، وهناك حقول القمح والشعير التي بدأت أعوادها تنمو تحت شمس الربيع الدافئة وتمتد خضرتها لتكسو قمم الهضاب، وحينما يتأخر المطر فهي لابد في حاجة إلى الري من بئر المزرعة العميق، حيث يقضى الساعات الطوال في إدلاء دلوه إلى أعماقه البعيدة، ثم يسحبه ويصب ماءه في المجرى الضيق الذي يؤدى إلى مفارق الحقول، حيث يتلقاه الشيخ عمران فيوزعه بالعدل على النباتات والأشجار العطشى.. بل مازالت هناك العديد من الأعمال الهامة التي تتطلب جهوده وتتحدى مقدرته على العطاء، منها ذلك الجدار الذي يريد أن ينقض في مخزن المزرعة، وتعاون مع الشيخ عمران على إقامته وتدعيمه، السقف الذي تساقطت منه قطرات المطر، قام بترميمه وسد ثغراته.. تعاون مع جميلة على تقليم أشجار الفاكهة وقطع أغصانها اليابسة تمهيدا لإنباتها الجديد.. سهر ساعات طويلة من الليل مع خديجة انتظاراً لمولد البقرة الرقطاء التي ولدت مع الفجر عجلها الأحمر الجميل، صورة طبق الأصل من أبوه ثور المزرعة العجوز.. غرس الأشجار المثمرة في فناء الدار، دعم أشواك السياج الخارجي الذي يحيط بالمزرعة من الخارج ويفصلها عن

المزارع المجاورة، قام بالعديد من الأعمال الجسام وقضى المهام الصعبة، ومع ذلك فقد كان هناك عمل جديد كل يوم جديد، عالم بأسره يناديه بمحبة فلبى النداء بالاشتياق.. وفاض بعطفه على الموجودات حتى أحبته الكائنات، وأنست إليه حيوانات البر وألفته طيور السماء..

كانت الطيور تغرد والشياه ترغي وتزبد، حينما استيقظ عمر مع الفجر الذي أصطبغ أفقه البعيد بأشعة الشفق القرمزي من شمسه التي لم تشرق بعد.. ما كاد يفتح باب حجرته المطلة على فناء الدار حتى هب إليه "الباشا" بنباحه الصاخب يدور حوله دوراته الفرحة المرحبة، بينما كانت جميلة قابعة في باب الحظيرة على مقربة تحلب البقرة الرقطاء، في الوقت الذي انهمكت أمها في إطعام الدواجن وجمع بيضها الطازج، وهي تزيح عنها العجل الأحمر الذي ما فتئ يتمسح بها في محبة وحنان.

كان الشيخ عمران قد انتهي من صلاة الفجر حينما انضم إلى الآخرين الذين انتظموا حول مائدة الفطور المنخفضة وهم جلوس على الأرض كعادة الجزائريين، بينما قبع على مقربة كلبهم "الباشا" يتلقف كل ما يلقى إليه من أطايب الطعام في مهارة وأدب، ثم يعود فيقعى في صمت انتظاراً لما يجود عليه أصحابه من مزيد.

حينما انتهى الطعام، عبقت رائحة القهوة القوية أرجاء الدار معلنة عن انتهاء حفل الإفطار، ثم ما لبث أن تفرق الجميع على أثرها ليتولى كل منهم القيام بما أوكل إليه من مهام، فتوجهت جميلة بقمحها إلى الطاحونة البعيدة، بينما انهمكت "خديجة" في أعمال الدار، وأنصرف الشيخ عمران إلى حديقة الموالح أعلى التل لإنجاز أعماله بها، في الوقت الذي أصطحب فيه عمر قطيع الأغنام برعاية "الباشا" إلى المراعي البعيدة.

حينما أشرقت الشمس بنورها الوضاح.. رقت النسمة وعزفت الطيور موسيقاها الداعية إلى الحب، لم يطق عمر صبراً على بعد حبيبته، لذا فسرعان ما أستودع قطيع أغنامه لدى صديقه وكاتم أسراره "الباشا" ريثما يختلس بعض الوقت يلتقى فيه بمحبوبته جميلة، التي ألفاها منهمكة في طحن القمح بين حجري رحى الطاحونة الحجرية الضخمة التي تدور بانحدار الماء على السفح المنحدر للغدير المتدفق من الهضاب العليا، ابتسمت جميلة لمرآه الذي توقعته وانتظرته على نفس القدر من اللهفة والاشتياق.. لكنها أبداً لم تضيع الوقت، بل بدأت دروسها له على الفور، دعته أن يردد خلفها مقاطع وكلمات كان قد أتقنها وأحسن نطقها لكنها ظلت مع ذلك بعيدة عن المعاني المتكاملة أو الجمل المفيدة، وفي كل مرة يصيبه فيها

الكلل أو الملل أو الإعياء، كانت تتدخل جميلة بابتسامتها الحانية المشجعة لتشحذ من إرادته وتستحث قدرته على التحدي والاستمرار، وهو ما فتئ يشعر بأنه يقترب كثيراً من تمام النطق والكلام، ليحقق بذلك الشرط الذي ألزمته به جميلة كمهر للزواج..

كانت الشمس قد اعتلت كبد السماء معلنة عن قيظها الذي اشتد، في الوقت الذي جذب فيه عمر حبيبته جميلة ليلقي بها في بحيرة النبع الدافئة بعد أن أنهكته بدروسها وتعليماتها، فتمرد عليها مطالباً بنصيبه من اللعب والمتعة والحب، وسرعان ما لحق بها في الماء وقد علا صراخهما وعبثهما وهما يتسابقان للوصول إلى الشاطئ الذي سرعان ما اعتلته جميلة لترتمي على حشائشه وهي تلهث وتجفف ملابسها المبتلة، بينما فضل عمر البقاء في الماء يمارس متعته المفضلة في السباحة والغطس في مياه النبع الصافية، وفي كل مرة يطفو فيها على سطح الماء يبادلها تحيته الصامتة من بعيد، فتجيبه إليها بابتسامتها الهادئة وكلماتها المشجعة..

حينما عاد عمر من سباحته أسفل مجرى النبع، كانت جميلة قد استلقت في إغفاءة قصيرة أسفل شجرة طويلة جرداء عالية، تستمتع بدفء الشمس ريثما تجف ثيابها، في اللحظة التي هم أن يغوص فيها تحت الماء ليستأنف سباحته التالية..

لمحه ذلك الثعبان الأرقم الأثيم الذي ما فتئ ينساب بنعومة وخفة من أعلى الشجرة في اتجاه جميلة، وبالكاد استطاع أن يميز لونه الذي حاكى لون الخضرة من حوله إلا لعيني عمر الثاقبتين المدربتين على الاستجابة السريعة للمؤثرات والاستشعار بالمخاطر عن بعد.. انطلق عمر بكل قواه في اتجاه جميلة يسابق الثعبان إليها لينبهها من غفوتها للخطر المحدق، لكن حركته كانت محدودة في الماء الضحل الذي ما فتئ يتقدم فيه بصعوبة، بينما تناقصت المسافة بين جميلة والثعبان الذي أقترب كثيراً من رأسها الموسد عند أطراف جذرها.. كانت المسألة كلها مسألة لحظات قصيرة يتقرر خلالها مصير المرأة التي أحبها بروحه إلى درجة الفداء، لكنه وجد نفسه عاجزا عن إنقاذها وهي في بعدها عنه خارجة عن مدى المعونة والإدراك.. ارتمى في الماء، خفق قلبه جحظت عيناه، أحمر وجهه بتأثير كمده وجهده العنيف، أطبق شفتيه ثم فتح فاه على أقصى أتساعه لتنطلق من خلاله صرخته المدوية التي هزت أرجاء المكان: الثعبان.. يا جميلة..

انتبهت جميلة من هول الصرخة التي هزت المكان هزاً، بالقدر الذي أبعدها عن موطن الخطر، وجعل الثعبان يفر إلى بعيد ليختفي بين الحفر والشقوق، في الوقت الذي وافاها عمر ليضمها بين يديه الحانيتين وقد سكن ما أعتمل بنفسه من

إضطراب، بعد أن اطمأن إلى سلامتها وزوال الخطر عنها، لكن جميلة تخلصت من بين يديه بشدة وهي تمعن النظر فيه، أجابته غير مصدقة: لقد تكلمت! أليس كذلك؟.. كرر على مسامعي ما قلته مرة ثانية..

انتبه عمر للعبارة التي أفلتها من بين شفتيه، وغفل عن مدلولها في غمار خوفه على جميلة وحرصه على سلامتها من أذى الثعبان الأرقم.. لكنه أفاق على وقع الحدث السار الذي تحققت به المعجزة التي سعت إليها جميلة والتي ظن في لحظات كثيرة أنها لن تتحقق أبداً، إلى أن أطلق الحب لسانه فحقق بذلك المعجزات.

خشى أن تكون تلك الكلمات قد أفلتت عفواً من بين شفتيه، وأنه سيعود مرة أخرى إلى حالة صمته المطبق كما قد كان، لذا فقد خفق قلبه بين ضلوعه مرة أخرى وهو يتشبث بيدي جميلة بين يديه يخشى أن يخونه الكلام، ضغط على شفتيه قائلاً: أحبك.. يا جميلة..

خرجت الكلمات من بين شفتيه ببطيء، ثم ما لبث وقد اكتشف مقدرته على التكلم أن أعادها أكثر شدة وهو يصرخ بها في جنبات المكان، حتى رددتها قمم الهضاب في صدى محبب، كأنما الكل يهتف فرحاً بانتهاء الصمت وانتصار الحب..

لكن عمر وقد انتشى بحلاوة النصر، ما لبث أن أفلت جميلة من بين يديه وأنطلق يعدو صاعداً إلى أعلى التل إلى حيثما الشيخ عمران يعمل في حقل الليمون، فجذبه من ملابسه وهو يصيح فيه قائلاً: عمى الشيخ عمران.. أنا أتكلم..

ثم سرعان ما أضاف بسرعة كأنما يخشى أن يعود فيخونه الكلام قال: أنا أحب جميلة وأريد أن أتزوجها.. أنا أطلبها منك للزواج.!

هذا في الوقت الذي فغر فيه الشيخ عمران فمه من الدهشة والمفاجأة، وقد ظن بعمر الجنون..!!

الفصل العـاشـر

الخاتـم الفضـــي

هرولت جميلة خلف عمر إلى أن لحقت به عند أبيها الشيخ عمران الذي صاحت فيه بفرحها الطفولي قائلة : إنـه يـتكلم يا أبـى..

وجم الشيخ عمران قليلا قبل أن يسأل عمر في حذر قائلاً: ما هذا الذي قـلته الآن؟..

أجابه عمر بفرحته الغامرة قائلاً: أنا أتكلم يا شيخ عمران.. ألم أخـبرك بذلك؟..

لكن الشيخ عمران عاد يستفسره بحزم قائلاً: لا ليس هذا.. إنما أريد أن أسمع ما قلته لي عن جميلة مرة ثانية..

وجم عمر قليلاً قبل أن يستجمع شجاعته قائلاً: أنا أحب جميلة.. وأريدك أن توافق على زواجي منها..

صعد الدم متدفقاً غزيراً إلى وجنتي جميلة اللتان زادتا اشتعالاً وتوهجاً، بينما نقل الشيخ عمران بصره فيما بين الاثنين في ريبة، كأنما يستطلع سرهما الدفين، في الوقت الذي أدرك فيه عمر سوء موقفه بإعلانه المفاجئ عن رغبته من الزواج بجميلة وما كشف عنه ذلك من حقيقة كانت حتى تلك اللحظة

غائبة عن الشيخ عمران، فهو في نظره مازال عمار زوج ابنته جميلة، فكيف به يطلبها منه مرة أخرى للزواج؟..

قبل أن يفتح الشيخ عمران فمه لمزيد من تساؤلاته، انبرت جميلة تتدارك الأمر قائلة: أبى.. لقد طالت فترة مرض عمار الأخيرة، لم يكن يعرف فيها أحد حتى نفسه، لذلك فقد جعل منه المرض شخصاً آخر غريبا عنى كأنما أراه لأول مرة.. وها هو ذا يعود للحياة إنساناً جديداً غير من كان عليه من قبل، لذا فقد طلبت أن يعاد زواجنا وأن نتزوج من جديد..

أجابها الشيخ عمران وهو يقلب كفيه في عجب قائلاً: أنا لم أسمع بمثل ذلك من قبل يا ابنتي.. فالزواج لا ينقض بين الزوجين إلا بأسبابه، ولا أظن أن من بينها المرض..

أجابته جميلة بشجاعة قائلة: لا يا أبى.. لقد استشرت بعضاً من كبار رجال الدين في هذا الأمر وأنا في المدينة، فأفتوني بأن المرض الشديد من مفسدات الزواج، لأنه يجعل الزوج غير عالم بزوجته، لذا فلا مانع لديهم من إعادة الزواج في مثل تلك الحالات بعد تماثل الزوج للشفاء وعودته إلى الإدراك مرة أخرى..

أجابها الشيخ عمران وهو يغالب دهشته قائلاً: هذا أمر غريب يا ابنتي.. لابد أن اسأل فيه..

أجابته جميلة بابتسامتها الغامضة قائلة: أيرضيك أن يكون شريفنا بن أحمد هو الحكم العدل بيننا..؟؟

أجابها الشيخ عمران وهو يرفع كفيه إلى أعلى في كفاية وتسليم: ونعم الحكم العدل هو..

كانت الجلبة التي أحدثها عمر في هرولته وصياحه في اتجاه الشيخ عمران قد جذبت إليها أول ما جذبت كلبه "الباشا" الذي هرع إليه يتمسح به وهو يحدث جلبة وضجيجاً كأنما يشاركه الفرحة بالحدث السعيد.. كل هذا مما لفت انتباه خديجة فهرولت هي الأخرى إلى حيث الجمع، تسألهم في استفسار عما حدث..

توجه عمر نحو خديجة حيث أمسك يديها بين يديه، خاطبها والدموع في عينيه قائلاً: خالتي خديجة.. أنا أتكلم..

ضمته خديجة إلى صدرها في خشوع قائلة: الحمد والشكر لله.. هذه بركة سيدى بو زيد.. لابد أن أزوره غداً لأوفي ما على من نذور.. نذرتها لمثل هذا اليوم..

أجابها الشيخ عمران قائلاً: انتظري حتى تسمعي ما هو أعجب من ذلك!

أسرعت جميلة تتدخل في الأمر موضحة قبل أن تسيء أمها فهمها قالت: أمي أريد أن يعاد زواجي من عمار، أريد أن

يقام عرسي هنا في المزرعة مرة أخرى من جديد، فهل تمانعين يا أمي؟..

أجابتها أمها وهي تضمها إلى صدرها بجوار عمر قائلة: ليجعل الله كل حياتكما أفراح.. ليكن عرسك اليوم وكل يوم، وسوف أدعو إليه كل الناس والبلاد ليحتفلوا معنا بأفراحنا..

نقلت جميلة نظراتها المحذرة بين أبويها كأنما تنبههما إلى استمرار الخطر بوجود الغاصب المحتل الفرنسي في البلاد، وأن الوقت ليس مناسبا لأفراح كبيرة، استطردت جميلة قائلة: لا يا أمي.. لن يكون عرسنا كبيراً بالدرجة التي تتمنينها.. لكنه سيكون في أضيق الحدود.. وحتى يطمئن أبي، فلن يعقد زواجنا سوى: الشريف بن أحمد.

أجابتها أمها في خشوع واحترام قائلة: ليحفظ الله كبيرنا وحاكمنا المبجل، والمجد لزوجته الأميرة عائشة صاحبة الفضل والعدل.. غداً إن شاء الله أذهب إليهما أعرض الأمر.. ولله الأمر من قبل ومن بعد..

أجابها الشيخ عمران قائلاً: حسنا قلت.. في الغد تذهبين إلى شريفنا بن أحمد.. إقرئيه مني السلام واعرضي عليه أمرنا، ولا تنسى أن تأخذي إليه أحسن ما في مزرعتنا من ثمار وأغنام..

هكذا تقرر الأمر بفضل شجاعة جميلة وحسن تقديرها للأمور، وهي ترى الرأي الصواب في أن تكل قضيتها بكل تعقيداتها لحصافة والدها الروحي الشريف بن أحمد وزوجته الأميرة عائشة، وهي على ثقة من أنهما سوف يفهمان ويقدران بلا عناء.. بلا حاجة لشرح أو تفسير.. وأيا ما كان الرأي والقرار الذي سيتخذانه بشأنها، فهي به راضية، ولأمرهما ولأمر الله خاضعة..

في الغد كان سفر خديجة إلى "آفلو" محملة بما لذ وطاب من نتاج المزرعة، فوصلتها ضحى وقد عمرت أسواقها.. والناس في أشغالهم يروحون ويغدون في دعة وسلام، لا شيء يذكر بالمستعمر الفرنسي إلا من بضع جنود مسلحين يمرون بين الحين والحين في دوريات مسلحة لا يلتفتون لأحد ولا أحد يلتفت إليهم، كأنما هم من ضعتهم وقلة شأنهم أقل من مشقة الاهتمام أو الالتفات، خاصة بعد أن شملت الثورة كل أنحاء الجزائر، بحيث استحال على فرنسا السيطرة على كل أنحائها وصعب عليها أن تصول وأن تجول في البلاد كما كان شأنها من قبل خاصة تلك البعيدة عن مقر القيادة الفرنسية في الشمال، وبذا فقد أعطيت التعليمات لجنود الاحتلال بالتجمع في النقاط الاستراتيجية الحصينة، وألا يغادروا ثكناتهم أو مواقعهم العسكرية إلا في جماعات ولضرورة ملحة خوفا على

حياتهم من انتقام الثوار، مما جعلهم يعيشون في خوف وانعزال أشبه بالسجناء داخل ثكناتهم، ومع الوقت أهمل الجزائريون شأنهم إنتظاراً ليوم قريب يتحقق فيه النصر، ويجلو فيه جيش الإحتلال عن البلاد..

رحبت الأميرة عائشة بقدوم خديجة إليها وأكرمت وفادتها بما عرف عنها من كرم الضيافة، وبعد أن أستقر بخديجة المقام مثلت في حضرة الشريف بن أحمد الذي رحب بها وتقبل منها هدايا الشيخ "عمران" له بشكر وامتنان.. ثم أستمع لقضيتها التي جاءت من أجلها..

أنصت الشريف لخديجة باهتمام، وهي تقص على مسامعه أحداث الليلة الهائلة التي عادت فيها جميلة بجريحها الأسمر اللون ما بين الحياة والموت، ثم كفاحها المستميت حتى تمام الشفاء، مع تكتمها لأمر تواجده لديها حفاظاً على حياته من جنود الاحتلال، انتهاءً برغبتها المجنونة التي لم تفهمها خديجة بعد، أن يتولى الشريف بن أحمد إعادة زواجها من زوجها عمار..

كانت تلك هي المرة الأولى التي تصل فيها أخبار جميلة إلى "آفلو" منذ اختفائها ليلة الهجوم الفرنسي الكبير، لذا فقد غمرت الفرحة قلب الأمير بن أحمد وزوجته الأميرة عائشة

لسماعهما لتلك الأنباء السارة عن ربيبتهما جميلة وأنها مازالت بخير وعلى قيد الحياة..

بدت إمارات التفكير على محيا الشريف بن أحمد وهو يجول بفكره الثاقب فيما قصته عليه خديجة من أحداث أنبأت كلها بأن الجريح المصري المفقود قد وُجد بسلام، وأنه ليس سوى ذلك الفتى الأسمر اللون، الذي يدعونه لعقد قرانه على جميلة الآن..

بعد أن نالت خديجة قدرها من حسن الضيافة والتكريم، زودها ابن أحمد بهداياه إلى الشيخ عمران، ثم صرفها للعودة بسلام إلى المزرعة وقد وعدها خيراً، وأن الأمر سوف يتقرر بسلام في زيارته لهم التي حددها بأنها ستكون بعد أيام..

عقب انصراف خديجة، قلب الشريف بن أحمد الأمر على شتى أوجهه، إستقر رأيه على أن يكون الواجب أولاً.. عليه أن يجد طريقة يحافظ بها على حياة الضابط المصري الذي ترجح تواجده لدى جميلة، وعليه أن ينقله أولاً إلى قصره، ثم عليه بعد ذلك أن يرسله ضمن حراسة مسلحة إلى مقر قيادة الثوار التي انتقلت مرحليا إلى مكان غير محدد بجبال الأوراس.. أو ربما إلى مقر القيادة الشرقية بنواحي قسطنطينة مما يقتضي السير إليها آلاف الكيلومترات عبر مراكز عسكرية حصينة للقوات الفرنسية..

حينما علمت الأميرة عائشة بما عزم عليه زوجها الشريف بن أحمد أجابته برأيها الرشيد قائلة: ألا ترى الحكمة والرأي الصائب فيما قامت به ابنتنا جميلة؟.. ألم تفهم الرسالة التي أرسلتها إلينا بعد؟ لقد فهمتها أنا منذ اللحظة الأولى.. أنها تستسمحنا بأن نهب إليها عمر بدلا من عمار، وأظنه لن يكون أكثر أمناً في أي مكان في الجزائر في ظل الظروف الحاضرة، أكثر منه لدى جميلة..

أجابها الشريف بن أحمد بعد فترة من التفكير قائلاً: أظنها تلك المرة قد كانت أكثر حكمة منا جميعاً، فالضابط المصري عمر هو إنسان ميت منذ لحظة إصابته يوم الهجوم الكبير، لذا فلا بأس من أن يبقى كذلك إلى أن يشاء الله..

بعد أيام كان خروج الشريف بن أحمد وزوجته الأميرة عائشة في موكب صيده الربيعي إلى خارج آفلو بحراسة مشددة من أقرب حراسة تابعيه.. فهي عادة توارثها عن أجداده العظام حيث يحلو لهم الخروج للصيد خاصة في الربيع، حيث الربى مخضرة والحيوانات وفيرة، وهي رحلة ذات منافع عديدة، إذ من خلالها يمكن للأمير أن يتفقد أحوال رعاياه في المزارع والضياع البعيدة حيث ينزل ضيفاً على هذا وذاك.. وهم ينتظرون تلك الزيارات خاصة في موسم الحصاد للاحتفال بجني الثمار، وينتهزون فرصة الزيارة لإقامة الولائم على شرف

الأمير، حيث يحضر أفراحهم ويعقد زيجاتهم ويحكمونه في خلافاتهم فيقوم بالمصالحة بينهم، ويتبارون أمامه لإظهار فروسيتهم وبيان مهاراتهم في التصويب والرماية.. كل هذا بين مظاهر الحفاوة والتكريم، عزف الموسيقى والرقص ودق الطبول..

لذا فقد مر موكب الأمير بن أحمد، على مخابرات فرنسا في سكون دون أن يثير الريب أو يحرك الظنون، بل أنهم رحبوا بهذا الرحيل، ففي جلائه عن المدينة الآن الفرصة السانحة التي انتظرها عملاء "الديزيم بيرو" للتنكيل بأعدائهم من المواطنين الشرفاء وسحق للمقاومة السرية داخل المدينة، دون أن يكون في إمكان أحدهم اللجوء إلى الشريف بن أحمد أو الاستنجاد به من بطشهم.. وهو الذي غالباً ما كان يهب إلى نجدتهم في مثل تلك الظروف، فيحد من ظلمهم، ويمنع عنهم إستبداد المستعمرين الذين كانوا يحسبون لتواجده ألف حساب.

الصدف السعيدة ما لبثت أن رتبت لقاء آخر ما بين الشريف بن أحمد، والدكتور سرباح الذي وفد ضمن فريق طبى لزيارة "آفلو"، ونقل الخدمات الطبية إلى القرى البعيدة المحرومة من الرعاية والعناية، لذا فقد كان لقاءاً تلقائياً تم بين القيادات الطبية والادارية في ربوع الصحراء بين التلال والهضاب

فأصبحت صدفة خير من ألف ميعاد.. لذا فقد إحتفل الفلاحون كثيراً بالمناسبة السعيدة وأقاموا لها الولائم وذبحوا الذبائح على شرف الزوار الكرام، احتفلوا اثناءها بأجراء مسابقات الخيل والرماية.. وكلما حل ركب الأمير بقرية أو مزرعة تجددت الأفراح وأقيمت الولائم والليالي الملاح، وعم الفرح وساد الانشراح..

تكلم الدكتور سرباح طويلا مع الشريف بن أحمد عن المهمة السرية المكلف بها ضمن فريقه الطبي لتنظيم المقاومة السرية ودعمها بين صفوف الفلاحين، بقصد توثيق الصلات بينهم وبين الثورة، ولقد كانت الاستجابة لذلك كاملة، فالشعور كله معبأ ضد الاستعمار الفرنسي الذي ما فتئ يتقلص وينحسر، والشعب في يقظته قد هب كعملاق يطالب بحقوقه السياسية بإجلاء فرنسا والاستقلال.. لذا فقد تجددت المهرجانات الشعبية في التحام وانسجام ما بين القيادة والشعب حيث ألقيت الخطب الحماسية ونظمت قصائد الفخر التي تعدد مآثر الأجداد وتندد بالاستعمار..

حينما علم الدكتور سرباح بالمهمة النبيلة التي يقصدها بن أحمد بزيارته المزمعة لجميلة، أجابه باهتمام قائلاً: الحق أن إبنتنا جميلة من أشجع فتيات الجزائر اللاتي يحق لنا أن نفخر بها، فدورها البطولي الذي قامت به في حركة المقاومة السرية

لا ينسى، كذلك ما قامت به في رعاية الضابط المصري الجريح.. لقد كتبت إلى من قبل بشأن جريحها ذاك، لكنها لم تذكر لي حقيقته أو من يكون، وبعد أن ترجح لدينا الآن أنه الضابط المصري المفقود، فعلينا أن نُكبر فيها ما قامت به من تضحية وفداء، وأن نجازيها عن ذلك خير الجزاء..

أجابته الأميرة عائشة ضاحكة: أن خير جزاء للأبطال أن يكونوا معا.. وهذا ما قام به العاشقان نيابة عنا..

أجابها الدكتور سرباح وهو يمعن التفكير، قال: الحق أنه في ظل الظروف الحالية، أعتقد أن هذا هو الحل الأمثل الذي يحقق الأمان الكامل لضابطنا الجريح..

هكذا كان دخول ركب الشريف بن أحمد إلى مزرعة جميلة أمراً عاديا غير ملفت للنظر أو مثير للفضول، ضمن جولته التفقدية الطويلة للقرى والنجوع، حيث عقد الكثير من الزيجات، وتبرك بمقدمه الكثير من المزارعين، وأقاموا على شرفه العديد من الولائم والأفراح، وبرغم ذلك فقد حرص الشريف بن أحمد أن يكون دخوله إلى مزرعة جميلة خفية في غسق الغروب، زيادة في التخفي والاستتار، حفاظاً على السر الكبير..

أسرع الشيخ عمران لملاقاة موكب الأمير المهيب، بينما عمت الفرحة أنحاء المزرعة التي تجهزت وزُينت بأبهي زينة، بينما تزينت جميلة بثياب عرسها التقليدية التي زادتها بهاءاً

وجلالاً، وإرتدى عمر أجمل ما أُهدي إليه من عباءات مزركشة، فبدا في ثياب عرسه فتياً جذاباً..

بعد تناول وجبة العشاء الفخمة التي أقامها الشيخ عمران على شرف الأمير وصحبه، اختلى الشريف بن أحمد بجميلة حيث استمع إلى قصتها كاملة، وبعد أن انتهت من حديثها، ظل برهة ساكتاً يمعن التفكير فيما قالته، إلى أن أجابها قائلاً: أرى يا ابنتي إرادة الله ظاهرة في كل ما مر بك من أحداث، وهو سبحانه الذي أراد أن يعوضك بعمر خيراً عن عمار، فحافظي عليه من أجل الوطن، ولتتكتمي أمرك معه إلى أن يشاء الله..

أجابته جميلة في شموخ قائلة: سأفعل يا أبي.. ولا تخشى على بأساً من ذلك، فأنا أعلم أنه مطلوب لبلاده وللثورة، ومستعدة للتضحية والفداء في أي لحظة يطلب منى فيها ذلك، فالوطن قبل الحب دائماً.. لتحيا الثورة.. ولتحيا الجزائر..

أجابها الشريف بن أحمد بحماسه قائلاً: وليحيا عبد الناصر الذي أمدنا بهذا البطل الشجاع.

ثم أضاف بعد برهة من الصمت والتفكير مستطرداً: أحسنت القول.. كما أحسنت الفعل والتدبير دائماً.. على بركة الله أعقد قرانك يا ابنتي..

كان العرس في مجمله بسيطا متواضعاً، حضره نفر قليل من أتباع الأمير وبعض عمال بسطاء من المزارع المجاورة.. ولقد كان شاهدي العقد هما الدكتور سرباح وأحد حراس الأمير..

انطلق صوت خديجة مزغرداً يقطع صمت الليل الساكن أعلاناً بفرحتها بزواج ابنتها الوحيدة، بينما جاوبتها الطلقات التي أرسلها حراس الأمير من بنادقهم تحية للعروسين البطلين..

تقدمت الأميرة عائشة نحو العروسين حيث قبلتهما في معزة وإكبار، ثم أخرجت من عباءتها صندوقاً صغيراً فتحته وأخرجت منه بين دهشة الحاضرين وإعجابهم، خاتمين من الفضة زينت رؤوسهما بفصين من العقيق الأزرق نقش عليهما صورة بارزة لأسد معقوف الذيل يحمل سيفا بذراعه التي يرفعها فوق رأسه، ثم قامت بوضع كلا منهما بالإصبع الصغير لعمر وجميلة وهي تبارك زواجهما قائلة: الآن فلتحل عليكما بركة جدنا الأكبر الأمير عبدالقادر، فهو أول من وضع بيده هذا الخاتم..

صفق الحاضرون إكباراً لذكرى الأمير العظيم الذي اتخذ له رمز الأسد حامل السيف كدليل على الصمود والتحدي، ومن قبله أتخذ الهلاليون نفس الرمز كدليل على الكفاح في سبيل الله ونشر الدعوة، لذا فما زالت العديد من المنازل والقصور

تتحلى بهذا الرمز في الجزائر، والكثير من القصور العريقة في البلدان العربية حتى الآن، تنبئ بمجد تليد لأجداد شجعان..

قبل أن يغادر موكب الأمير المزرعة، طلب الدكتور سرباح أن يختلى بجميلة لحظات، ليبحث معها حالة عمر حيث بادرها الحديث قائلاً: الحق يا ابنتي لقد قمت بعمل بطولي ضخم في رعايتك للجريح الذي أراه الآن في حالة جيدة، جم النشاط موفور الصحة..

أجابته جميلة وهي تغالب حياءها قائلة: أن الفضل الأول في ذلك لله ولنصائحك القيمة التي حاولت أن أطبقها وأعمل بها، ولعلني أكون قد نجحت حتى الآن..

أجابها الدكتور سرباح متلطفاً: حتى الآن.. نعم.. ولكن هل فكرت فيما سيكون بعد؟..

أجابته جميلة بشجاعة قائلة: أعلم ما تعنيه جيداً.. وهي اللحظة التي سيسترد فيها ذاكرته ويعلم كل شيء عن ماضيه.. إنني على استعداد دائما لتلك اللحظة، سيكون حينئذ حراً طليقاً، إن شاء بقى، وإن شاء عاد إلى بلاده بسلام..

أجابها الدكتور سرباح بهدوئه قائلاً: أعتقد أن هناك بعض المسائل الطبية لم تعرفينها بعد عن تلك الحالة التي يعانيها عمر من فقد الذاكرة المؤقت.. حتماً سوف يسترد ذاكرته عن قريب، فهو أشبه بمن تلقى ضربة شديدة أفقدته الوعى ما يلبث

أن يفيق منها ويسترد قواه.. خاصة وبعد أن تحسنت مراكز النطق والكلام في عقله، فإن الباقي على استرداد ذاكرته ليس كثيراً، لكن الأمر هنا مختلفاً اختلافاً بسيطاً.. إنها لحظة استرداد الوعى بكل ما يصاحبها من هول الصدمة، فللمعرفة صدمة مثلها مثل النسيان سواء بسواء.. لذا فمن المعتاد في مثل تلك الحالات إنه في اللحظة التي يسترد فيها المريض ذاكرته، فإنه يفقد ذاكرته المؤقتة التي اكتسبها أثناء فترة النسيان..

وجمت جميلة قليلاً قبل أن تسأله قائلة: ما الذي يعنيه ذلك يا سيدى على وجه التحديد؟؟..

أجابها الدكتور سرباح موضحاً: أخشى يا ابنتي أنه في تلك اللحظة التي سوف تعود فيها إليه ذاكرته، فإنه سوف ينساك وينسى كل شيء عن الفترة المؤقتة التي عاشها هنا معك.

أجابته جميلة بثبات قائلة: سأكون هنا في تلك اللحظة، وأنا على استعداد دائم لمواجهتها وتحمل كل نتائجها..

أجابها الدكتور سرباح مشجعاً: أرجو ومهما كانت الظروف ألا تترددي لحظة واحدة في الكتابة إلي بأية استفسارات تتعلق بحالة عمر، ودائماً ستجدينني في العون.

شكرته جميلة على تلطفه الزائد معها، ثم أضافت بعد قليل متسائلة: لكن خبرني يا سيدى.. كيف ستعود إليه الذاكرة؟..

أجابها الدكتور سرباح قائلاً: لا أحد يعرف على وجه التحديد.. لكنها في حالات كثيرة لمرضى مشابهين عادت إليهم فجأة نتيجة مؤثر وقتي من فرح أو حزن أو انفعال، أو شيء مما يذكر المريض بما كان عليه من قبل فقدانه للذاكرة، لكن من المؤكد أن المسألة الآن قد أصبحت مسألة وقت.. هو المدى الذي يتماسك فيه العقل ويصبح قادرا على المواجهة والتذكر..

أجابته جميلة بصوتها الخفيض قائلة: أشكرك سيدى على نصائحك..

أضاف الدكتور سرباح وهو يهم بالانصراف قائلاً: شيء آخر أرى أن أوضحه لك.. فهناك علامات دالة على قرب التذكر من بينها القلق وزيادة عدد الأحلام المزعجة التي يرى فيها المريض صوراً من الأحداث المرعبة التي مرت به في ماضيه وكانت سبباً في فقدانه للذاكرة.. وهي بمثابة تمهيد يسوقه العقل الباطن إلى الإدراك ينبهه فيه لاقتراب اللحظة الحاسمة.. وحينما يحدث ذلك كله.. فاعلمي يا ابنتي أن لحظة التذكر قد دنت.. وليكن الله في عونكما معا..

بعد انصراف ركب الأمير بن أحمد رفعت جميلة رأسها عالياً وهي تستقبل حياتها الجديدة بالمزرعة كزوجة لرجلها الذي أحبها وأحبته، وطردت عن نفسها الأوهام والرؤى المفزعة التي

تنبأ بها الدكتور سرباح في استعادة عمر لذاكرته.. فهو الآن يبدو لها سعيداً راضياً وقد بلغ المُنى بزواجهما السعيد، الذي أتى ثمرة طيبة في ربيع حبهما الذي اخضرت أوراقه وتفتحت أزهاره متحدية كل ما حولها من مظاهر الحرب والدمار، فلتنعم معه بتلك السعادة التي وهبتها لهما الحياة ما دامت ممكنة، ولتطرد عنها أوهام الخريف.. ما دام الربيع مازال قائماً..

بعد أن إنفض حفل الزواج، حمل عمر عروسه الجميلة إلى كوخهما الصغير الذي أفرد لهما أعلى الجبل تحت شجرة البلوط الضخمة التي امتدت أغصانها لتظلل المكان، كأنما لتحميه من الشرور والآثام، وسرعان ما ضمهما مخدع الزوجية السعيد، وقد باتا في عناق واشتياق حتى الصباح..

الفصل الحادي عشر

عــودة الذاكـرة

بعد فترة عاشها العاشقان في سعادة وهناء، والربيع قد قوي وأشتد وكسا بردائه الأخضر جميع النواحي والأرجاء، إلا من ألوان صفراء فائقة أو بيضاء ناصعة أو حمراء فاقعة، لزهور جريئة رفضت الامتثال لأوامره ونواهيه ، بينما ترنمت الطيور فوق أفنان الأشجار التي تمايلت مع النسيم العليل، وعزفت الكائنات سيمفونية حب، كأنما تشارك بها العاشقين فرحتهما بحبهما الوليد..

لكن الحياة لا يمكن لها أن تستقر على حال، إذ أن دوام الحال من المحال، بل لابد للحياة أن تتبدل وتتقلب ما بين الخير والشر كتقلب الليل والنهار.. ففي أوائل الصيف وبالتحديد يوم 5 يوليو 1962 وصلت الحرب الدائرة بين الفريقين إلى نهايتها الحتمية التي انتصرت فيها الجزائر، لأنه مكتوب في سِفر الخلود:

إذا الشعب يوما أراد الحياة فلابد أن يستجيب القدر

ولابد لليـــــل أن ينجلي ولابد للقــيد أن ينكســـر

انتهت الحرب نهايتها المحتومة بانتصار الشعب صاحب السيادة والسلطان، وعقدت الاتفاقيات بين البلدين لحفظ ماء

وجه المستعمر في جلائه عن الأرض التي طالما أذلها وأساء إليها فلفظته من فوق ترابها، وعادت لتعانق فلاحيها الذين رووها بالدم، بشوق ومحبة وحنان، لتمسح عنهم شقاء السنين، فاستكان في داخلها الشهداء، وإستقرت أرواحهم في جنة الخلود.. في البداية أرادت فرنسا أن تساوم على الصحراء، وأن يكون الاستقلال في مقابل البترول الذي تفجر بآبار الصحراء، لكن الموقف الصلب للقيادة الجزائرية مع إيمان شعبها حققا الانتصار الكامل، وبدا أن الثمن الذي تدفعه فرنسا مقابل احتفاظها بأي شبر من تراب الجزائر هو ثمن باهظ، أغلى من كل كنوز الصحراء وبترولها.. لذا فسرعان ما تغلب التيار المعتدل داخل فرنسا وقررت القيادة السياسية التخلي عن الجزائر بعد حكم استعماري استيطاني إستمر أكثر من مائة وثلاثون عاماً، رفع شعار "الجزائر فرنسية"، لكن الدم العربي الذي يجرى في عروق أبنائها مختلطاً بدماء قبائل "البربر" العربية الأصل التي استوطنت الجزائر قبل الإسلام، أثبت فساد النظرية الفرنسية التي انهارت بإنهيار الإستعمار الفرنسي وأفسح المجال لنظرية أخرى أشد وأعمق وهي أن "الجزائر عربية".

في الفترة التي تلت إعلان الاستقلال، سحبت الإدارة الفرنسية كل عمالها وموظفيها الفرنسيين من كل نتوء وثنية

بأرض الجزائر الواسعة المترامية الأطراف، ولم تكن الإدارة الجزائرية مستعدة بعد لشغل الفراغ الذي نتج في الإدارة نتيجة لهذا الانسحاب المفاجئ، خاصة في المناطق البعيدة عن العاصمة مثلما الحال في مدينة "آفلو" التي فقدت أهميتها الاستراتيجية بمجرد إجلاء حاميتها الفرنسية الكبيرة التي تحصنت بها لحماية الصحراء التي أصبحت وهي في أيدى أبنائها في غير حاجة إلى الحماية، وبذا فقد عادت "آفلو" مجرد قرية بعيدة صغيرة نائية، يحجم الكثيرون عن سكناها لمناخها البارد لوقوعها أعلى قمة جبل "عامور" ولبعدها عن المدنية والعمران، وبرغم أن الشريف بن أحمد أصبح هو الحاكم الإداري الفعلي للمدينة في ظل النظام الجديد بدرجة "نائب والى"، حيث أن الوالي كان موجودا في مدينة "تيارت" عاصمة الولاية التي تتبعها مدينة "آفلو" وتبعد عنها وسط صحراء جليدية بمسافة تزيد عن المائة والخمسين كيلومترا، برغم ذلك فقد ظل اتصاله بالعالم الخارجي عسيراً لقلة سبل المواصلات التي تربط بين المدينتين، وإن حدث.. فلا توجد استجابة لمطالبه نتيجة لكثرة مطالب الولايات والمدن الأخرى، ولوجود أولويات فرضت نفسها لإزالة آثار الدمار التي خلفتها الحرب الطويلة، التي قتلت الآلاف وهدمت مدنا بأكملها من بينها مدينة "آفلو" التي خلفها المستعمر قاعاً صفصفاً، مما

جعلها تعانى مشاكل خطيرة في الأمن والغذاء والإسكان، مما جعل البعض يستولون على المال المباح الذي خلفه الفرنسيون وراءهم دون صاحب، وكثرت حالات التعدي والاشتباكات بين الأهالي لاقتسام الغنائم، وكان الفوز فيها دائما للسباقين من الأقوياء حتى ولو لم يكن لهم فضل في حرب التحرير، بل لقد أضطر النظام الجديد في كثير من الأحيان للاستعانة ببعض المشبوهين أو المعروف عنهم الولاء لفرنسا، لا لسبب إلا لأنهم من فئة "التكنوقراط" الذين يجيدون مهارة أو يعرفون حرفة أو يتمتعون بخبرات في الإدارة أو الصناعة أو التجارة قد لا تتوافر لدى غيرهم من المجاهدين الذين كان معظمهم من الفلاحين والأهالي البسطاء الذين ضحوا بدمائهم لأجل النصر، فلما تحقق وجاء وقت اقتسام الغنائم فاز بها غيرهم.. وربما هكذا حال معظم الشعوب التي استقلت بعد طول احتلال، لا يتحقق استقلالها على وجه أكمل بمجرد جلاء جيش الاستعمار، إذ أن المستعمر لابد أن يترك خلفه طبقة من أعوانه ترعى مصالحه بعد رحيله وتحمى ظهره أثناء تقهقره، وقد تفرض نفسها على الدولة والحكم بعد ذلك إلى أمد قد يطول.. وربما عانت تلك الشعوب من تلك الفئة أكثر مما عانته من المستعمر نفسه، ذلك لأن حرب المستعمر واضحة سلاحها معروف، أما الحرب مع تلك الفئة فهي خفية سلاحها العقل والذكاء.. لذا فقد فضل

الكثيرون من المجاهدين الانسحاب من المعركة والعودة إلى الجبال انتظاراً لما تسفر عنه الأحداث..

في وسط تلك الأحداث المتلاحقة والاضطرابات الخطيرة التي عمت أنحاء البلاد، انطمست العديد من الحقائق وأهملت الكثير من القضايا الحيوية والخطيرة، حيث تضاربت القرارات بشأنها، مما أدخل الإرتباك في قطاعات كثيرة، وتكدست المشاكل في انتظار الحلول، وبالطبع فقد كان من غير المتوقع لمشكلة صغيرة مثل مشكلة عمر أن تجد طريقها السريع للوصول إلى القيادة العامة التي شغلت بقضايا أخرى أخطر وأجل، لذا فقد تعثر اتصال الشريف بن أحمد مع القيادة الجديدة بشأنها، وتأخر الرد عليها حتى نسيها الجميع في غمرة المشاكل المتلاحقة، خاصة العاشقين الهانئين اللذين نهلا من نهر الحب بلا ارتواء.. في البداية وبعد التحرير، كان اهتمام جميلة برد عمر إلى المجاهدين استجابة لنداء الواجب الذي يحتم التحاقه بالجيش الذي كان يعمل فيه، لذا فقد واصلت أوامرهم لها في هذا الشأن والتي لم يكن لها إلا معنى واحد هو التحاق عمر بقوات المجاهدين.. وحينما تأخر الرد نتيجة للتعقيدات الإدارية، تكاسلت جميلة وربما بدافع حبها له واشتياقها إليه، تغلبت عليها أنانيتها فلم تعد تنظر إلى الأمور نظرة مدققة متجردة، بل أرجأتها لما بعد.. إذ ما دامت اللحظة

قادمة لاشك فيها فلم الاستعجال بشأنها؟.. دعها تتمتع بقربه منها أكبر وقت ممكن، ودعهم يتأخرون كما طاب لهم ذلك التأخير مادام ذلك يدنيها من حبيبها ويقربه إليها، ربما فيما بعد حينما تتحسن الأمور وتصلح الجسور وتنتظم الإدارة ويسود الأمن في البلاد، ربما يكون هذا هو الوقت المناسب لكى يلتحق عمر بوحداته المقاتلة، خاصة وهو مازال لم يسترد ذاكرته .. ومسئوليتها عنه لم تنته بعد..

وماذا لو بقى عمر بقربها فترة أخرى من الزمن، خاصة وأن حالة الحرب قد انتهت بالنصر الذي ضحى عمر من أجله بدمائه؟.. ماذا لو منح فترة أطول من الهناء والدعة بجوارها وبين أحضانها الدافئة؟ ماذا لو كوفئت على كفاحها الطويل وتضحياتها المتلاحقة بقليل من المتعة والحب بجوار الرجل الوحيد الذي ملأ حبه حياتها وأضاء بشمسه على دنياها التي ظنتها في فترة أظلمت إلى الأبد؟.. لماذا لا تكون هدية النصر لهما هي تركهما يستكملان حياتهما الوادعة التي بنياها على سفح التل بسلام؟ خاصة وأن لها الحق كل الحق في أن تعيش حياة بسيطة كباقي خلق الله البسطاء.. أنها لم تطلب من الغنائم كلها إلا عمر، ألا يحق لها ذلك وقد صنعته وأوجدته من العدم بعد أن فقد الرجاء فيه؟ رعته وحبت به كما تحبو الأم الرؤوم بطفلها الرضيع حتى تمام الفطام.. إن كان لأحد

أن يدّعي حقاً على عمر فهي وحدها هذا الأحد.. بما بذلته نحوه من حب ورعاية واهتمام..

لكنها وفي قرارة نفسها كانت تعلم عدم جدوى ذلك كله، إنها إنما تخادع نفسها وتغالط، فهو ليس بقرة حلوب تملكها لتدر لها الألبان ثم تذبحها لتأكل لحمها بعد ذلك، لكنه إنسان.. لا يجوز لأحد أن يتملكه، بل إنه لا يملك حتى نفسه، لأنه ملك لقضية أكبر هي قضية وطن، ولقد أعطى لهذا الوطن أمانة، والأمانة لابد أن ترد وأن تطالب.. خاصة إذا ما كان المطالب هو: الوطن..

* * *

بعد فترة عاشها عمر مع جميلة في دعة وهدوء عقب زواجهما السعيد، عادت تنتابه الهواجس وتنتاشه الهموم بشأن ماضيه، ولقد تيقن لديه الآن بأن أحداً لا يعرف عنه شيئاً، سوى أنه قد جاء من العدم وولد من جديد بين يدى جميلة بعد أن كاد أن يفارق الحياة من جراء إصابته البالغة التي لا يعرف أسبابها، والتي كانت السبب فيما مُني به من إعاقة عن الكلام وفقدان للذاكرة.. لكنه بلا شك محظوظ وسعيد أن تكون ولادته الثانية على يدي أم جميلة مثل جميلة التي تلقفته بروحها الطيبة بكل العناية البالغة وغمرته بالحنان والحب، إنتهاءً بزواجهما السعيد الذي مسح عن نفسه شقاءها، وأبعد عنه

الكثير من الأشباح المخيفة التي ما فتئت تطارده في أحلامه.. عن ضجيج وأصوات عالية وأضواء مبهرة لا يدرى مدلولاتها، لكنها تعطيه دلالات مؤلمة عن ماض كئيب لابد أنه قد عاشه من قبل أن تلقيه أقداره على شاطئ جميلة..

لكنه مع ذلك لم يستطع أن يكف لحظة عن التفكير في ماضيه أو من يكون.. لذا فقد دأب على قراءة الكثير من الكتب الطبية التي أمدته بها جميلة حينما كانت تعجز عن تقديم إجابات شافية على أسئلته لها.. ولقد وجد في تلك الكتب شرح واف لحالته، وأن الكثير من تلك الحالات تنجم عن حوادث خطيرة يعجز معها العقل البشرى عن الاستمرار في ممارسة وظائفه، مفسحاً بذلك المجال لجزء آخر من العقل أقوى وأشمل هو ما يدعى باللاشعور أو العقل الباطن، ما يلبث أن يفرض سيطرته ويعزله عن ماضيه ليجنبه أشياء مؤسفة يكون في تذكرها معاودة الآلام.. لكن.. وما لو لم يكن قد حدث تدمير لخلايا العقل، فإنه ما يلبث أن يتوازن وأن يستعيد قدرته وتعود إليه الذاكرة لأسباب غير متوقعة، وحينما تعود الذاكرة فسيواجه بعدها الحقائق المرعبة التي هرب منها، وستكون تلك الفترة التي نسى خلالها ذاكرته، جزءاً منسياً يغفل عنها العقل في غمار استعادته للذكريات.. لذا فكثيراً ما خشى عمر تلك اللحظة التي سوف يتذكر فيها.. وتساءل كثيراً عما

يمكن أن يجده في ماضيه، ما هي تلك الأهوال التي ضغطت على عقله الواعي حتى عطلته وأعطت بذلك الفرصة لذلك الوحش الرهيب الكامن في أعماقه المسمى بالعقل الباطن ليتدخل وليفرض سيطرته لاغياً كل وجوده السابق من الحياة؟.. أترى ماضيه بمثل ذلك السوء؟.. وإذا كان كذلك فلماذا يتذكره بالمرة؟ وأن تذكره.. أيتحتم عليه أن ينسى جميلة وكل أيامه الحلوة معها؟.. لطالما سأل نفسه ذلك السؤال وكانت إجابته عنه دائما بالنفي، إذ لا يمكن لمثل ذلك الحب الرائع أن يُنسى في لحظة خاطفة، لابد أن يبقى حبه لها نبراساً يهتدى به في ليل الظلمات.. فإن لم يشده حبه لجميلة، فعلى الأقل هناك العرفان بجميلها الذي طوقت به رقبته في إنقاذها لحياته، وماذا لو كانت بحياته السابقة امرأة أخرى ارتبط بها وأحبها وأحبته قبل جميلة؟ ماذا سيكون موقفه من جميلة بعد أن يتذكر الأخرى، أيظل على حبه لجميلة أم سيتغلب عليه حبه القديم؟.. وإن تغلب حبه لجميلة، فما هو ذنب الأخرى التي ربما هي حزينة على ضياعه ما فتئ يراودها الأمل في عودته إليها، ومن يعلم فربما يكون لديه منها أطفال أبرياء يقاسون بلا ذنب؟.. ولكن إن يكن ذلك كذلك، إلا يمكنه الاحتفاظ بالاثنتين معاً؟.. إنه لا يعرف ما يمكن أن يكون عليه تصرف الأخرى، لكنه يعرف مدى كبرياء جميلة، فهي على

استعداد للتضحية بحبها وبكل ما لديها إذا ما تعارض ذلك مع الواجب الذي تضعه دائما وأبدا فوق كل اعتبار، لذا فهو على يقين منذ الآن أن جميلة ستكون هي التي سوف تتخلى عنه وتتركه للمرأة الأخرى لأحقيتها السابقة فيه.. لذا فالأسلم للجميع أن يظل ذلك الماضي مدفوناً حيث هو، فلن يأتي إليه منه سوى التعاسة والشقاء.. دع الماضي يبحث عنه أن كان فيه ما يستحق الرجوع إليه، أما الآن فيكفيه قربه من جميلة وسعادته بحبه لها..

هكذا أمضى عمر أيامه بالمزرعة في دأب وجد واجتهاد، فهناك العديد من الأعمال التي تتطلب مجهوداته لإنجازها، خاصة وأن الشيخ عمران لا يكاد يقوى بتأثير تقدم السن على إنجازها، كان عمله الأكبر ينحصر في رعاية حيوانات المزرعة.. لكنه كثيراً ما كان يكل أمر العناية بها وحراستها للباشا مساعده المخلص الأمين، وينطلق إلى جميلة حيث يقضى بصحبتها لحظات مرحة يستمع إلى أحاديثها المتنوعة في شتى المواضيع، وقد يكون بعضها تافهاً أو بلا معنى، ومع ذلك يستمع إليها بشغف وإنصات، فلقد اكتسب صوتها في مسامعه رنينا عذبا وهو ما فتئ يتغلغل إلى أعماق نفسه السحيقة فيداوى بطلاوته جراحه النازفة ويهدئ خواطره المضطربة ويشعره بالأمان والاطمئنان، فإذا ما انتهت جميلة

من أشغالها أنطلق معها إلى الجبال والأودية المحيطة بالمكان، حتى إذا ما اشتدت حرارة الجو إنطلقا إلى الغدير ليطفئا بداخله حرارة حبهما التي ما فتئت تشتعل وتتجدد لمزيد من السحر والجمال.. عالم كامل من المتعة والخيال اتسعت آفاقه أمامهما بلا رقيب أو حسيب كأنما قد توقف الزمن فبدا الكل صديق..

ولقد تعلم مع الوقت حِرفاً أخرى كصنع السلال من أغصان النخيل والكراسي من جذوع الأشجار والزرابي من صوف الأغنام.. ولقد إستمتع بصيد الأسماك من مجرى النهر الذي يزداد عمقه عند أطراف المزرعة، والذي كان يمثل نهاية عالمه الصغير الذي لم يكن يسمح له بتعليمات مشددة من جميلة باجتيازه خشية تعرضه لحوادث غير متوقعة حينما كان ضعيفاً بتأثير جراحه قبل أن تندمل بعد، وظلت تلك العادة لصيقة به حتى بعد أن تماثل للشفاء، ربما لأنه لم يكن يشعر في نفسه برغبة لتعدى عالمه الصغير الذي وجد فيه كل المُنى وكل الرجاء..

ذات صباح مشرق جميل، حمل عمر سنارته وأدوات صيده في طريقه للغدير أسفل الوادي، أشار إلى جميلة المنهمكة في أعمال المزرعة بتحية عابرة حملت ما بينهما من لواعج المحبة والغرام.. ثم ما فتئت تراقبه في تنقله على حافة الغدير في

التقائه بالنهر، وكلما إصطاد سمكة صاح في سرور كالأطفال، إلى أن أبتعد كثيراً على غير المألوف منه في بحثه عن الأسماك الكبيرة في عمق النهر الملتوي البعيد.. أرادت جميلة أن تنبهه لهذا الابتعاد الغير معتاد، لكنها قاومت شكوكها وهدأت ظنونها.. فلقد شب الآن ونما، تعافى ولم يعد هناك من مبرر لرعايتها الزائدة له، فهو الآن سيدها ورجل البيت من عليه كل الرجاء والإعتماد، حتى بعد أن توارى خلف منعطف الوادي البعيد بقيت تغالب قلقها عليه، وتطمئن خواطرها الثائرة بلا مبرر، فهو مهما ابتعد.. لابد أن يعود.

فجأة وجد عمر نفسه في بقعة جديدة متسعة من النهر لم يألفها من قبل، غاصة بالمارة والصيادين من أمثاله لقربها من القرية، ولقد داخله شعور من عدم الارتياح لوجوده بين أغراب، حيث قد ألف الوحدة والعمل بمفرده داخل المزرعة، لكنهم جميعا كانوا ودعاء، يحيونه بابتسامة مع تمنياتهم له بحظ موفق في صيده بالنهر.. لذا فقد خفت رهبته واستهوته المغامرة خاصة وهو يتصيد الكثير من الأسماك الضخمة من خلال المياه العميقة مما أغراه على التوغل والبعد تدريجيا إلى أعلى النهر حيث اقترب من قنطرة كبيرة توصل بين ضفتيه أراد أن يجتازها بدافع من الفضول وحب الاستطلاع ليرى ذلك الجزء الجديد من النهر الذي لم يسبق له الصيد فيه أو التوغل إليه..

في طريقه إلى القنطرة كان عليه أن يجتاز هضبة عالية وقف أعلاها جمع غفير من الأهالي الفرحين بنهاية الحرب، وقد تسلح فرسانهم ببنادق صيدهم، وهم يحتفلون بنقل رفات بعض شهدائهم إلى أماكنها بمقبرة القرية الكبيرة في موكب شعبي وعسكري مهيب.. فجأة انطلقت رصاصات بنادق الفرسان في الهواء دفعة واحدة، فانبعث لها دوى مخيف.. فإذا بعمر قد قفز لا شعورياً في الهواء وانبطح على الأرض وقد تبعثرت حوله أدوات صيده وقد بدا غافلاً عنها، وهو يزحف على بطنه وينادى على جنوده بأن يتقدموا إلى الأمام وأن يهاجموا الفرنسيين ويصمدوا في دفاعهم جنوب مدينة "آفلو".. لكن المنظر كان مثيراً بدرجة لفتت انتباه فتى صغيراً كان يصطاد بجوار عمر مما جعله يهرول إليه وقد ظنه تعثر أو أصابه مكروه من جراء سقوطه على الأرض، حيث بادره بالسؤال قائلاً: هل أنت بخير يا سيدي؟!..

إنتبه عمر هذه اللحظة فقط لغرابة موقفه، وهو يتلفت حوله بحثا عن جنوده، فاذا به وحده بلا أثر لمظاهر الحرب التي خاضها في آفلو، بل الجميع من حوله يروحون ويغدون في أمان.. حتى هو فقد كان في ملابس مدنية نظيفة بلا أثر لأسلحة قريبة أو معدات حربية.. فسأل الفتى القريب منه وهو يتمالك نفسه قائلاً: أين هي المعركة الآن؟..

أجابه الغلام وقد بدأ يستمتع بحديثه قائلاً: سيدى.. لا توجد الآن معارك.. لقد إنتهت الحرب..

سأله عمر في هلع قائلاً: انتهت الحرب؟.. متى؟..

أجابه الغلام: ألم تسمع بنهايتها بعد؟ لقد انتهت تقريبا منذ شـــهر.

إنتبه عمر لجو الصيف الحار الذي يلف المكان مما نبهه للوقت الذي مضى منذ معركته في آفلو التي كانت أثناء تساقط الثلوج.. لكنه تساءل عما يمكن أن يكون قد حدث له خلال تلك المدة التي مضت من أحداث وجد نفسه غير قادر على تذكرها أو التنبؤ بها، لكنه خشى أن تكون الحرب قد إنتهت نهاية مؤسفة بهزيمة المجاهدين، وأن يكون الفرنسيون على مقربة منه فيقبضون عليه، لذا فقد عاد يسأل الفتى الصغير في حذر قائلاً: أية نهاية انتهت بها الحرب؟..

أجابه الفتى بافتخار قائلاً: لقد انتصرنا.. وتحررت الجزائر.. ولقد رحل عنا الفرنسيون إلى غير رجعة..

شعر عمر بالارتياح يداخله لتلك النتيجة المشرفة التي عاش مع المجاهدين على أمل الوصول إليها، وفي سبيلها بذل الكثيرون أرواحهم.. لكنه بقي قلقاً يتساءل عما يمكن أن يكون قد حدث له طوال تلك الأشهر الماضية التي مرت ما بين الشتاء والصيف الذي يعيشه الآن، وتساءل أكثر عما يمكن أن

يكون قد حدث له أثناء المعركة الأخيرة التي خاضها في آفلو، أن كل ما يذكره هو ذلك الضوء الباهر الذي خطف سمعه وبصره، وذلك الألم الممض الذي شعر به يعصف بكل جسده وهو يترامى بلا وعى بين يدى صديقيه الحميمين البطلين: قدور وبن دحمان.. ترى ما الذي حدث له أو لهما بعد ذلك؟ ولماذا هو سالم معافي، وأين سترته العسكرية التي كان يرتديها؟.. أيكون قد وقع أسيرا في أيدى الفرنسيين؟.. ولكن لو أن ذلك كان قد حدث لأودعوه على الأقل في أحد سجون الاعتقال، أو لأسلموه في النهاية لقيادة المجاهدين، فلماذا هو ليس بينهم الآن؟.. وخفق قلبه بين ضلوعه وهو يتساءل عن احتمال آخر خطير: أيكون قد جبن وفر من المعركة وخانته شجاعته حينما أشتد القتال؟ فهذا هو التفسير الوحيد الذي يبرر وجوده بعيداً عن القواعد العسكرية بلا ملابس رسمية وسط الجبال..

سأل عمر الفتى الصغير قائلاً: في أي مكان نحن؟..

أجابه الغلام وهو يرمقه بنظراته المستطلعة: نحن في قرية الوادي..

سألة عمر: ألا تعرف أين توجد قواعد المجاهدين؟..

أجابه الفتى: أنهم يتبعون الجيش النظامي الآن، ولم يعد هناك وجود للمجاهدين منذ الاستقلال..

سأله عمر: فأين توجد أقرب قيادة عسكرية؟..

أجابه الفتى: في مركز الولاية.. في مدينة تيارت

= وكم تبعد عن هنا؟

= ما يقرب من المائتي كيلومترا..

= وكيف أصل إليها؟

= ما عليك ألا أن تتبع النهر في صعوده إلى أن تلتقى بالطريق العام الموصل إلى تيارت، وهناك يمكنك أخذ أية سيارة عابرة توصلك إلى تيارت..

هرول عمر في اتجاه النهر وهو يستجمع شتات أفكاره، ويجهد عقله لمواجهة الموقف الصعب الذي وجد فيه نفسه، بينما لاحقه الفتى بندائه ينبهه لما خلفه وراءه من أدوات صيده، لكنه كان قد انصرف عنه إلى بعيد، فهز الفتى كتفيه بلا مبالاة وانصرف إلى مكان آخر من النهر يصطاد فيه، إذ ربما سيعود الرجل بعد قليل لأخذ أدوات صيده بعد أن ينهي أشغاله الأخرى.. أما عمر فقد هرول في طريقه وهو لا يجد معنى لكل ما يدور حوله من أحداث، وكان أول ما تبادر إلى ذهنه أن يجرى خلف التل ليصل إلى القرية القريبة بحثاً عن وسيلة مواصلات تنقله إلى القيادة العسكرية الجزائرية ليسلم نفسه إليها، فهو أولاً وأخيراً جندي في القتال، وعليه أن يلتحق بالجيش الذي حارب في صفوفه.. وبعد أن جرى طويلاً في

طريق القرية، توقف في حيرة وعاد يفكر في أمره وعما يمكن أن يكون عليه موقفه لو أنه كان هارباً من القتال كما يبدو من هيئته الآن، لابد أن يحاكموه عسكريا ومن يدرى فقد يعدم إذا ما ثبتت عليه تهمة الخيانة العظمى، ناهيك عن العار الذي لابد أن يلحق به وبعائلته بمصر وهو الذي جاهدا كثيراً ليرفع رأسه ورأس عائلته بل ورأس عبدالناصر عالياً.. لكنه عاد يطمئن نفسه، فما أدراه ما الذي حدث له أثناء تلك الشهور الماضية؟ ربما كان مريضا يعالج من إصابته التي لابد أنه أصيب بها في المعركة الأخيرة من جراء الانفجار الهائل الذي نسى كل شيء بعده، وهذا هو الاحتمال الوحيد المعقول الذي يتماشى مع وضعه الآن، ويبرر عدم قدرته على تذكر الفترة الماضية التي لابد كان مصاباً خلالها فاقداً للوعى والإدراك، لكنه بنظرة فاحصة إلى أعضائه وجدها سليمة كلها إلا من آثار لجروح قديمة اندملت حتى لا تكاد تبين.. وسرعان ما استبعد هذا الخاطر أيضاً، فلو أنه كان نزيلاً بإحدى المستشفيات لأكتشف ذلك ولوجد نفسه مرتديا لملابس المرضى أو لأسلموه إلى إحدى القيادات العسكرية.. بحث طويلاً في ملابسه عن أية أوراق أو مخلفات قد تدله عن هوية معينة يسترشد بها أو مكان قد كان ينزل فيه، لكنه لم يجد سوى

ملابس بسيطة لمواطن عادى بلا أثر لأوراق أو علامات مميزة ترشده، أو حتى لتثبت شخصيته أو من يكون.

جلس عمر على حجر في مفترق الطريق، وقد اعتمد رأسه بين يديه، وقد أخذته الحيرة واستغرقه التفكير، لا يعرف ماذا يفعل أو إلى أين يجب عليه أن يتجه، وقد شعر بنفسه وحيداً منعزلاً، بعيداً عن كل عون أو مرشد أو دليل، كنبت أجتث من جذوره، ففقد بذلك كل ما يربطه بتربته، فتطاير مع الرياح..

الفصل الثاني عشر

أغنيـــــة علـى النهـــــر

حينما تأخر عمر على غير العادة منه، ولم يعد إلى المزرعة برغم مضى ساعات طويلة، واقتراب موعد الغذاء الذي كان لابد أن يعود فيه بأسماكه التي ينتظرها الآخرون على الغذاء.. بدأ القلق ينتاب جميلة لغيابه الطويل.. لذا فسرعان ما أصلحت من هيأتها وارتدت عباءتها الطويلة واتجهت إلى طريق النهر الذي امتد بها مسافة كبيرة دون أن تعثر لزوجها على أثر، إلى أن قاربت المدينة، والجمع المحتفل بنقل رفات الشهداء بالقرب من القنطرة الكبيرة، فلمحت أدوات صيد عمر المبعثرة وسلة أسماكه ملقاة بجوارها دون أن يظهر له أثر..

على مقربة من المكان، كان غلام صغير يصطاد على ضفة النهر وقد راح يتطلع نحوها في فضول، فسألته قائلة: ألم تشاهد الصياد الذي كان يصطاد بتلك الأدوات منذ قليلً.

أجابها الفتى قائلاً: ذلك الذي كان يرتدى الجلابة البيضاء، لقد كان هنا منذ برهة، لكنه اجتاز القنطرة في طريقه إلى القرية.

سألته جميلة وهي تغالب شكوكها: ألم تلحظ عليه شيئاً غير معتاد؟

أجابها الفتى: نعم.. أظنه كان مريضاً، فهو لم يكن يعلم أن الحرب قد انتهت.. أو أننا قد حصلنا على الاستقلال..

أُسقط في يد جميلة وغاص قلبها بين ضلوعها.. فلقد حدث الشيء الذي توقعته وتوقعه الجميع دائماً.. فأعادت سؤال الفتى الذي أبلغها بكل التفاصيل التي أكدت لها استعادته لذاكرته أثر إطلاق النار الجماعي للأهالي في احتفالهم بالشهداء.. وأنه الآن في طريقه إلى مدينة تيارت حيث مقر قيادة الجيش الجزائري ليسلم نفسه إليها.. ومعنى ذلك أيضاً أن يكون قد نسى الفترة التي عاشها معها في المزرعة أو أنها زوجته، وأنها الآن أصبحت غريبة عنه.. فلو أنه تذكرها لعاد إليها، على الأقل ليشكرها على عنايتها به أثناء مرضه، وليودعها قبل رحيلة عن المكان.

كانت قد مرت ساعتان منذ عبر عمر القنطرة في رحلته المرتقبة إلى تيارت.. وفكرت جميلة لو أنها سارت خلفه لأدركته ربما في مكان ما من الطريق قبل وصوله إلى هناك.. لكن ما الفائدة وهو الآن لا يعرفها، وما الذي يمكن أن تقوله له حينذاك، أتخبره بأنها زوجته التي تزوج بها أثناء فترة فقدانه للذاكرة، وتطلب منه العودة معها إلى حياة الصحراء، وأن

ينسى ماضيه مرة أخرى، وأن ينسى بلده والحرب وكل ما قد كان؟.. لكنها تعلم أنها بذلك تطلب المستحيل، ولقد كان تواجده لديها رهين بتلك اللحظة التي يتذكر فيها ماضيه، ولقد تذكره وسعى إليه، وسلك الطريق الوحيد الذي يجب عليه أن يسلكه، وهو أن يسلم نفسه للقيادة الجزائرية تمهيدا لإعادته إلى وطنه، حيث ينتظره هناك أهل وأحباء، وربما يعود إلى تلك المرأة الأخرى التي لابد عرفها وأحبها قبل سفره إلى الجزائر، وفي هذه الحالة فلا حقوق لها فيه، وعليها أن تقنع منه بما قد كان حتى الآن..

لكنها مع ذلك ظلت تشعر بمدى مسئوليتها عنه، وأنه مازال طفلها الصغير الذي عليها أن تهتم به وترعاه، حتى تصل به إلى بر الأمان.. وما أدراها أنه قد لا يضر نفسه أو يقع في المتاعب أثناء رحلته الصعبة إلى تيارت؟ وهو يسير وحده في بلاد غريبة لم يستتب فيها الأمن بعد، وربما يقع في المتاعب أو يتعرض للمشاكل بسبب ذلك، خاصة وأنه مفلس بلا نقود، والتي لم يحملها معه طوال فترة تواجده بالمزرعة، بالإضافة لعدم حمله لأية بطاقات أو أوراق تعريف للشخصية، مما يحمله المشقة ويعرضه للأخطار..

كان النهار ينحدر إلى نصفه الثاني، في الوقت الذي أفلت فيه جميلة راجعة إلى المزرعة، ريثما تستعد للرحلة التي حتمها عليها الواجب إلى تيارت.

في اللحظة التي توارت فيها جميلة في طريق العودة إلى المزرعة، ظهر عمر في توهانه الأعمى وهو ما فتئ يتخبط في بحثه عن طريق يوصله إلى تيارت، كان أثناء جلوسه الطويل على الحجر في مفترق الطريق قد قلب أفكاره على شتى نواحيها، وإنتهى إلى أن يسلم نفسه إلى القيادة الجزائرية فهو الطريق الوحيد أمامه الذي يعرفه مُنهياً لحيرته.. في طريق عودته من القرية.. مر على الفتى الصغير الذي هم بأن يناديه لينبهه إلى أدوات صيده وليخبره بالمرأة التي سألت عنه واهتمت بأمره منذ قليل، لكن عمر كان في هرولته واضطرابه أبعد ما يكون عن الإنصات أو الالتفات لما حوله، لذا فسرعان ما صعد أعلى النهر وهو يسلك طريقه إلى تقاطع الطريق السريع الموصل إلى تيارت، وسرعان ما اختفي عن أنظار الفتى، الذي هز رأسه بلا مبالاة وهو يستأنف صيده البليد، دون أن يفهم معنى لما تتالى أمامه من أحداث..

في المزرعة.. سرعان ما تجهزت جميلة لرحلة سفرها الطويل إلى تيارت، فاستأذنت من أبويها لتدرك الحافلة الأخيرة المتجهة إلى آفلو التي وصلتها مع الغروب، حيث نزلت ضيفة

عزيزة في قصر الشريف بن أحمد، وهشت لها الأميرة عائشة التي أحاطتها بكل العطف والحنان، فكانت لها كأم رؤوم، مما أعطى لجميلة الفرصة لتخرج كل شجنها ولتفرج عن همها..

سألتها الأميرة عائشة بعد أن علمت بقصتها مع عمر قائلة: ماذا ستفعلين الآن يا ابنتي؟..

أجابتها جميلة قائلة: أنه جزء من واجبي نحو عمر، يتحتم علي أن أرعاه طالما هو في الجزائر، إلى أن يعود إلى بلاده بسلام..

أجابتها الأميرة عائشة وهي تمسك بيديها في تشجيع قائلة: بارك الله فيك يا ابنتي، وإنه لموقف شجاع منك يستحق الإكبار.. لكنني اسألك ماذا ستفعلين بشأن علاقتكما معا؟

أجابتها جميلة بانكسار: لا شيء يا أمي.. لقد أبلغني الدكتور سرباح أنه سوف ينساني بمجرد عودة الذاكرة إليه.. ولقد كنت أعيش دائما في انتظار هذا اليوم المنهي لعلاقتنا معا.. وها قد جاء، وأنا على استعداد لتحمل كل تبعاته، فليس لي أن أشتكى أو أتراجع، فالواجب يأتي أولاً، والواجب يحتم عودته إلى بلاده بعد أن انتهت مهمته هنا..

أجابتها الأميرة عائشة وهي تحاول زرع الأمل في نفسها: من يدريك يا ابنتي، فربما يتذكر كل شيء، وربما ذهب

لتصفية حساباته مع الجيش، ثم يعود إليك بعد ذلك بأسرع مما تعتقدين..

أجابتها جميلة وهي ترفع رأسها إلى أعلى بشجاعة قائلة: سنرى يا أمي.. ولكنني في هذا الوقت فإن على واجب يجب أن أنتهي منه بأسرع ما يمكنني ذلك، هو أن أطمئن على عمر حتى لحظة رحيله عن الجزائر..

أجابتها الأميرة عائشة بإشفاق قائلة: خلى عنك هذا الأمر يا بنيتي، فدعينا نقوم به نيابة عنك، إذ يمكن للشريف بن أحمد أن يرسل بعض أعوانه للقيام بتلك المهمة والاطمئنان على وصول عمر إلى القيادة سالما..

أجابتها جميلة بإصرار: بل أن هذا الدور لا يقوم به أحد غيري، إذ أنه جزء من واجبي نحو عمر وأظنني قادرة على القيام به على خير وجه، والشكر على كل حال على المساعدة..

أجابتها الأميرة عائشة بعد إمعان النظر قائلة: معك الحق يا ابنتي، فإن لك أن تقابليه قبل أن يرحل إلى بلاده، وأنا أعلم مدى شجاعتك وحكمتك، وليكن الله في عونك دائما، فقط لا تترددي في طلب العون منا إذا أعوزك ذلك..

أجابتها جميلة: سأفعل يا أمي..

باتت جميلة ليلتها مُسهدة في فراشها وهي تفكر في عمر، تتساءل في قلق عما يمكن أن يكون قد حدث له، وكيف يا ترى قد بات ليلته تلك حتى الصباح..

* * *

بعد أن عادت الذاكرة إلى عمر، تخبط كثيراً في شتى الاتجاهات وتردد كثيراً قبل اتخاذ القرار بتسليم نفسه إلى القيادة الجزائرية بمدينة تيارت، ووقع في حيرة شديدة وهو يتفقد ملابسه الريفية البسيطة التي وجد نفسه يرتديها، فلم يجد بداخلها نقوداً أو أية أوراق تعريف تساعده على التعرف على المكان الذي أتى منه أو لتدله على الأحداث الغامضة التي اكتنفت الفترة السابقة والتالية على معركته الأخيرة بآفلو .. لم يجد سوى خاتم من الفضة بإحدى أصابع يديه عليه صورة مرسومة لأسد يمسك سيفاً لا تدل على معنى بذاته، فلا اسم أو نقش يدل على مكان أو زمان.. تفقد يديه فإذا بها خشنة شأن من قضى وقته في أعمال شاقة، وتساءل عما إذا كان ذلك بسبب عمله الشاق بمعسكر من معسكرات الاعتقال، وأين كان معتقلاً؟ أعند الفرنسيين باعتباره ثائراً، أم عند الجزائريين باعتباره خائنا؟.. أم قد لا يكون هذا ولا ذاك، بل من عمله كفلاح أجير بإحدى المزارع التي لابد قد عطف عليه أهلها فآووه بعد إصابته ووفروا له الطعام والكساء نظير عمله الشاق

بها؟.. وعلى كل فلا معنى لشيء من هذا الآن بعد أن عرف نفسه وعرف ما يجب عليه أن يفعله.. إذ ليس أمامه إلا أن يتبع تعليمات الصبى في الوصول إلى تيارت.. لذا فقد سار مع النهر في الاتجاه الذي أشار إليه، وهو يخوض بأقدامه في مياه النهر الضحلة، والنهر ما فتئ يقوده في التوائه عبر الهضاب والسهول في ذلك الأصيل الدافئ، إلى أن وصل مع الغروب الشاحب إلى تقاطع طريق السيارات السريعة الموصل إلى تيارت..

كانت حركة السيارات قليلة على الطريق خاصة في ذلك الوقت المتأخر حيث يمتنع الكثيرون عن السير عليه لوحشته ووعورته ولعدم توافر وسائل الخدمة والأمان على جوانبه، لذا فقد أمسى عليه الليل وهو مازال يجلس وحده على حافة النهر بملابسه المبتلة يرتجف من برودة الليل الصحراوي القارس، ويرتجف أكثر من تداخل أفكاره الصاخبة التي ما فتئت تضطرم في داخله، حتى لكأنها شلال عنيف، وكلما أهلت سيارة على الطريق هب لها ملوحاً بيديه لإيقافها، لكنها كانت تستمر في سيرها على المياه الضحلة التي تنساب على الطريق في اجتياز مجرى النهر إلى مجراه من الناحية الأخرى مما كان يسمع له خرير وصرير.. وما كان لأحد أن يتوقف لينقله بسيارته نظرا لهيئته الرثة ووقوفه المريب في ذلك المكان

الموحش في تلك الساعات المتقدمة من الليل.. لذا فقد كف بعد برهة عن التعرض للسيارات المارة بعد أن يئس من أن تتوقف إحداها له، وانزوى تحت شجرة بلوط ضخمة ظللت مجرى النهر، وهو يحاول التدثر في ملابسه الخفيفة جلباً للمزيد من الدفء، واستجماع أفكاره المشتتة..

بالقرب من منتصف الليل، توقفت شاحنة كبيرة لنقل الخراف بجوار النهر للتزود بالماء ولسقاية الخراف العطشى التي أنهكتها الرحلة الطويلة..

بقى عمر في مأواه تحت شجرة البلوط يتأمل الخراف في شربها من ماء النهر، بينما الرعاة يتحركون في ضوء المصابيح الغازية الخافتة، وهم يصخبون وينادون بعضهم البعض للتجمع حول كومة من الأعشاب التي أضرموا بها النيران جلبا للدفء في هذا الوقت البارد من الليل، بينما أعتلى النار أبريق كبير من الشاي الجزائري الأخضر الذي انتشرت رائحته الزكية فعبقت الأنحاء، إلى أن وصلت إلى عمر مع دفء النيران المشتعلة فنبهت حواسه الخامدة، وجعلته ينهض من مكانه، وتقدم نحو الرعاة علهم يساعدونه في وحشته وانقطاعه، وربما أمدوه بقليل مما لديهم من طعام وشراب، بعد أن عضه الجوع بنابه، وقد ظل يومه الطويل بلا طعام.

جفل الرعاة قليلاً من مرآه الموحش، لكن سماته الطيبة وهيأته الرثة ما لبثا أن طمأناهم إلى قلة شأنه وعدم خطره، فما لبثوا أن هشوا له ودعوه إلى طعامهم الذي أقبل عليه بالقدر الذي أزال جوعه، ثم أمدوه بكوب من الشاي الساخن الذي احتساه برفق وهو يصطلى الدفء المنبعث من النيران المشتعلة، بينما أنبعث صوت يغني على أرغوله في هدأة الليل، قائلاً:

جارى يا محمود.. دبر علي.. يا جارى دبر علي

الناس تبات رقود.. وأنا النوم محـــروم علي،،،

كان لعطف الرعاة على عمر أثره الغير متوقع، بعد عزلته الموحشة في صحراء قاسية، لم يشعر بنفسه إلا وأحدهم يسأله عن سبب الدموع التي انسابت على خدوده المتوهجة، لكنه سرعان ما جففها بملابسه وهو يعزوها إلى النيران والدخان المنبعث منها، أستجمع شتات عواطفه، وتجلد أمام الرعاة الشداد الذين يكرهون الضعف ويحترمون الجلد والقوة والمثابرة.. لذا فسرعان ما استردوا إحترامهم له وهو يشاركهم أعمالهم في سقاية الأغنام وتحميلها بالسيارة.. لذا فلم يبخلوا عليه بمكان بينهم لينقلوه معهم في طريقهم الموصل إلى تيارت..

في الصباح الباكر كان وصول شاحنة الخراف إلى تيارت بعد رحلة شاقة أرهقت عمر الذي لم يكد يصدق بوصوله سالماً

بعد أن أزهقته رائحة الأغنام النتنة.. لكنه ما كاد يخرج من مكمنه بينها ويشم رائحة هواء الصباح النقي حتى ذهب عنه كل ما اعتراه من غثيان، وأستعاد نشاطه كاملاً وهو يتجه إلى الثكنة العسكرية التي احتلت أعلى الربوة المطلة على المدينة وقد تعالت أسوارها في شموخ، وأحيطت بالحراس المدججين بالسلاح، بينما زينت بوابتها الضخمة بمدفعين أثريين كبيرين وقف على حراستهما بعض الجند في انتباه..

تقدم عمر من جنود الحراسة، حيث قدم نفسه لأحدهم باسم الضابط "عمر هاشم" من جنود فرقة: جبل عامور، وطلب مقابلة القائد المسئول..

لم يصدق جندي الحراسة الذي تقدم منه عمر بأن هذا الرجل الضئيل رث الثياب الذي يتكلم بلكنة أجنبية يمكن أن يكون ضابطا تابعا لقواته، لذا فقد إحتجزه في جانب من الثكنة ريثما أبلغ أمره إلى الضابط النوباتجي.. وسرعان ما أتى رد الفعل لذلك سريعاً وعنيفاً، إذ ما كاد ضابط الحراسة يسمع الاسم الذي أبلغ له، حتى خرج من مستقره مهرولاً وهو يصلح من ملابسه ليستقبل هذا الـ عمر بنفسه وهو يلقى بتعليماته المشددة بتكتم أمره، ثم إصطحبه معه إلى حجرة القيادة، حيث أجرى الاتصالات بشأنه مع القيادة العليا بالعاصمة، التي

أصدرت أوامرها بالتحفظ على عمر، وترحيله إلى العاصمة تحت الحراسة المشددة على وجه السرعة..

في نفس الوقت المبكر من الصباح الذي أسلم فيه عمر نفسه إلى الحامية العسكرية بتيارت، كانت جميلة تستقل الحافلة اليومية الوحيدة التي تغادر آفلو في طريقها إلى تيارت كل صباح، حيث وصلتها ضحى والناس في أشغالهم يغمرون شوارع المدينة وأسواقها التي عادت إليها الحركة وعمها النشاط بعد جلاء المستعمر عن البلاد.. برغم آثار الدمار التي كانت تلحظها العين هنا أو هناك لحرب ضروس جرت بالمكان وخلفت بيوتا تهدمت ونفوساً تهشمت..

بمجرد أن وصلت جميلة إلى المدينة، اتجهت إلى حاميتها أعلى الهضبة، حيث استسمحت الجندي الواقف على بابها للدخول..

كانت الأوامر مشددة لدى حراس الحامية بمنع اتصال المدنيين بالعسكريين المرابطين داخل الحامية، خاصة في تلك الظروف العصيبة التي عمت فيها الاضطرابات أنحاء البلاد عقب الاستقلال، والتي استدعت المزيد من الحزم والانضباط.. خاصة لمنع النساء اللاتي كثر لجوئهن إلى الثكنات لزيارة ذويهم المجندين بها، أو للسؤال عن المفقودين في القتال، أو لملاحقة بعض الجنود الفارين من التزاماتهم العائلية أو

ارتباطاتهم العاطفية بنساء المدينة، مما كان يسبب الارتباك داخل الثكنات، ودعا القيادة لمنع الزيارات إلا في أوقات محددة متفق عليها، لم يكن من بينها اليوم الذي أتت فيه جميلة إلى الحامية، لذا فما كان من جندي الحراسة الذي خاطبته جميلة إلا أن أغلظ لها في القول، وقد ظنها في بادئ الأمر إحدى النساء المستهترات اللاتي يلاحقن الجنود بغية المال والربح السريع.. لكنه سرعان ما أدرك خطأه وهو يتبين الفارق بين تلك المرأة المحتشمة والنساء الأخريات، وهي تكلمه بعزة نفس وكبرياء، هامة منتصبة ورأس مرتفع في شموخ، مما أجبره على إجابتها إلى مطلبها وسمح لها بالدخول لمقابلة المسئولين داخل الثكنات، وقد تبين له من لهجتها الحاسمة وأسلوب حديثها المهذب، أهمية الأمر الذي هي بصدده والسؤال عنه.

في داخل القلعة، كان الكل في حركة دائبة وشغل دائم لملاحقة متطلبات الحالة العصيبة التي تمر بها البلاد، وبالكاد توصلت جميلة لمكتب العلاقات العامة الذي يشرف على إدارته والعمل به بعض الجنود من الرتب الصغيرة، حياها أحدهم ببشاشة وسألها عن حاجتها، فأجابته جميلة بصوتها الخفيض قائلة: سيدى.. إننى أبحث عن ضابط ألتحق بقوة الحامية يدعى عمر..

بعد أن قلب الجندي كثيراً في أوراقه، رفع رأسه ليجيبها قائلاً: سيدتي.. لا يوجد عندنا ضابط بهذا الاسم..

همست جميلة في أذنه بصوت أشد خفوتاً: أرجوك أن تعيد البحث، فالمفروض أنه ألتحق بالحامية منذ فترة وجيزة، ربما ساعات قليلة..

تبادل الجندي حديثاً خافتا مع بعض زملائه، ثم عاد إليها وقد بدت على وجهه إمارات الاهتمام، وهو يسألها قائلاً: هل يمكن لي أن أعرف لماذا تريدينه على وجه التحديد..

أجابته جميلة بصوت مشوب بالرجاء والأمل قائلة: سيدي.. لا مطمع عندي سوى أن أطمئن على وصوله إليكم سالما.. لذا أرجوك أن تجيبني على السؤال..

كانت جميلة حتى تلك اللحظة محتجبة تحت قناع الوجه الذي لا يظهر سوى العينين على عادة الجزائريات، لكنها فجأة أزاحت قناعها فبدا وجهها الوضاح مشرقاً جذاباً كأنه الصباح، وقد انعكست عليه كل ما أعتمل بصدرها النبيل من مشاعر بكر نقية، لم يملك معها الجندي الذي تخاطبه إلا أن يجيبها في احترام وخشوع قائلاً: سيدتي.. لقد وصل إلينا فجر اليوم ضابط بالاسم الذي ذكرت.. فإن كان هو ما تعنين، فقد تم إرساله هذا الصباح إلى بلاده تحت الحراسة المشددة..

سألته جميلة باهتمام قائلة: ولماذا الحراسة المشددة؟؟..

أجابها الجندي وقد استرد حذره قائلاً: لا داعى سيدتي لأن أذكرك بأن لدينا أوامرنا المشددة التي تمنعنا عن الكلام مع المدنيين أمثالك في أسرارنا العسكرية..

أجابته جميلة وقد أحمر وجهها من الغضب قائلة: لقد كنت في الثورة أيها الجندي.. قبل أن تكون أنت..

أجابها الجندي وهو يحنى رأسه باحترام أمام لهجتها الواثقة قال: هذا هو ظني تجاهك يا سيدتي، برغم أنني لا أعرفك من قبل، إلا أننى أشعر بصدق قولك ونبل مقاصدك.. لذا فقد أجبتك لما تطلبين معرفته برغم سريته الشديدة.. ولك أن تطمئني الى أن الضابط: "عمر هاشم".. قد وصل إلينا بسلام.. فهل من خدمة أخرى يمكنني أن أؤديها لك؟..

شكرت جميلة الجندي الصغير بعبارات مقتضبة، وانصرفت من المكان وهي تغالب دموعها حتى لا تنهار، وقد أحست بيد قاسية تعتصر قلبها في قسوة لتخبرها بأن فراقها لحبيبها وزوجها عمر، هو في هذه المرة فراق أبدي لا رجعة فيه.. لكنها لم تستطع أن تتماسك طويلاً، إذ ما كادت تتوارى خلف القلعة حتى اتكأت على حجر كبير تحت سورها الضخم وأطلقت لدموعها العنان.. لم تكن في وضع يسمح لها بأن تلاحظ ذلك الضابط الواقف بأحد نوافذ القلعة العليا وهو يحدق فيها بصره في نظرة متأملة فاحصة طويلة، وهي في خلوتها

تظنها وحيدة مما جعلها تكشف النقاب عن وجهها لتجفف دموعها بعيدا عن الأنظار، دون أن تفطن لذلك الضابط الذي يراقبها من أعلى القلعة، وأنه بعينه دون سواه، حبيبها وزوجها عمر الذي قطعت من أجله كل تلك المسافة الطويلة، على أمل أن تراه..

لم يكن الجندي الصغير كاذباً في إبلاغه لجميلة نبأ ترحيل الضابط: عمر هاشم.. إلى بلاده تحت الحراسة المشددة.. لكنه أجابها بما في علمه بشأن: عمر.. حيث رأت قيادة المعسكر أن في إذاعة نبأ سفر الضابط الغريب إلى بلاده، خير مانع لجنودها من الاسترسال في فضولهم أو معرفة المزيد من أخباره التي أرادتها القيادة العليا سراً من الأسرار العليا للبلاد.. هذا في الوقت الذي اتخذت فيه الإجراءات الحثيثة لترحيله عن المكان إلى العاصمة تحت ستار ظلام الليل الكثيف..

الفصل الثالث عشر

لعبـة الحيـاة

في الغرفة البعيدة التي أفردت للضابط الغريب: عمر هاشم بجانب القلعة الجنوبي بعيداً عن العيون، ظل ساعات طويلة ينتظر أمر ترحيله إلى العاصمة الجزائرية، الذي كان مقرراً في الصباح الباكر، لكنه ظل يتأخر مرات عديدة دون أسباب معروفة، ربما بسبب الارتباك وكثرة الأعمال بالحامية الصغيرة التي واجهت العديد من مشاكل ما بعد الحرب، مع قلة الإمكانيات للاستجابة لها أو حلها بالسرعة والدقة اللازمين..

في انتظاره الطويل، عن له أن ينظر من النافذة المطلة على السهل المترامي ناحية الشرق، فخطف بصره وقلبه منظر لامرأة جميلة لاذت بصخرة كبيرة تحت سور القلعة وأرسلت لدموعها العنان في بكاء مر ونشيج مفجوع.. كان منظر المرأة الجميلة مؤلماً، كأنما تبكى حبيباً غاب أو عزيزاً فقدته، وهي في عزلتها لا تحس بوجوده أو مراقبته لها مما جعل الدموع تنهمر من عينيها مدراراً، معبرة عما إعتمل بنفسها من لواعج الأسى والشقاء.. ولقد تساءل كثيراً في إشفاق عن سر تلك الدموع الغالية التي جادت بها تلك العيون الجميلة، وما هو شأن تلك المرأة التي استحوذت على مشاعره فجعلته أقرب ما

يكون للإحساس بشقائها لكأنما يعرفها من قبل.. إحساس قوي خُيل إليه أن حنينه إليها راجع لعلاقة قديمة ربطت بينهما أثناء فترة فقدانه للذاكرة، وأنها ما بكت إلا حزنا على غيابه عنها وفقدانها إياه، وربما لو ناداها أو نظرت نحوه لأمكن لها التعرف عليه وإبلاغه من أمره ما خفي عليه.. لكنه سرعان ما ركن إلى جانب التعقل، واستبعد أن تكون المرأة الجميلة ذات معرفة أو صلة سابقة به، فأين في وسط هذا الفراغ اللامتناهي يمكن لأحد أن يعرفه.. إن هي إلا أمنيات واهية يتعلل بها بأمل أن يعرف شيئاً من ماضيه المجهول.. وبكفاية تلك المرأة ما لديها من مشاكل مفجعة دعتها لتذرف من أجلها الدموع الغزار، وعليه أن يختفي بمشاكله عن طريقها، فلا يهتك سترها أو يقحم نفسه على خلوتها.. لذا فسرعان ما استدار مبتعدا وهو يغلق النافذة.

كان لصوت انغلاق النافذة تأثيره المفاجئ على المرأة الجميلة "جميلة"، بحيث أمكن انتزاعها من براثن الحزن الذي افترسها في خلوتها، فأسرعت تجفف دموعها وهي تتطلع ناحية النافذة التي أُغلقت، لتشاهد من خلال بصرها الغائم السابح في الدموع صورة باهتة لرجل يقف خلف النافذة، ما لبث أن استدار مبتعداً، في الوقت الذي أرخت فيه حجابها على وجهها وهي تستأنف طريقها مبتعدة عن المكان إلى أسفل الوادي..

كان النهار قد ولى حينما حاولت جميلة البحث عن وسيلة مواصلات تعود بها إلى آفلو.. لكنها لم تجد سوى حافلة وهران التي تأتى إلى تيارت محملة بالركاب في حوالى الساعة العاشرة مساء، ثم ما تلبث أن تغادرها إلى آفلو لتصلها قرب الفجر، وكيف سيكون انتظارها في الشوارع الخالية من المارة ليلاً والمكتظة بالسكارى وقاطعي الطريق؟.. وماذا لو كانت حافلة وهران كاملة العدد ولا مكان فيها لمزيد من الركاب؟.. لذا فإن عليها أن تدبر أمر مبيتها في تيارت حتى الصباح ليمكن لها أن تأخذ حافلة آفلو الصباحية حيث السفر آمن والأماكن الخالية متوافرة.

لذا فسرعان ما فكرت جميلة في أن تقضي الليلة بضيافة حميها السابق الأستاذ "سحنون" وحماتها "آمنة"، فهي لا شك واجدة عندهما كل عناية وترحيب، وبجهد يسير استطاعت الوصول إلى منزلهما الكائن على مشارف الهضبة الغربية للمدينة، لكنها منيت بخيبة أمل شديدة وهي تكتشف خلوه من السكان، شأنه شأن الكثير من المنازل المجاورة التي هجرها سكانها بسبب ويلات الحرب، في فرارهم إلى الجبال أو الريف البعيد ريثما تهدأ الأمور ويتبدل الحال، وتمر مشاكل ما بعد الحرب بسلام.

لكنها سرعان ما تذكرت أستاذها الدكتور سرباح، الذي علمها الطب والتمريض، وإليه يرجع الفضل في شفاء عمر، وكان شاهدها على زواجها منه، لذا فقد أسرعت من خطاها لتصل إلى المستشفى قبل الليل، حيث وجدته غاصاً بالحركة مكتظا بالمرضى، ولكم داخلتها السعادة لعثورها على الدكتور سرباح الذي وجدته منشغلاً كدأبه في إجراء العمليات الصعبة ورعاية الحالات المستعصية، فيهبها بإذن من الله البرء والشفاء.

أما الدكتور سرباح، فلم تكن سعادته برؤيتها بأقل من دهشته لحضورها الغير متوقع، وقد هاله القلق البادي على محياها، لذا فقد عمل جهده على أن يوفر لها كل مظاهر الحفاوة والراحة بجناح الأطباء، قبل أن توافيه على مائدة العشاء التي ألتف حولها العديد من الأطباء والممرضات، فكانت الأمسية بمثابة حفل تكريم لجميلة، تقديراً لجهودها في العمل الطبي والوطني اللذين شاركت فيهما أثناء الثورة بتفان وجد وإخلاص.

بعد العشاء إنتحى الدكتور سرباح جانباً بجميلة، مهيئاً بذلك الفرصة لحديث مطول تطلق فيه لمكنونات نفسها العنان.. وسرعان ما أنست إليه جميلة فأفضت إليه بقصتها كاملة.. فمن مثله من البشر يحمل ما يحمله من قلب كبير يمكن أن

يتسع لكل آلامها ويزيل عنها شقاءها.. ولقد وجد الدكتور سرباح الفرصة مواتية ليوجه إليها النصح والإرشاد أيضاً، فهما أولاً وأخيراً من جنس المجاهدين في سبيل الله والحرية، يساند بعضهم بعضاً ويقف كل بجوار صاحبه صفاً واحداً متراصاً في الشدائد والأزمات.. لذا فقد طلب منها أن تنسى عمر وأن تبدأ حياتها من جديد.. إذ لم يكن اجتماعهما وفراقهما إلا رهين بقضية شعب وحرب ودولة.. أرادت لهما اللقاء والفراق معاً.. وهكذا هي الحروب دائماً، تفرض علينا الكثير من التضحيات التي يتحتم علينا أن نقبلها صاغرين..

حينما لاحظ الدكتور سرباح شحوب وجهها مع هزال جسدها، أصر على الكشف عليها وفحصها، وكانت المفاجأة حينما اكتشف أنها حامل في مرحلة مبكرة من حملها، لذا فقد نصحها بالخلود إلى الراحة والبعد عن الانفعالات مع التغذية الجيدة حتى تضع حملها بسلام..

بقت جميلة لحظات فاقدة اللب والاحساس وهي تعانى من تأثير صدمتها العصبية العنيفة باكتشافها لنبأ الحمل الذي لم يدر لها بحسبان.. فها هي ذي الحياة تلعب معها لعبتها الأثيرة المفضلة، تلك التي طالما لعبتها معها من قبل مرات.. فهي في اللحظة التي تسلبها عزيزاً لديها.. عمار.. سارعت الحياة فوهبتها عمر عوضاً عنه، ذلك الذي جاءها جريحاً غائب

الوعي معلقاً ما بين الحياة والموت، فكافحت من أجله إلى أن أعادته إلى الحياة، وما زالت تعتني به وترعاه، تأخذ بيده كما تأخذ الأم بيد وليدها إلى تمام النضج والنماء، ولتشاركه أحلى أيام سعادتهما معا.. ثم ها هي ذي الحياة تكرر نفسها فتلعب نفس اللعبة من جديد.. ففي نفس اليوم الذي فقدت فيه حبيبها وزوجها عمر، ها هي ذي الحياة تهبها البديل عنه.. مخلوقاً جديداً مازال مستكنا في أحشائها لم ير الحياة بعد، ينتظر دوره لتأخذ بيده ليكبر وينمو.. ويملأ الحياة..

لكنها أحست بغريزة الأمومة تغشاها هذه المرة بعنف.. فالخلق هنا ينبع من داخلها، ووليدها هذه المرة من لحمها ودمها، شعور جديد عليها غير ما ألفته وإعتادته تعيشه لأول مرة وتحس به يملأ دنياها التي خالتها منذ لحظة خالية، فإذا بهذا الشعور يجتاحها ليأخذ بيدها بعيداً عن الأشباح التي ما فتئت تطاردها في حياتها، فتقذف بها بين براثن أقدار شيطانية مجنونة ما فتئت تلون حياتها بألوانها الكئيبة.. إلى أن كانت اللحظة المواتية ها هنا للخروج بسفينتها والإفلات بها من بين براثن تلك الأقدار المدمرة، بعيدا عن المهالك والأخطار.. لتكن حياتها الجديدة هبة من المولود الجديد وإليه.. ومن يدرى فربما تكون حياتها الجديدة أسعد من السابقات..

في الصباح كان وداع جميلة للدكتور سرباح، بعد أن شكرت له جهوده معها ونصائحه لها، وهو ما فتئ يوصيها خيراً بجنينها المستكن، لم ينس أن يطمئنها على عمر وأنه سوف يوالى اتصالاته بشأنه مع القيادة العسكرية حتى يطمئن على وصوله إلى بلاده سالما..

استقلت جميلة حافلة الصباح التي أوصلتها إلى آفلو قرب الظهيرة بعد رحلة شاقة طويلة، فأسرعت بمغادرتها لتلقى بنفسها بين أحضان والدتها الثانية الأميرة عائشة، التي ضمتها إلى صدرها ثم راحت تمسح على ظهرها بيديها الحانيتين لتزيل ما شابها من أشجان الرحلة ووعثاء الطريق..

كان أول ما أثلج صدر الأميرة عائشة، هو ذلك المظهر الهادئ والإحساس المتوازن البادیان على محيا جميلة، مما جعلها تبدو وقد تفاعلت مع الأحداث وانصهرت معها في بوتقة الألم، لتعيش من خلالها لحظة قدرية حزينة، لكن في تقبل وتسليم..

ثم سرعان ما سعدت الأميرة عائشة لتلك الأنباء التي أبلغتها بها جميلة عن عودة عمر إلى بلاده سالماً.. فلها أن تهدأ وأن تستريح الآن بعد أن عاد الغريب، وردت الأمانة لأصحابها كاملة وغير منقوصة.. وعلى الوجه الأكمل السليم..

لكن سعادتها الكبرى قد كانت لنبأ حمل جميلة المستكن بين أحشائها، فراحت تحتضنها بين يديها مهنئة، وهي تمنيها بغد مشرق جميل..

في المساء.. كان رحيل عمر إلى العاصمة الجزائرية في سيارة مغلقة وحراسة مشددة، بحيث منع عنه النظر إلى الخارج أو الاتصال بالآخرين، إلى أن أودعوه مع الفجر إحدى الثكنات العسكرية في وسط العاصمة، محتجزاً بإحدى غرفها المنعزلة البعيدة، انتظاراً لمثوله المرتقب أمام كبار الضباط والمسئولين..

في البداية.. كان عمر يعزو السبب في تلك الإجراءات المشددة لحرص القيادة الجزائرية على تكتم أمره حفاظاً على السر الكبير الذي دعا الجزائر للاستعانة بالمصريين في حربها المقدسة ضد الغاصبين.. لكنه سرعان ما أدرك بأن وراء تلك التصرفات الغريبة والحراسة المريبة، أمراً بالغ الخطورة لا يمكن أن يمت بصلة لتواجده السري بالجزائر، خاصة وقد انعدمت السرية بعد انتهاء الحرب وحصول الجزائر على الاستقلال، الأمر الذي لا يجد له ما يبرر إساءة معاملته والتضييق عليه، حتى انتهي أمره حبيساً داخل زنزانة كالحة، مثله مثل المجرمين المودعين في السجون.. لكنه ما فتئ يهدئ من

خواطره.. فما عليه إلا أن يصبر وينتظر، وعن قريب يكون لقاءه مع الضباط الكبار فيكشفون عما خفي عليه من أمـور..

في صبيحة اليوم التالي، كان لقاؤه بثلاثة من كبار الضباط الجزائريين الذين احتلوا أماكنهم خلف مائدة مستطيلة، بينما وقف أمامهم عمر وقفته العسكرية في انتباه، وقد شد قامته انتظاراً لسؤالهم إياه..

في البداية ترفق الضباط مع عمر في الحديث، وهم يسألونه أسئلة روتينية معتادة، وهو ما فتئ يقص لهم من أمره ما علمه، عن الأحداث التي سبقت معركة آفلو، وإنتهاءً بعودته إلى الثكنات العسكرية في تيارت حيث سلم نفسه، أما الفترة الواقعة فيما بين الحدثين فهي من ذاكرته نسيا منسياً، لا يعلم عنها شيئاً ويجهل ما حدث له أثنائها من أحداث..

ثم ما لبث الضباط أن اشتدوا معه في السؤال وأغلظوا له الحديث، وهم يجابهونه بشكوكهم نحوه واتهاماتهم له، بأنه قد فر من القتال الذي اشتد في معركة آفلو خوفا وجبناً ولاذ بالجبال، لم يظهر ولم يسلم نفسه إلا بعد أن انتهت الحرب، ليدعي فقدان الذاكرة..

طوال حديثهم معه استمع إليهم عمر في انتباه كأنما هم يفكرون له.. لقد رتبوا الأحداث واستمدوا منها دلالتها المنطقية الوحيدة التي تبادرت إلى ذهنه مرات من قبل.. وهي أنه جبُن

وفرّ إلى الجبال بعد أن إشتدت المعركة في جنوب آفلو، وعليه لكى يثبت كذب هذا الادعاء أن يقدم الدليل على فساده، فإن كان قد أصيب حقاً، فأين هي تلك الإصابات التي لا يجد لها أثرا في جسده السليم المعافى؟.. أما عن فقدان الذاكرة فهي قصة مكررة معادة سمعها من خونة جبنوا وفروا من المعارك، ولم يكن لهم من جزاء لدى المجاهدين سوى الإعدام رمياً بالرصاص.. أيكون قد جبُن وفرّ حقاً؟.. أنه لا يدرى، لكنه التفسير المنطقي الوحيد الذي يبرر تواجده بعيداً عن المعركة طوال هذا الوقت سليما معافى.. لذا فما أصعب الدليل على براءته وهو بحالته تلك أقرب إلى الإدانة والاتهام، حتى الأماكن التي جاء منها لم يعد يذكرها.. فلقد سافر ليلاً خلال الظلام مع أغراب لا يعرفهم في طرق لم يألفها، حتى أسماءها فهو في اضطرابه لم يسأل عنها، وأن كان سمع بعضها فهي لم تعلق بذاكرته المشوشة، لا يكاد يذكر منها سوى نهر ضحل خاض فيه برجليه طويلا إلى أن أوصله إلى مفترق الطريق الذي أوصله في شاحنة الرعاة إلى تيارت، وما أكثر الأنهار الضحلة في الجزائر وما أكثر الرعاة أيضاً، لم يجد لديه من أثر يدل على تلك الفترة الغامضة المنسية، سوى ذلك الخاتم الفضي الذي وجده بأحد أصابع يده اليسرى والذي خفق قلبه كثيراً وهو يظنه لامرأة من ماضيه، لكنه بحالته المجهلة تلك لا

يمكن أن يدل على شيء.. لذا فقد ظل عمر في مواجهة جلاديه، مثل أخرس وليس في فمه حجة، صامتاً لا يجيب، مما جعلهم يقررون تقديمه لمحاكمته عسكرياً عن التهم التي رجحها صمته، وأثبتها سكوته..

في نفس اليوم أبلغت السفارة المصرية في الجزائر بنبأ العثور على الضابط المصري "عمر هاشم"، الذي فُقد أثناء العمليات الحربية بالصحراء الجزائرية منذ شهور ماضية ولم يعرف مكانه منذ ذلك التاريخ، ولقد أبلغت السفارة المصرية كذلك بالاتهام الموجه إلى الضابط المذكور، وموعد محاكمته العسكرية الذي تحدد تاريخها بعد أيام..

انقلبت السفارة المصرية في الجزائر رأساً على عقب، فلم يكن عمر هاشم مجرد ضابط عادي، بل كان النظر إليه دائماً على أنه ممثل للقيادة المصرية داخل جيش التحرير الجزائري، إضافة إلى كونه ابن رجل الصناعة المصري القوى "هاشم حمدان" الذي عرف بقربه من مراكز السلطة في مصر، وقوى نفوذه بعد أن أوكل إليه أمر الإشراف على العديد من الصناعات التي لحقها التأميم في مصر بعد عام 1960، ومن بينها شركات عالمية ضخمة ذات فروع وأعمال في العديد من الدول العربية والأفريقية، لذا فمن شأن هذا النبأ أن يحدث دويه الهائل داخل تلك الأوساط، ويسيء لسمعة مصر التي هي

الآن رهن التحقيق والمحاكمة، لذا فسرعان ما قام السفير المصري بزيارة عمر داخل سجنه العسكري بالجزائر، وحينما سمع قصته مع افتقارها إلى الدليل، تيقن له سوء موقفه، فأبرق بكل التفاصيل إلى مصر طالبا الرأي والمشورة.

كان رد القاهرة حاسماً وسريعاً، يتلخص في طلب إعادة الضابط عمر هاشم.. فوراً إلى مصر، وأن تكون محاكمته داخل مصر بمعرفة القيادة المصرية.. لذا فسرعان ما اجتمعت القيادة الجزائرية التي تدارست الأمر وبعد أن أعادت بحثه على أعلى مستوى، فضلت أن تتراجع عن قرار محاكمة عمر داخل الجزائر، وأن تتخلى عنه لمصر حفاظاً منها على العلاقات الطيبة بين البلدين، وإكراماً لدور مصر النبيل في مساعداتها للجزائر أثناء حرب التحرير، ومحبة في عبدالناصر..

بعد أيام كان رحيل عمر عن الجزائر تحت الحراسة المشددة على متن طائرة حربية خاصة أنهت رحلتها بالقاهرة، لتتولى سلطاتها العسكرية أمر إيداعه السجن الحربى رهن الاعتقال والمحاكمة..

الفصل الرابع عشر

وفـــاء

بقى عمر أياماً طويلة معتقلاً داخل السجن الحربي بالقاهرة، لا يزور ولا يزار، إلا من محققين أشداء غلاظ يتناوبون أمر سؤاله والتحقيق معه في التهم الخطيرة التي نسبت إليه، أعادوا سؤاله أكثر من مرة، إستفسروه عن كل كبيرة وصغيرة مرت به في الجزائر سواء أكان قد سمع بها أو رآها، أبقوه الساعات الطوال من الليل سهراناً يقظاً يعيد على مسامعهم سرد الأحداث، وكلما نسى أجهدوه ليتذكر، واستحثوه على الشرح والتفسير، إلى أن وصلوا به إلى تلك الفترة الغامضة التي لا يذكرها من حياته، فضيقوا عليه الخناق، وحاصروه باتهاماتهم، وهو في حيرته وشكه ضعيفاً منهكاً لا يعرف لنفسه سبيلاً للتفسير أو الخلاص..

عبثاً كان دفاع عمر عن نفسه ضد الإتهامات الخطيرة، فهو نفسه لم يكن يعلم شيئاً عن الفترة الغامضة المنسية من حياته.. لذا فقد أكتفي بسرد الأحداث التي مرت به كما علمها، تاركا أمر الحكم عليها لجلاديه..

داخل سجنه الطويل، وهو وحيد متهم موصوم بالخيانة مجللاً بالعار، لم يكن لعمر من أنيس ورفيق سوى ذلك الخاتم

الفضي ذو الحجر الأزرق بأسده المعقوف الذيل ويده التي يرفعها عالياً فوق رأسه بسيف الحق البتار.. كانت هناك لغة صامته تبادلها مع الخاتم كأنما هو خاتم الملك المسحور.. كلما أمعن النظر فيه أستضاء، وخرجت منه أشعة نقية، كأنما ترسلها جنية غير مرئية، ما فتئت تهدئ من خواطره وتؤنس وحدته، وتطلب منه الصبر والشجاعة، فهو لا شك برئ، وعن قريب تتضح براءته فيفرجون عنه ويعيدون إليه الاعتبار ويوفونه قدره من الاحترام اللائق به عن كفاحه الطويل المجيد في سبيل قضية الحق والحرية..

بعد شهر كانت الزيارة الأولى لعمر في سجنه الحربى المنعزل البعيد، كان الزائر هو والده "هاشم حمدان" الذي وقف طويلاً في مواجهته يتفرسه عن بعد ويعيد النظر إليه مرات، قبل أن يبادره بسؤاله قائلاً: أصدقني القول يا بنى.. أأنت برئ أم مذنب؟..

أجابه عمر وهو ينظر إلى بعيد قائلاً: لست أعلم يا أبي.. فلقد إختلط علي الأمر.. حتى بتّ غير قادر على إجابة السؤال.

ضم هاشم حمدان ولده إلى أحضانه وهو يربت على ظهره بحنان الأب، قال: لا بأس عليك الآن يا ولدى.. فلقد تيقن لدى الآن أنك برئ، فأبن هاشم حمدان لا يمكن أن يكون بحال

من الأحوال خائناً أو جباناً.. ولك أن تهدأ بالاً، فسأعرف الطريق لإظهار براءتك مهما كلفني الأمر..

مازال الأب يواسيه ويهدئ من خواطره إلى أن استكان وسرى عن نفسه ما اعتراها من اضطراب، وهو يحس بالأمان في حضرة ذلك الأب القوى الذي أمدته قوته قدرة على الاستمرار والتحمل والصمود.

بعد أن جرى الحديث مجراه المعتاد بين الاثنين، وأطمأن عمر من أبيه على أحوال الأهل والأصدقاء، سأل أباه على استحياء

قال: كيف حال وفاء يا أبــى؟..

أجابه الأب وهو يتجنب الإفاضة قائلاً: بخير.. يا بنى..

إستفسره عمر قائلاً: ولماذا لم تحضر معك لزيارتي..؟

أجابه الأب باقتضاب قائلاً: قريبا يا بني.. حينما تتحسن الأمور.. سوف تأتى لزيارتك..

أحس عمر من فتور الكلام الذي أجابه به أبوه عن وفاء ما جعله يشعر بأن هناك أشياء غير سارة من أخبارها أراد أبوه أن يجنبه إياها، على الأقل في تلك المرحلة التي لم تستقر فيها أحواله بعد.. لذا فقد ترك عمر الحديث يمر دون أن يصر على الخوض فيه أو معرفة المزيد عنها انتظاراً لما بعد..

* * *

في الفترة التي تناولت فيها الصحافة قصة فرار عمر من ميدان القتال في الجزائر، ووصمته بعضها بالخيانة العظمى والغدر، لزمت وفاء دار أبويها في خزي وخوف من مواجهة المعارف والأصدقاء الذين لاحقوها بالأسئلة والاستفسارات وبعضها شامت أو حاقد، خاصة في النادي حيث كانت تجد على وجوه منافسيها التشفي والرثاء، فهي لم تكن أبداً في علاقتها مع الآخرين منصفة أو معتدلة، مما كان يجعل لها المزيد من الأعداء الذين يلوكون حياتها الخاصة، فما بالك وقد نشرت الجرائد كلها خبر فضيحتها بعمر الذي طالما تباهت به على أقرانها، وبرغم تبرمها من حياتها الجافة معه، إلا أنها اعتبرته دائما الواجهة القوية التي احتمت وراءها مما أكتنف حياتها من عواصف وأنواء..

كانت وفاء ابنة منصور باشا فهمى الزعيم الحزبي الكبير الذي طالما تناقلت أخباره الصحافة كواحد من أكبر رجال الدولة وأثريائها، إلى أن أتت ثورة عبد الناصر في 23 يوليو 1952 فألغت الألقاب والأحزاب السياسية وحددت ملكية الأرض الزراعية بمائتي فدان، مما جرد الباشا من كل أسلحته، فانحسرت عنه الأضواء وتوارى في الظل انتظاراً لفرصة يعود فيها مع رهطه إلى الحكم والسلطة والنفوذ، وهو ما فتئ يحلم بالعز القديم..

ولقد عاصرت وفاء وهي طفلة كثيراً من مظاهر العز والثراء، فنمت وترعرعت وهي تظنها لاصقة بها لا تفنى ولا تزول، إلى أن شاهدت فترة انحسارها وزوالها، وهي غير قادرة على استيعاب المتغيرات الجديدة أو فهم مدلولاتها ظنتها ضربا من الظلم والتجني والهوان.. لذا فقد ترسب في وجدانها البحث عن القوة واحترامها أينما كانت.. حتى وجدت في نجمة عمر العسكرية التي اعتلت كتفه، ومستقبله الموعود في جيش عبدالناصر، ما جذبها إليه، فضلاً عن فتوته البادية، مما جعلها تدخل في منافسة من أجله مع صويحباتها في النادي إلى أن استأثرت بهواه، إنتهاءً بزواجهما السعيد الذي كتبت عنه الصحافة كحدث هام يجمع بين العز التليد والمستقبل الواعد السعيد.

لكن الزواج من ضابط بجيش عبدالناصر لم يكن دائم البريق واللمعان.. فجأة أو على مراحل غيرته حياة الميدان، وهو يأتي إليها بعد غياب طويل من تدريباته الصحراوية، متربا معفراً وقد طالت أظافره ولحيته، فيقضى الساعات الطوال في الحمام يزيل ما علق به من وعثاء الحرب، وبالكاد يستعيد نضارته ليقضى بصحبتها بضعة أيام مشرقة تباهي به أترابها بقوامه الفارع وزيه العسكري اللامع، إلى أن يستدعى لمهمة أخرى وهكذا..

أياما قضتها وفاء مشتتة الخاطر موزعة ما بين الأمل والرجاء، لا تعرف نتيجة الصفقة التي عقدتها بزواجها من عمر، أرابحة هي أم تميل إلى الخسران.. لكنها لم تكن تعدم من وسيلة تملأ بها فراغها أثناء غيابه الطويل عنها، فلديها من ارتباطاتها الكثيرة بأصدقاء النادي ما يملأ فراغ حياتها.. تلحظ بكثير من السعادة نظرات الاحترام المشوبة بالحسد توجه إليها من الكثيرين الذين أقصتهم الثورة فلم يجدوا لهم من مكان يجتمعون فيه سوى النوادي لينفثوا بداخلها سمومهم في عبدالناصر ويحيكون مؤامراتهم ضده، وهم يحلمون باليوم الذي تبيد فيه دولته، ويزول عنه سلطانه..

إلى أن كانت فترة غياب عمر الأخيرة التي تطاولت إلى شهور دون أن تعلم عنه شيئاً، إلا من رسائل متفرقة كانت تصل إليها بلا خاتم بريد يوضح الجهة التي أتت منها، سوى خاتم البريد الحربى بالقاهرة، مما جعلها ترجح تواجده في مهمة سرية خارج البلاد..

كانت قد مرت شهور منذ آخر رسالة وصلت من عمر إلى وفاء حاملة أنباءه التي انقطعت منذ ذلك الحين، عبثاً حاولت وفاء أن تعرف المزيد من أخباره.. حتى والده هاشم حمدان رجل الدولة القوي، عجز عن أن يعرف من أخباره أكثر مما

أبلغتهم به القيادة العامة، من أنه بمهمة سرية خاصة، وأنه بخير..

في حديث عابر مع صديقتها هدى شكت لها وفاء ما تعانيه من حيرة وضياع بسبب غياب عمر عنها كل ذلك الوقت الطويل دون أدنى خبر عنه، أسرت إليها هدى بأن في إمكانها أن تعرف مكانه من أشخاص ترسلها لهم، في مقابل الثمن الزهيد الذي تدفعه إليهم.. وقبل أن يتملك الغضب وفاء، أسرعت هدى توضح لها الأمر وهي تضحك قائلة: لا تخافي يا عزيزتي، فالثمن الذي يطلبونه مشروع، وفي حدود إمكانياتك أيضاً، ولن يرغمك أحد عليه..

أطلقت هدى ضحكتها الرنانة المجلجلة، قبل أن تتابع الإجابة على نظرة وفاء المتسائلة، قائلة: ليس عندي الآن ما يمكنني أن أضيفه إليك.. وهناك سوف تعرفين التفاصيل..

دخلت وفاء بخطواتها المترددة الوجلة إلى المبنى القديم الكالح الواقع في مكان ساكن بأطراف العاصمة، وقف على أبوابه حراس أشداء سمحوا لها بالدخول بعد أن ذكرت لهم أسم: "حازم سلطان"، الذي أعطته لها هدى مع الموعد المحدد للقائها به..

كان كل شيء داخل المبنى العتيق يوحى بالحياة العسكرية الصارمة التي لفت كل العاملين به، برغم أنهم جميعهم من

المدنيين المتأنقين، لكن وشت بهم وجوههم الصارمة وخطواتهم القوية، شأنهم شأن حارسها المرافق لها الذي قادها إلى حجرة حازم سلطان، حيث استأذن لها في الدخول وفتح أمامها الباب، ثم أغلقه خلفها في سكون وانصرف..

في أقصى الحجرة المتسعة الطويلة، جلس شاب ضئيل الجسم كاد أن يغوص بين أوراق وملفات ضخمة، لم تتبين ملامحه جيداً إلا بعد أن اقتربت منه بدرجة كبيرة، فإذا به ليس غريباً عنها، بل هو ذلك الشاب الوقح زميل النادي الذي طالما لاحقها بنظراته الجريئة أثناء تنقلاتها بالنادي، وطالما تجنبت أماكن تواجده لما له من سمعة سيئة ربطته بالكثيراًت من عضوات النادي المستهترات لذا فقد زادت دهشتها لوجوده هنا وأنه دون سواه الذي سوف يزودها بالمعلومات عن زوجها الغائب..

قبل أن تفيق من دهشتها، كان حازم قد هب من مكانه واقفا لملاقاتها، حيث صافحها بحرارة ورحب بقدومها وهو يدعوها للجلوس أمامه قائلاً: أهلا مدام وفاء.. زوجة بطلنا العظيم عمر..

إنتزعت وفاء ابتسامة من بين شفتيها لتجيبه من خلالها قائلة: أراك تعرف أسمي.. ومن أكون!

أجابها حازم في بساطة قائلاً: هذا يا سيدتي جزء من عملنا المكلفين به..

تساءلت وفاء وقد ازدادت دهشتها قائلة: عملكم.. من أنتـم؟..

أجابها حازم من خلال ابتسامته الماكرة قال: هذا شيء لا يشغلنا أمره الآن فسوف تعرفينه فيما بعد، أما الآن فأنا في خدمتك فبم تأمرين؟..

أجابته وفاء مترددة: لقد أرسلتني إليك هدى لكى..

قاطعها حازم وهو يوفر عليها عناء الحديث

قال: تريدين أن تعلمي أخبار عمر؟..

أجابته وفاء من خلال دهشتها قائلة: نعم..

سألها حازم وهو يتفرس في وجهها قائلاً: لماذا؟..

فتحت وفاء فمها.. قبل أن تجيب بادرها حازم قائلاً:

إنه في مهمة سرية داخل الجزائر..

سألته وفاء من خلال دهشتها المتزايدة قائلة:

الجزائر؟ ماذا يفعل هناك؟

استرسل حازم: إنه مشترك ضمن قوات المجاهدين في حرب التحرير الجزائرية ضد فرنسا..

سألته وفاء: ولماذا لم تصلني رسائله منذ مدة طويلة..

صمت حازم برهة قبل أن يجيب: ذلك لأنه.. مفقود..

وجمت وفاء قليلاً وخفق قلبها بين ضلوعها بشدة قبل أن تسأله في لهفتها قائلة: هل مات؟..

أضاف حازم بهدوئه المعتاد قائلاً: كل ما نعرفه.. أنه فقد في العمليات الحربية، لم يستطع أحد أن يقطع بحياته أو مماته..

غامت عينا وفاء وإهتز الكرسي من تحتها بتأثير صدمتها الناتجة عن النبأ المفجع، أسرع حازم يقدم لها كوباً من الماء ارتشفت بعض قطراته التي هدأت من انفعالها، بينما أسترسل حازم حديثه قائلاً: أن الأخبار التي وصلتنا عنه غير مطمئنة، فلقد أبيدت الفرقة الصغيرة التي كان يقودها عن آخرها.. فأنت تعلمين ولا شك ضراوة الحرب الدائرة في الجزائر الآن، وعدم التوازن بين أسلحة الثوار العتيقة وأسلحة فرنسا المتطورة وجيشها النظامي، لذا فإن الخسائر فادحة بين صفوف المجاهدين، وكل هدفنا من إرسال عمر وأمثاله من الضباط المصريين المدربين إلى هناك، هو أن نعمل على تقليل تلك الخسائر إلى أقل معدل ممكن.

قاطعته وفاء وهي لا تكاد تفهم الكثير مما يقوله قائلة:

أرجوك.. أريد أن أعلم مصير عمر على وجه التحديد..

أجابها حازم مطمئناً: لك أن تثقي من هذا، فنحن جادون في البحث عنه، ولسوف أبلغك بكل ما يصل إلينا من أخباره..

بعد فترة كانت قد هدأت خلالها وفاء أضاف حازم وعلى شفتيه ابتسامة مشجعة قال: أرجوك أن تتقبلي شديد أسفي لتلك الأخبار المؤلمة.. لكنني آمل أن أزف إليك البشرى بسلامته عن قريب..

جففت وفاء دموعها، شكرته على تلطفه الزائد معها وقد همت بالانصراف مدت له يدها البضة للسلام، لكنه أستوقفها وهو يشد على يدها بين يديه قال: لا داعى لأن أبلغك بأن كل ما دار هنا وما سمعته منى، هو سر من الأسرار العليا للبلاد.. لذا فمن الأفضل ألا يعلمه أحد سوانا..

هزت وفاء رأسها موافقة، لكنه أسترسل وهو يستبقى يدها بين يديه أطول فترة ممكنة، قبل أن يفلتها قائلاً: كذلك كل ما عرفته عني، وما سوف تعرفينه بعد، أرجو أن يظل كذلك في طي الكتمان سراً بيننا..

تطلعت وفاء نحوه وقد علت الدهشة وجهها، سألته قائلة:

ما الذي يجعلك على ثقة من أننا سوف نلتقى ثانية..؟

أجابها حازم بدهائه قائلاً: المزيد من أخبار عمر التي أنا في إنتظار وصولها إلي عن قريب..

سألته من خلال ترددها قائلة: ألا يمكنك أن تبلغني بها عن طريق التليفون؟

همس حازم في أذنها القريب منه قائلاً: أنسيت أن الأمر على قدر من السرية لا يمكن تناوله بالتليفون..

أضاف حازم وهو يتصنع الفكاهة قائلاً: ثم هناك شيء آخر أعتقد أن هدى قد أبلغتك به، وهو أن لنا ثمنا نتقاضاه نظير أداء خدماتنا للآخرين، وأنني حتى الآن لم أتقاضى الثمن منك بعد..

بادرته وفاء بنظرة قاسية من عينيها، لكنه أسرع بإجابتها قائلاً: لا تسيئي الظن بنا، فما نحن إلا مواطنون شرفاء..

فجأة سألته وفاء وهي في طريقها إلى الباب قائلة: من أنتم؟.. أجابها حازم وهو ينحني في وداعها قائلاً: نحن المكلفون بحمايتك، والسهر على أمنك ورعايتك..

كان الانطباع الذي تولد لدى وفاء عن حازم مطمئناً، مما جعلها تعيد النظر في انطباعها السيء السابق نحوه، وسمحت بمزيد من اللقاءات معه، وقد اشتمت قربه رائحة القوة التي طالما فتنتها وخلبت لبها، لذا فقد توالت لقاءاتهما بعد ذلك بسبب وبدون سبب، داخل النادي وخارجه، وفي كل مرة يزداد المدى إتساعاً، والحديث بينهما يستفيض ليتناول مواضيع شتى متفرقة، كانت تتعلق في البادية بعمر الذي انقطعت أخباره ولم يستجد منها جديد، ثم ما لبث الحديث بينهما أن أمتد لتناول أحوال أعضاء النادي وكل ما يتعلق بشئونهم الداخلية

والخاصة زواجهم وطلاقهم علاقاتهم العاطفية وميولهم ورغباتهم، ما يثرثرون به من أحوال السياسة والبلاد، فكان يستمع إليها حازم في شغف وإنصات، ولم تكن وفاء ساذجة بالدرجة التي تجعلها غافلة عن الهدف من وراء تلك الأحاديث أو الدور الذي يلعبه حازم في جمعها لحساب الجهاز الذي يتبعه، وهو ما فتئ يجند الأعوان ويجمع حوله الأتباع بوسائل لم تكن كلها خالصة لوجه الله، بل كانت ضمن سلسلة من المصالح المتبادلة، والعطايا الجيدة التي كانت تغدق على الأتباع النشطين، مع ما تيسر من التهديد والوعيد لكل من حاول التمرد أو الانسلاخ.. كل هذا مما أكدته لها صديقتها هدى وزاد حازم بأن كشف لها عنه بصراحة ووضوح، لذا فقد أقدمت على التعاون معه وهي بكامل إرادتها مفتحة العينين، وهو ما فتئ يكلفها بالمزيد من المهام لكشف أسرار أو جمع معلومات، كانت تؤديها بجد ونشاط، وقد حركت حواسها السلطة الكامنة في العمل الذي تؤديه وأرضت أحلامها القديمة بالتفوق.. وهكذا انقادت خطوة فخطوة نحو الطريق الزلق الذي يمر به العملاء عادة منتهياً بهم إلى التسليم في خضوع لكل النواهي والأوامر مهما كانت قذرة أو مقززة.. إلى أن جاء الوقت الذي كانت تكلف فيه بأحط الأعمال فكانت تقوم بها في تسليم بل وترحيب أيضاً، خاصة بعد أن رجحت مع الوقت وفاة

عمر، فلم يعد هناك شيء في حياتها الخاوية تنتظره أو تحرص عليه، وحازم ما فتئ يغسل عقلها ويدخل في روعها بأن ما تقوم به من خدمات يجعل منها بطلة تضحي من أجل الوطن، فلما حان الوقت الذي كان عليها أن تدفع فيه الثمن من عفتها وشرفها لم تتردد، خاصة وقد بدأت تستمتع بتلك الحفلات الصاخبة التي كانت تقام للضحايا الذين دفعوا في طريقها لتوريطهم معها في علاقات غرامية شائنة يدفعون ثمنها فيها بعد، ومعظمهم من الساسة المحترمين أو رجال الدولة الخطرين، وبعضهم من رعايا الدول الأجنبية، وأغلبهم عاملها بمحبة واحترام، إلى أن جردتهم من ملابسهم داخل غرف نوم مغلقة وهم في لذتهم واستمتاعهم بجسدها الجميل غير مدركين لتلك الكاميرات الخفية التي ما فتئت تصورهم في شتى الأوضاع الشائنة معها، ثم تصدمهم الحقيقة المرة بعد أن يكونوا قد وقعوا في الفخ، فتبدأ المخابرات معهم بعد ذلك مهمة الضغط والترويض..

في هذا كله، كان حازم رائدها ومعلمها، حيث وجد كلاهما في الآخر تماثلاً وصدى، ربما في حبهما المشترك للسلطة والتمتع بتحطيم الآخرين، لذا فقد تنقلا معاً من نجاح إلى نجاح، وأتما سوياً العديد من المهمات الصعبة التي أثيبا عليها بسخاء، لكن أسخى عطاء.. قد كان في ذلك الحب المشترك

العجيب الذي ربط ما بين حازم ووفاء، وقد وجد كل منهما في الآخر ضالته التي طالما بحث عنها وتمناها، لذا فقد استمتعا سويا بعلاقة حب آثمة، برغم ما شاب علاقتهما من تناقض واختلال..

استمتعت وفاء كثيراً بحياتها الجديدة التي فتحها أمامها حازم على اتساعها، فكان لها خير معلم وأوفى حبيب.. وهي في اندفاعها الأعمى لا تتوقف عند حد، لا تكاد تتبين الخطأ من الصواب، إلى أن كان اليوم الذي فاجأها حازم فيه بنبأ العثور على عمر انتهاء بعودته إلى مصر سليماً معافى، إلا أنه موصوم بالخيانة مجللاً بالعار..

كان لتلك الأنباء المفاجئة أثرها العميق على وفاء مما أصابها بالصدمة التي ألزمتها دار أبيها لا تزور ولا تُزار، في محاولة منها للتعرف على الأشياء من جديد، واسترداد الأنفاس..

فلو أن عمر عاد إليها سالماً غانماً بطلا من أبطال الحرب لفكرت في العودة إليه بعد تلك الأحداث الجامحة التي اكتنفت كليهما، ولو أنه عاد مصاباً كسيحاً من العمليات الحربية لرحبت بالاستمرار في حياتها معه كذلك.. أما عودته على هذا النحو من الضعف والمهانة والخذلان، فهو شيء تأباه نفسها، خاصة بعد أن لمست القوة في قربها من حازم وعملها معه،

الذي مضت فيه غير عابئة بتلك الألسنة التي تقولت عليهما معا، وفي عودة عمر الغير متوقعة الآن ما يجلب لحياتها التعقيدات، وهي التي بالكاد قد تعرفت على طريقها الممتع في ربوع حياتها الجديدة الممتدة بجوار حازم الذي غلبها هواه حتى لم تعد ترى سواه.. لذا فلم تكن هناك مفاجأة لمن حولها، حينما واجهتهم برغبتها في الانفصال عن عمر والطلاق منه.

تألم هاشم حمدان كثيراً للحالة المستهترة التي وصلت إليها وفاء، في البداية ظنها بتأثير صدمتها المفاجئة من ضياع عمر.. لكنها تمادت في علاقاتها المشبوهة التي أقامتها مع العديد من الرجال لأسباب غير مفهومة لديه، خاصة مع ذلك الشخص الغامض المسمى حازم والتي تناقلت الأقوال علاقتهما المحرمة معاً.. عبثاً حاول الآخرون نصحها وإرجاعها عن طريقها المشين، لكنها مضت فيه سادرة غير مكترثة، إلى أن كانت عودة عمر الأخيرة رهن المحاكمة والاعتقال، فأسفرت عن رغبتها في الانفصال عنه، التي أتت في وقتها طبيعية منهية لكل التناقضات..

لكن هاشم حمدان ضعف كثيراً أمام عاطفة الأبوة، ولم يجد في نفسه الشجاعة الكافية ليصارح عمر بأنباء وفاء، وهو في تلك الحالة من الضعف والاحتياج، أحوج ما يكون للعطف

الذي يخفف عنه محنته ويذهب عنه شجونه، خاصة هو ما فتئ يسأل عن وفاء ويتطلع إلى الوقت الذي يراها فيه..

حينما ألحت وفاء في طلب الطلاق، ساومها هاشم حمدان في ثمن حصولها عليه، مجرد خدمة إنسانية بسيطة تؤديها لعمر وهو في معتقله البعيد، فتجود عليه ببعض من حنانها بالقدر الذي يخفف معاناته ويرفع من معنوياته، فيجعله أقدر على المقاومة والاحتمال، وهو ثمن طالما دفعته بسخاء للآخرين، فلماذا لا تدفعه الآن لعمر مهما كان نفورها منه، كثمن لطلاقها منه؟..

لم تمانع وفاء كثيراً في قيامها بذلك الدور الذي شجعها عليه حازم، حتى تحصل على حريتها فيخلوا لهما الجو سوياً بلا موانع أو تعقيدات.. لكن حازم بدهائه قد كان يرمي لما هو أبعد من ذلك بكثير، خاصة وبعد أن عجزت أجهزة الذكاء المصرية عن التوصل لسر الفترة المجهولة من تاريخ عمر بالجزائر، لذا فقد أراد حازم بأن يكون له فضل السبق في كشف عمر والتوصل إلى سره الذي اعتقد بأنه يخفيه عن الجميع، إلا عن وفاء زوجته وحبيبته المفترض بأنها رفيقة عمره وكاتمة سره.. لذا فقد خطط حازم بدهاء لكى يدفع بوفاء في طريق عمر الذي مازال يحلم بحبها، وهي بلا شك موضع

ثقته مما سيجعله يفضى إليها بسره الذي حرص على إخفائه كل هذا الوقت الطويل..

في لقائهما معا، اهتزت كل مشاعر الشفقة في قلب وفاء وهي تشاهد أمامها شخصا آخر غير الذي كان عليه عمر من قبل، لذا فقد انسابت مشاعرها نحوه تلقائية محملة بالشفقة والرحمة وهي ترى أمامها إنسانا صامتاً كثير الشرود، ضحى كثيراً إلى أن تحطم أو كاد..

تطاول الوقت الذي أمضته وفاء مع عمر في زنزانته المنعزلة دون أن تصل معه إلى كشف السر الذي كان يتوقعه حازم ويبتغيه، لذا فقد ثارت ثائرة حازم على وفاء وهو يتهمها بأحط النعوت، وأنها قد عادت لتخونه مع عمر بعد أن استيقظ في قلبها حبه القديم، وأنهما لذلك قد اتفقا عليه معا لإخفاء سره عن حازم، حتى يحكم ببراءة عمر مما يمكنهما من العودة لحبهما معا مرة أخرى من جديد..

عبثاً دافعت وفاء عن نفسها ضد إتهام حازم الخطير لها.. مما جعلها تضاعف من جهدها مع عمر وهي ما فتئت تخادعه بمعسول كلامها، في محاولة منها لكشف سره وهتك ستره، لكنه ظل ثابتاً على ادعاءاته بشأن فقدانه للذاكرة، مما جعلها تيأس منه وتنصرف عنه راجعة بخيبتها إلى حبيبها ومعلمها حازم الذي انصرف عنها حانقاً، رافضاً أن يصدقها أو

يعيدها إليه، متهما إياها بالخيانة والتواطؤ ضده مع زوجها وحبيبها القديم، لذا فقد وقفت بين الرجلين موقف بائس ذليل ترفض هذا ويرفضها ذاك، وقد اختلطت أمامها الرؤى والمخيلات..

انقطع الجميع عن عمر، لم يصدقه أحد سوى والده: هاشم حمدان الذي تيقن لديه بأن ابنه برئ، وصمم على أن يكشف سره مهما كلفه الأمر من مصاعب وتضحيات..

الفصل الخامس عشر

المحـاكمـــــة

بعد أيام هبطت طائرة خاصة على أرض الجزائر، تحمل على متنها وفداً مصرياً هاماً برئاسة رجل الصناعة القوى "هاشم حمدان" استجابة لنداء الحكومة الجزائرية الذي طالما وجهته لمصر عقب الاستقلال تطلب مساعدات مصر المتقدمة ومشورتها الفنية في مجال الصناعة التي خلفها الاستعمار الفرنسي ضعيفة مفككة لا تقوى على سد النقص الخطير في الاحتياجات الأولية للبلاد.. لذا فقد قوبل الوفد المصري بكل الحفاوة والإكرام، وهرع لاستقباله كبار المسئولين الجزائريين في الدولة، فأنزلوهم أحسن منزل، واحتفلوا بمقدمهم كرمز للمشاركة في احتفالات النصر والاستقلال، فأقيمت على شرفهم الولائم الضخمة، وألقيت بحضرتهم الخطب الحماسية التي أشادت بالتعاون المشترك بين البلدين، مما جعل من فترة تواجدهم في الجزائر أعياداً وأفراحاً..

بعد أن انتهي حفل العشاء الضخم الفخم الذي أقامه الرئيس الجزائري "أحمد بن بلا" على شرف الوفد المصري، طلب رئيس الوفد المصري مقابلة خاصة مع الرئيس الجزائري الذي استجاب لها على الفور..

حينما أُغلقت أبواب القاعة على الرجلين وحدهما، ركع "هاشم حمدان" على ركبتيه إلى الأرض في مقابل الرئيس الجزائري، حيث قبل طرف عباءته، وخاطبه والدموع في عينيه قال: أرجوك سيدي أن تنقذ ابنى من الهلاك..

تصاعد الدم غزيرا إلى وجه الرئيس الجزائري الذي هو في عزته شامخاً قوياً لم يألف مظاهر الضعف أو الخنوع، وهو ينهر الرجل على ركوعه المشين أمامه، صاح فيه بصيحة جمال عبدالناصر التي طالما رددها في خطبه على أسماع الملايين قائلاً: "ارفع رأسك يا أخي فقد مضى عهد الاستعباد..

لكن هاشم حمدان ظل على ركوعه المشين، وأبى أن ينهض إلا بعد أن أستوثق من الرئيس الجزائري بأن يجيبه إلى طلبه الذي يطلبه منه..

انتصب هاشم حمدان واقفاً أمام الرئيس الجزائري الذي إستمع إليه وهو يحكي له قصة ابنه المظلوم الذي دفع الثمن مضاعفاً، مرة من دمائه التي سالت على أرض الجزائر في حربه للمستعمر من أجل عزتها، ثم عاد ودفعه مرة أخرى من سمعته وشرفه المهان.

انتفضت مشاعر الرئيس الجزائري وهو يستمع لأب يدافع بحرارة عن ابنه المظلوم، ظلمته الحرب المدمرة فأكلته نارها مع

من أكلت من شهداء ومشوهين، لكنه ظلّ على صمته يُمعن التفكير فيما سمع، ثم ما لبث أن خاطب هاشم حمدان قائلاً:

والآن.. ما الذي تريده منى على وجه التحديد؟..

هتف هاشم حمدان من أعماقه قائلاً: العدل..

أستوضحه الرئيس الجزائري قائلاً:

لكننا قد أنهينا الموضوع من جانبنا، وأسقطنا كل اتهاماتنا ضد ابنك، فما الذي تبغيه يا رجل أكثر من ذلك؟..

أجابه هاشم حمدان بإصرار قائلاً:

ليس هذا هو العدل الذي أبتغيه..

استرسل الرئيس الجزائري بأناة وصبر قال: لو شئت خاطبت بشأنك القيادة المصرية لكى يفرجوا عن إبنك، ولا أظنهم إلا مجيبينا لكل ما نطلب بحكم ما بيننا من أخوة ومحبة..

أجابه هاشم حمدان بشموخه قائلاً: لا يكفي..!!

استرسل الرئيس الجزائري قال:

فلو شئت خاطبت بشأنه عبدالناصر..

قاطعه هاشم حمدان بإباء قائلاً: لا أريد..

صاح فيه الرئيس الجزائري بنفاذ صبر قائلاً:

فما الذي تريده يا رجل؟؟!..

أجابه هاشم حمدان وهو يعقد حاجبيه قائلاً: محاكمة عادلة تعقد هنا لعمر هاشم حمدان..

تساءل الرئيس الجزائري وقد أخذته الدهشة قائلاً: ولو ثبتت إدانتــه؟

أجابه هاشم حمدان في رضا وتسليم

قال: فليلق جزاءه العادل عما جنت يداه..

أجابه الرئيس الجزائري بحسم وهو يغادر المكان قائلاً: لك ما شئت.. ولكن تذكر أنني حذرتك، فلن أتدخل في أمره بعد الآن..

بتنسيق واتفاق ما بين القيادتين المصرية والجزائرية، أُعيد الضابط عمر هاشم حمدان مرة أخرى إلى الجزائر ليواجه محاكمته بها، فإما إلى المجد الذي يستحقه الأبطال والمجاهدين، وإما العار الذي يلحق بالخونة والأشرار..

كانت المحاكمة التي عقدت لعمر عاصفة، فلقد مثّل الاتهام ضباط جزائريون أشداء، بينما اعتلى منصة الحكم خليط مشترك من كبار الضباط الجزائريين والمصريين الذين قدِموا خصيصا بدعوة من الحكومة الجزائرية للاشتراك في المحاكمة، بينما جلس فريق المدافعين المصريين والجزائريين في ترقب وانتظار..

نادى كبير القضاة على المتهم، فأنتصب عمر أمامه في وقفته العسكرية مواجها لقضاته في انتباه، ثم أعطيت الكلمة للاتهام الذي سرد الوقائع التي انتهت إليها التحقيقات مشيرة إلى الاتهام المشين الموجه إلى عمر بالفرار من الخدمة العسكرية حينما اشتد القتال في معركة آفلو الجنوبية، هرباً إلى الجبال التي اختفي فيها المدة الباقية من الحرب، إلى أن أُعلن الاستقلال.. فعاد ليقص عليهم قصة مختلقة طالما سمعوها من خونة ومارقين، يزعم فيها أنه فقد ذاكرته، الأمر الذي لم يقم عليه الدليل..

نادت المحكمة بعد ذلك على الشهود، كان أولهم القائد "عشراتي"، الذي أثنى كثيراً على مقدرة عمر وكفاءته العالية في القتال الشرس الذي قاده على شتى الجبهات وفي أقسى الظروف.. لم يعهده أحد جباناً أو خائراً أو متقاعساً، بل كان دائماً على رأس القوات وفي مواجهة الخطر وفي مقدمة الصفوف..

تقدم بعد ذلك رفيقه بن دحمان الذي حيا عمر من بعيد تحية إكبار وإعزاز.. ثم أخذ يحكى والدموع في عينيه عن المعركة الباسلة التي دارت على أبواب آفلو الجنوبية وكيف أصيب قائده عمر فتعاون مع الشهيد قدور على حمله، وتقهقرا به خلف الخطوط، لكنهما لم يقدرا على مواصلة حمله بتأثير

جراحهما وضراوة المعركة الدائرة، فتركاه فاقداً للوعي ما بين الحياة والموت لدى امرأة مجهولة طلبا منها رعايته، ثم كيف عادا بعد ذلك مع بعض المجاهدين في محاولة منهم لاسترداده، والمعركة الخاسرة التي خاضتها قوتهم الصغيرة مع الفرنسيين دون أن تتمكن من استعادته، إنتهاءً باستشهاد قدور، وانسحابهم إلى الجبال بعد أن تيقن لديهم استشهاد عمر في الانفجار الذي هدم المكان، فانقطع البحث عنه وأغلق ملفه إلى أن أعيد فتحه مرة أخرى حينما وردت إليهم أخبار تفيد عدم تواجد جثته ضمن قتلى الهجوم، فنشطت أجهزة المقاومة في البحث عنه مرة أخرى دون جدوى.. إلى أن كانت الأخبار الأخيرة التي علم منها بعودته بعد انتهاء القتال، وأنه رهن المحاكمة والاعتقال..

بعد أن أنهى بن دحمان حديثه، إلتفت مواجهاً قضاته قائلاً: اسمحوا لي أيها السادة أن أسجل في شهادتي أمامكم وأمام الله والتاريخ، أنه إن كان هناك من شخص شجاع بذل روحه رخيصة من أجل استقلال الجزائر وتحررها.. فهو هذا الجندي الشجاع الواقف أمامكم في شموخ المدعو عمر هاشم حمدان..

دوّت القاعة بالتصفيق الحاد علامة الرضا والاستحسان لما قاله بن دحمان من شهادة إكبار لقائده المتهم في شرفه العسكري، حتى لقد تعاطف مع عمر معظم الحاضرين..

لكن ما لبث أن نهض ضابط كهل ممثلا للاتهام، تقدم نحو بن دحمان، في خطوات ثابتة، قبل أن يواجه القضاة قائلاً:

لتسمح لنا عدالة المحكمة باستجواب الشاهد..

بعد أن حصل ممثل الاتهام على إذن المحكمة، سأل الشاهد قائلاً: لقد أحسنت أيها القائد في وصف المعركة والثناء على قائدك عمر، لكن دعني أستفسرك عن إصابة عمر فتصف لنا كيفية حدوثها؟..

= لقد نتجت إصابة عمر من قنبلة ألقيت علينا من الفرنسيين أثناء هجومهم على المدينة، مما أحدث دوياً هائلاً، وقتلت العديد من زملائنا..

= أين كنت.. أنت وقدور.. وعمر؟..

= كنا متجاورين ثلاثتنا.. محتمين خلف جدار سميك يحمينا من الأعداء..

= هل سقطت القنبلة مباشرة عليكم؟..

= كلا.. وإنما حمانا الجدار الذي كنا خلفه من معظم الانفجار..

= ما مدى إصابة الضابط عمر؟..

= لم أكن أتبينها على وجه التحديد، لكن كان هناك جرح بالرأس، وبعض خدوش بالصدر والساقين..

= هل كان نزيفه بالغ السوء؟..

= كلا.. فلم تكن أصابته من النزيف بقدر ما كانت من صدمة الانفجار..

= ما مقدار أصابتك أنت والشهيد قدور؟..

= لقد كنا في حالة سيئة والدماء تنزف منا بغزارة..

= ومع ذلك فقد تمكنتما من السير والتقهقر خلف الخطوط، حاملين عمر معكما؟..

نهض ممثل الدفاع صائحاً: أعترض على السؤال ففيه إيحاء للشاهد وتعريض بالمتهم..

قبل رئيس المحكمة الاعتراض فحذف السؤال، بينما تابع ممثل الاتهام سؤال الشاهد قائلاً: حينما عدتم إلى المنزل المودع به المتهم لاستعادته، هل كان بداخله..؟

= لقد اعتقدنا بوفاته، لذا فقد انسحبنا بعد أن أصبحت مهمتنا بلا جدوى..

= كيف عرفت بوفاته؟.. هل عاينت ذلك بنفسك؟..

= لا.. ولكنني علمت ذلك من الشهيد قدور بناء على إشارة وافانا بها قبل استشهاده، كنا قد إتفقنا عليها فيما بيننا قبل الهجوم..

= لكن قدور كان مخطئا ولاشك، فها هو ذا الضابط عمر أمامنا الآن سليما دون أن يصاب بأذى أو يمسه سوء..

سرت ضحكة خافتة بين الحاضرين، بينما تصاعد الدم غزيراً إلى وجه بن دحمان قبل أن يجيب ممثل الاتهام وهو يجمح جماح نفسه قائلاً: كان المعنى الواضح للإشارة هو عدم تواجد عمر حياً بالمكان، ولقد فهمتها حينذاك على أنه استشهد.. لذا فالخطأ كله خطئي لأنني لم أضع في اعتباري باقي الاحتمالات الأخرى، وهو الاحتمال بأن يكون عمر حياً ولكن في مكان آخر غير مكان الهجوم..

استرسل ممثل الاتهام قائلاً: لا بأس أيها القائد بن دحمان فكلنا نخطئ.. لكن دعني أعرض عليك الظاهر من شواهد الحال الآن، من أن عمر لابد قد غادر المكان قبل الانفجار، وإلا لكان لقى مصرعه هناك، ألا توافقني على ذلك؟..

سرت همهمة خافتة في المكان، قبل أن يجيبه بن دحمان قائلاً: أعتقد ذلك..

= ذكرت أن المرأة كانت بمفردها في المنزل حينما أوصلتما عمر إليها وهو غائب عن الوعى، فهل كان في إمكانها أن تحمله وحدها وتفر به إلى خارج المكان؟..

= لا أعتقد ذلك...

قبل أن يتمكن بن دحمان من إضافة أقواله الأخرى التي هم بقولها، توجه ممثل الاتهام بكلامه نحو القضاة قائلاً: كذا ترون أيها السادة، بأن المتهم الماثل أمامكم عمر هاشم لم تكن

إصابته أكثر سوءاً من زميليه الذين تحاملا وتقهقرا إلى خلف خط النار حاملينه معهما، إلى أن أعياهما حمله فأودعاه لدى تلك المرأة المجهولة.. لابد أنه أفاق من غشيته المصطنعة بعد قليل، فوجد المرأة بجواره جميلة فاتنة، ففر معها إلى الجبال بعيداً عن المعركة حيث قضى بصحبتها ما طاب له من وقت ممتع (ضحك)، فلما انتهت الحرب وأمن على نفسه من ويلاتها، عاد لنا بقصته الملفقة عن فقدانه للذاكرة التي لم تعد إليه إلا عشية اليوم التالي لانتهاء الحرب، وأنها لمصادفة مدهشة حقا أن يكون ذلك قد حدث في الواقع.. وأن كان حدث؟.. فأين هو الدليل الذي يقدمه لعدالة المحكمة؟..

كان الإتهام قوياً دامغاً بالنظر لشواهد الأمور، لكن ما لبث أن نهض محامي كهل، تقدم نحو منصة القضاء حيث طلب الإذن باستجواب الشاهد، ثم ما لبث أن سأله بعد موافقة المحكمة قائلاً: إن وفاءك لزميلك عمر وثناءك عليه وهو في محنته لهو حقا من شيم الكرام والأبطال.. لكن خبرني أيها القائد بن دحمان.. كيف وصل إلى علمكم بأن الضابط عمر لم يمت، وأنه مازال على قيد الحياة؟؟..

أجابه بن دحمان قائلاً: بعد فترة من الحادث.. نقلت إلينا مصادرنا السرية لدى الفرنسيين، بأنهم بعد تحليل نتائج فحص الجثث التي وجدت بالمنزل بعد الانفجار، تبين لهم بأن جثة

عمر ليست من بينها، وأن ما ظنوه في البداية عمر لم يكن سوى جثة الخائن "زيزو" الذي تواجد في مكان الانفجار لأسباب غير معلومة.

قاطعه المحامي قائلاً: ترى ما هو تفسيرك لتواجد الخائن زيزو بمكان الانفجار؟..

أجابه بن دحمان قائلاً: لا أحد يعلم على وجه التحديد.. وربما يكون هو الذي علم بوجود عمر في مخبئه، فأسرع بإبلاغ الفرنسيين وقادهم إليه، إلى أن شاءت عناية الله أن يلقى جزاءه العادل هناك، فهكذا هي دائما نهاية الخونة والعملاء..

دوت القاعة بتصفيق حاد، إلى أن أسكته القاضي، بينما أسترسل المحامي قائلاً: لقد كان هذا هو ظني أيضاً، إلى أن قرأت تقرير المخابرات الفرنسية عن نتائج الهجوم المحفوظ بأوراق القضية.. وقد ذكر فيه بأن مقتل الخائن زيزو لم يكن من الهجوم أو الانفجار، وإنما كان قبل ذلك بساعات طويلة نتيجة تمزيق أحشائه بخنجر حاد مسموم، فهل لديك تفسيرا لذلك؟..

أجهد بن دحمان ذاكرته كأنما يسترجع بها الأحداث مرة أخرى، ثم ما لبث أن أجاب قائلاً: لقد تذكرت الآن.. حينما دلفنا إلى المنزل للمرة الأولى أنا وقدور، وبيننا عمر غائباً عن

الوعي، لم تكن المرأة بمفردها، ولكن كانت هناك جثة قتيل على الأرض مضرجاً في دمائه وقد تناثرت أحشاؤه حوله، لكننا في عجلتنا وعدم إضاءة المكان جيداً لم نتبين ملامحه التي استرجعها الآن في ذهني فإذا هي حقا لزيزو دون سواه.. لم يكن يعنينا في هذا الوقت إلا أن نطمئن على سلامة عمر.. لذا فقد توعدنا تلك المرأة بالأذى إن هو مسه السوء.. لكنني أدرك الآن وأنا أسترجع الأحداث: من لهفة تلك المرأة على سلامتنا، إسراعها في تضميد جروحنا النازفة، رأسها المرفوعة في شمم وكبرياء.. أوقن بأنها قد كانت إمرأة شريفة، وأنها هي دون سواها التي ينبغي لها أن تقتل هذا الخائن زيزو جزاء نذالته معها وخيانته للوطن..

أجابه المحامي وعلى شفتيه بسمة انتصار.. قال: هذا هو اعتقادي أيضاً أيها القائد النبيل.. فلم تكن تلك المرأة إلا سليلة مجد وعز عريقين، حتما عليها أن تواجه وحدها الخائن زيزو فتنزل به قصاصه العادل.. لذا فأخبرني أيها القائد، هل يمكن لمثل تلك المرأة الشجاعة أن تفر من معركة الكرامة، أو تخون الثقة التي توسمتماها فيها، فتغدر بالضابط عمر، أو تفر معه إلى الجبال لأمر غير شريف؟؟..

حاول ممثل الاتهام الاعتراض على السؤال، لكن القاضي أسكته.. ساد صمت عميق على القاعة في انتظار إجابة بن

دحمان الذي أغرورقت عيناه بالدموع قبل أن يجيب: أعلم الآن من أي معدن نفيس قد كانت تلك المرأة، وأنها فاقتنا جميعا في المروءة والشجاعة.. وأن لها دورا في حماية الثورة وانتصارها أعظم بكثير مما قمنا به نحن كلنا مجتمعين..

عاجله المحامي قائلاً: وما الذي يجعلك على يقين من ذلك أيها القائد؟..

تردد بن دحمان قليلا في اجابته.. لكنه استرسل بعد حين وهو يمسح دمعة عن خده قائلاً: حينما دلفنا إلى المكان لأول مرة، كانت المرأة بجوار جثة الخائن زيزو وهي شبه عارية، لذا فقد تبادر لقدور أن يتهمها في شرفها، لكنها وهي تنفي التهمة عن نفسها رفعت رأسها إلى أعلى في كبرياء، ثم وجهت الاتهام لأم قدور، دون أن يرهبها سلاحه الموجه إلى صدرها، بل جابهتنا بشجاعة الشرفاء، مما جعلنا نوقن بنقائها ونأمن على عمر لديها، فننصرف عنها ونحن مطمئنين..

ساد الصمت برهة على القاعة، قبل أن يجيبه المحامي قائلاً: أشكرك أيها القائد..

توجه المحامي نحو كبير القضاة قال: لقد انتهيت من سؤال الشاهد.. وجاء دوري لاستجواب القائد "عشراتي".. إذا سمحت عدالة المحكمة..

بعد إنصراف بن دحمان إعتلى عشراتي منصة الشهادة، حيث سأله المحامي قائلاً: خبرني أيها القائد عشراتي، بصفتك المسئول عن القوة الصغيرة التي ضمت إليها الضابط عمر.. بعد أن علمتم من مصادركم السرية بأن عمر لم يكن من بين قتلى الانفجار الذي أودى بالكثيرين.. إلى أي مدى قمتم بالبحث عن المتهم بعد ذلك؟..

أجابه عشراتي قائلاً: لقد شكلنا من مخابراتنا فريقا للبحث عنه، ولقد إستمر البحث عنه بعد ذلك فترة طويلة، لم نترك مكاناً يحتمل أن يكون قد ذهب إليه إلا وقمنا بالبحث عنه فيه، لكننا لم نعثر له على أثر..

= ألا يحتمل أن يكون قد وقع في أسر الفرنسيين؟..

= لا، وإلا لكنا قد أبلغنا بذلك، فلدينا عيوننا هناك..

= هل حاولتم البحث عن تلك المرأة المجهولة التي تركتم عمر أمانة لديها بعد إصابته؟

= نعم.. ولكن الفرنسيين كانوا قد هدموا بيتها مع كل البيوت المجاورة، فلم نستطع أن نحدد شخصيتها، خاصة مع ظروف الحرب الصعبة التي مرت بنا بعد ذلك، مما أدى لضياع واستشهاد الكثيرين..

= ومن الذي يمكنه أن يحدد شخصية تلك المرأة؟..

هبّ ممثل الاتهام معترضاً على السؤال، قال: أعترض على السؤال، فهو غير موضح، وغير محدد..

تدخل كبير القضاة قائلاً: أرجو من الدفاع أن يعيد صياغته للسؤال، وأن يحدد الهدف منه..

أجابه المحامي قائلاً: معذرة سيادة الرئيس.. سأعيد توجيه سؤالي إلى الشاهد مرة أخرى على النحو التالي..

صمت المحامي برهة قبل أن يسأل الشاهد قائلاً: خبرني أيها القائد "عشراتي"، هل يمكن لحاكم المدينة الشريف بن أحمد التوصل لمعرفة تلك المرأة المجهولة؟..

سرت همهمة خافتة في القاعة عند ذكر الاسم لما له من مهابة وجلالة في النفوس.. في الوقت الذي حاول الاتهام فيه الاعتراض مرة أخرى على السؤال، لكن المحكمة وافقت عليه، فأندفع الشاهد قائلاً: نعم.. أعتقد ذلك..

= هل اتصلتم بالشريف بن أحمد لسؤاله في ذلك الشأن؟..

= لقد أبلغناه لتنسيق الجهود معنا للبحث عن الضابط المفقود، لكننا لم نتلق رداً منه على ذلك..

أخرج ممثل الدفاع ورقة من بين ملفاته، عرضها على الشاهد قائلاً: أيمكنك التعرف على كاتب تلك الورقة أيها القائد "عشراتي"؟

تطلع الشاهد ملياً في الورقة المقدمة إليه، ثم ما لبث أن قبلها ووضعها فوق رأسه باحترام قائلاً: نعم.. أنها من الشريف بن أحـمد..

أسكت القاضي الصخب الذي تعالى بالقاعة، بينما أسترسل محامى الدفاع قائلاً : أشكرك أيها القائد..

ثم توجه المحامي بورقته تلك إلى المحكمة قائلاً: لتسمح لنا عدالة المحكمة بقراءة تلك الورقة على مسامعكم الكريمة قبل أن نضمها كمستند من مستندات الدعوى..

بموافقة من المحكمة، تلى المحامي محتوى الورقة بصوت مرتفع، فإذا هي عبارة عن خطاب موجه من الشريف بن أحمد إلى القائد "عشراتي" في تاريخ مضى، يبلغه فيه أنه قد عثر على الضابط المصري المفقود الذي يدعى عمر هاشم وأنه في حالة فقدان للذاكرة في مكان أمين لدى بعض الأسر الجزائرية في الجبال تحت الرعاية الطبية..

بعد أن اطلع الاتهام على الخطاب، ضمته المحكمة إلى ملفاتها، بينما أسترسل المحامي قائلاً: لقد عثرت على هذا الخطاب ضمن ملفاتك أيها القائد "عشراتي" المحفوظة بحامية الأغواط، فكيف صح أنك لم تبلغنا بمحتواه؟..

تردد "عشراتي" قليلاً، قبل أن يجيبه بنفاذ صبر قائلاً: أنها الحرب التي تجعلنا لا نتابع كل شيء بدقة كافية..

= أشكرك أيها القائد.. لكن دعني أسألك عن متابعتكم البحث عن المتهم لدى السلطات الطبية المختصة بعلاجه..؟؟

= لقد بحثنا عنه في كل المستشفيات التي نعرفها لكننا لم نعثر عليه..

= فمن هو مدير ذلك القطاع الطبي الذي أشرف على كل مستشفياته أثناء الحرب؟..

= أنه الدكتور/ سرباح..

= فهل يمكنك أيها القائد من التعرف على كاتب هذا الخطاب أو محتواه؟

تناول عشراتي الخطاب الذي استخرجه المحامي من بين ملفاته، حيث تفحصه مليا قبل أن يجيب قائلاً: نعم.. أنه بخط الدكتور سرباح وصادر عنه..

استعاد المحامي الخطاب، حيث توجه به إلى المحكمة قائلاً: فهل تأذن لنا عدالة المحكمة أن نتلو على مسامعكم مضمون الخطاب؟..

حينما سمحت المحكمة، قرأ المحامي الخطاب الذي كان عبارة عن تقرير طبى موقع من الدكتور سرباح في تاريخ قريب، يفيد إشرافه الطبي على علاج الضابط عمر هاشم أثناء فقدانه للنطق والذاكرة الفترة التالية لإصابته في معركة آفلو وحتى لحظة عودة الذاكرة إليه، وعودته إلى الثكنات الحربية

في مدينة تيارت، حيث سلم نفسه إليهم.. استجابة لنداء الواجب، وحفاظا على شرفه العسكري الذي لم تشبه شائبة..

مع تلك الأدلة الدامغة، لم يعد هناك أدنى شك في براءة الضابط عمر هاشم من تهمة الفرار من الخدمة العسكرية، فصدر الحكم ببراءته، وتسليمه إلى السلطات المصرية، مع الاعتذار الكافي، والتكريم اللائق به كبطل من أبطال ثورة التحرير الجزائرية.

بعد أن أبرئت ساحة عمر منتهية به إلى المجد الذي هو أهل له، انهالت عليه عبارات الثناء والتهنئة، في الوقت الذي راح فيه أبوه يضمه إلى صدره بمحبة وفخار وقد غمرت عينيه الدموع.. توجه بشكره إلى الله الذي أحق الحق وأزال الضر عن ابنه المظلوم..

* * *

شيعت الجزائر بطلها عمر قبل سفره إلى القاهرة باحتفالات شعبية عبرت بها عما استحقه من حب وتكريم، فألقيت على شرفه الخطب العصماء، وانتظمت في بطولاته القصائد الفيحاء، وانحنى أمامه الشرفاء والعظماء، وانتهت بإهدائه مفتاح المدينة الذهبي، تعبيراً عن الأخوة الدائمة التي سطر رموزها بدمه المراق على أرض الجزائر الطاهرة..

* * *

في الطريق إلى المطار، نظر هاشم حمدان نحو إبنه عمر بزهو وافتخار.. تمعن فيه ملياً قبل أن يسأله قائلاً: أراك ما زلت قلقاً مهموماً، فهل مازال بنفسك شيء تود أن تستوفيه قبل الرحيل؟

أجابه عمر وهو يتطلع من نافذة السيارة نحو قمم الجبال البعيدة: .. إنها تلك الفترة التي عشتها ضائعاً جريحاً مجهولاً بين قمم تلك الجبال البعيدة.. لكم أود أن أعرف على وجه التحديد ما الذي حدث لي خلالها؟..

أجابه أبوه كأنما يقرأ أفكاره قائلاً: أظنك تتساءل عن تلك المرأة التي آوتك خلال فترة مرضك؟.. لقد بذلت كل المساعي وأرسلت العديد من الرسل، لكنهم عادوا جميعاً بالخيبة وقد أغلقت في وجوههم كل الأبواب، دون أن يعلموا عنها شيئاً، سوى أنها امرأة مجهولة بسيطة من أهالي الجبال الطيبين، لم تفعل سوى ما أملاه عليها واجبها في رعاية مجاهد جريح، ولقد اختفت بمجرد انتهاء مهمتها في رعايتك دون أن يعلم أحد شيئاً عنها.. ولقد أُبلغت بأن ما حدث لك قد حدث لكثيرين أمثالك، حيث دأب المجاهدون على اللجوء إلى أهالي الجبال طلبا للمساعدة الطبية لجرحاهم أثناء الحرب، بعد أن أغلقت في وجوههم أبواب المستشفيات التي وضعت تحت رقابة المستعمرين، لذا فلا مجال للبحث فيما هو منته بطبيعته..

ونحن لا نملك الآن إلا أن ندعو لتلك المرأة – أيا كانت الجبال التي تأويها – لا نملك إلا أن ندعوا لها الله أن يثيبها عنك خير الجزاء..

نظر عمر نحو خاتمه الفضي، خيل إليه برهة.. من خلال انعكاسات الدموع التي ما فتئت تتلألأ في عينيه.. خيل إليه بأن هناك جنية شقراء.. بديعة الحسن ذات شعر أصفر كأسلاك الذهب وبشرة ناعمة بيضاء بلون الفضة.. تطل من خلال حجر الخاتم الأزرق، تشير له بأصابعها الرقيقة.. تحية الوداع..

الفصل السادس عشر

القلب المكسور

عادت جميلة من رحلتها الشاقة التي قامت بها إلى تيارت، بعد أن اطمأنت على وصول زوجها وعودته إلى بلاده سالماً دون أن يمس بسوء، أو هكذا اعتقدت بعد أن أبلغها حارس الثكنات العسكرية بذلك فلم تعد ترى في الأمر ما يريب.. عادت جميلة إلى مزرعة أبويها بقلب فارغ وأحشاء ممتلئة بجنين مستكن ما فتئ ينمو ويتعافى في تطلع لكى يوهب الحياة..

حاولت جميلة أن تستأنف حياتها المعتادة كما قد كانت من قبل في العمل داخل المزرعة وملاحظة الحيوانات في حظائرها.. رعاية النباتات وأشجار الفاكهة التي طابت وحان قطافها، وربما بذلت المزيد من الجهد من نقل للحبوب إلى الطاحونة وحمل الدقيق بعد طحنه والعودة به إلى الدار، ثم غسل الملابس على حافة الغدير.. وهي ما فتئت تهرب من ملاحقة الباشا لها، الذي يطالعها دائما بعينيه المتسائلتين وفمه اللاهث، كأنما يسألها في صمت عن سبب غياب صديقه عمر وهي لا تعرف له رد الجواب.. فتهرب إلى أشغالها العديدة

بالمزرعة لتعوض بذلك نقص الأيدي العاملة الناجم عن فقدان عمر، ولتملأ فراغ قلبها الناتج أيضاً عن فقدان عمر.

لكن سرعان ما أدركها الوهن، فخرت صريعة المرض، وهي تتهاوى في ضعفها غير قادرة على المقاومة والاستمرار.. كأنما كانت تمثل طول الوقت دور البطولة الذي ما لبث أن انتهى عرضه لتضاء بعده الأنوار، فتخلع عنها ثياب التنكر لتظهر على حقيقتها - وكما هي - إنسانة ضعيفة أمرضها الهم حتى كسر قلبها، فانهارت ولازمت الفراش..

كان الأسى الذي عاناه أبواها الشيخين عظيماً وقاسياً على النفس.. ترقرقت الدموع في عيني أمها العجوز وهي تشاهدها طريحة الفراش دون أن تقدر على أن تمد لها يد العون أو المساعدة، عبثاً دعت لها الأولياء والصالحين، قدمت من أجلها النذور لسيدي علي وسيدى بو زيد دون جدوى.. فلما أعيتها الحيل، أرسلت إلى الأميرة عائشة تستعين بها على مرض ابنتها وتبحث لديها عن الدواء والشفاء..

بعد أيام حضرت الأميرة عائشة وبرفقتها الطبيب المداوي، الذي شخص الداء ووصف الدواء، ونصح جميلة بالراحة التامة والبعد عن كل الأعمال الشاقة حفاظاً على صحتها وحرصاً على سلامة الجنين الثاوي بين أحشائها..

جلست الأميرة عائشة مقابل فراش جميلة، تجفف عرقها وتدثرها بالأغطية الصوفية الثقيلة، بينما بادرتها جميلة قائلة: هل أنت غاضبة منى يا أمي؟..

أجابتها الأميرة عائشة بحسرة قائلة: بل أنت ابنتي وأنا أحبك كثيراً

أجابتها جميلة بصوتها الخفيض قائلة: لو تكسرت عظامي لهان الأمر وخفت المصيبة، ولاستطاع قلبي أن يتحمل.. أما القلب المكسور يا أمي.. فمن يحمله؟..

أجابتها الأميرة بحكمة قائلة: العقل الكبير يا ابنتي يحمل القلب المكسور.. والأمل الكبير– دائماً – في الله القادر على جبر الكسور..

أجابتها جميلة : لقد أذلني المولى، فنزع عنى تاج عزتي ورمز كبريائي..

صححت لها الأميرة عائشة القول قائلة: المجد والعز يزولان، أما الكبرياء فباق، لا يمكن ولا ينبغي لشيء أن ينتزعه من النفس الكريمة..

إجابتها جميلة من خلال يأسها قائلة: أشعر أنني أهوى إلى بعيد، دون أن يكون بجواري شيء أتشبث به أو يحميني من السقوط..

همست الأميرة وهي تشجعها قائلة: أخرجي من عزلتك، وعيشي من أجل الآخرين..

ردت جميلة وهي تتهاوى قائلة: لم يعد هناك ما يستحق..

ساد الصمت برهة قبل أن تستجمع الأميرة عائشة شتات نفسها لتجابه جميلة بصوتها الحنون، سألتها بدهاء قائلة: حتى ولو كان عمر؟..

إلتمعت عينا جميلة لسماعها الاسم الأثير لديها، ثم ما لبثت أن نظرت ملياً نحو الأميرة عائشة قبل أن تغض من بصرها وهي تسألها قائلة: ألديك أنباء عنه؟..

أجابتها الأميرة وهي تهش في وجهها قائلة: نعم.. أنه يسأل عنك، يريد أن يعرف كل شيء.. وأن يراك..

أطل الأمل من عيني جميلة منبئاً بتجدد الحياة، بينما تابعت الأميرة عائشة حديثها وهي تحكي من قصة عمر آخر أحداثها التي لم تعلمها جميلة.. عن تلك المحاكمة التي عقدت له في الجزائر بتهمة الهرب من الخدمة العسكرية، نتيجة لشكهم في روايته التي قصها عليهم من فقدانه للذاكرة فترة تواجده لديها.. وكيف أنه كاد أن يدان بها لولا الصدف التي حملت أنباء تلك المحاكمة إلى أسماع الشريف بن أحمد، الذي سارع بتأييد رواية عمر، كذلك فعل الدكتور سرباح، الذي أيدها بشهادته الطبية التي أفاد فيها بوجود عمر تحت رعايته الطبية

طوال فترة أصابته وفقدانه للذاكرة عقب إصابته في آفلو حتى لحظة شفائه وعودة الذاكرة إليه.. وبناء على هذا فقد أبرئت ساحة عمر من الإتهام الظالم الذي لحق به..

إستمعت جميلة باهتمام بالغ لتلك القصة المثيرة والتطورات الخطيرة التي حدثت في غيبة عنها أثناء فترة مرضها وملازمتها للفراش، وكادت تلحق الضرر بمن أحبته، لولا تدخل الأصدقاء المخلصين الذين ما فتئوا يساندونها ويحملون عنها أحمالها الثقيلة في الوقت الذي ناءت بحملها، لذا فحق عليها أن تتصرهم وأن تعيش من أجلهم..

استدارت جميلة نحو الأميرة عائشة واجهتها بسؤالها قائلة: هل استرد عمر ذاكرته؟ أعنى هل تذكر المدة التي عاشها هنا معي؟

أجابتها الأميرة قائلة: ليس بعد يا ابنتي وأظنه سوف يتذكرها قريباً.

سألتها جميلة: إذن.. فكيف تأتى له أن يسأل عني برغم أنه لم يتذكرني بعد؟..

أجابتها الأميرة قائلة: لقد علم أثناء محاكمته أنه كان يعالج أثناء مرضه، أعني أثناء فقدانه للذاكرة، لدى أسرة جزائرية في الجبال.. لابد أنه ربط في ذهنه بين هذه الأسرة وبين المرأة المجهولة التي أودعه المجاهدون لديها بعد إصابته وفقدانه

للوعي، وأنها هي تلك التي أوصلته إلى تلك الأسرة، أو أنها أحد أفراد تلك الأسرة، لذا فقد أراد أن يعرف تلك الأسرة لكى يشكرهم على جميلهم ومعروفهم الذي فعلوه معه، ويكافئهم عليه قبل عودته إلى مصر.. لكن الشريف بن أحمد رفض إجابتهم للأمر ألا بعد استطلاع رأيك، وها أنذا أعرض عليك الأمر لأعرف رأيك في الموضوع..

فكرت جميلة برهة قبل أن تسأل الأميرة عائشة قائلة: خبريني يا أمي عن عائلة عمر التي تنتظره في مصر..

أجابتها الأميرة قائلة: لقد تبين أن والده من كبار رجال الصناعة والمال في مصر، ولقد كرر والده هذا الطلب ليعرف من تكوني لكى يجزل لك العطاء ويكافئك على رعايتك لعمر أثناء إصابته..

أجابتها جميلة متسائلة: ليس هذا ما أعنيه من سؤالي، ولكن هل توجد امرأة أخرى في حياته.. هل هو متزوج في مصر..

أجابتها الأميرة عائشة بعد تردد قائلة: نعم يا ابنتي.. لقد كان متزوجاً في مصر قبل حضوره للجزائر، ولا علم لي إذا ما كان له منها أطفال أم لا.. إلا أنني علمت بأنها ابنة أحد الحكام الكبار في مصر..

أجابتها جميلة شاردة: هذا هو ظني أيضاً وما كنت أفكر فيه دائما.. أترين يا أمي؟ لقد حلت الأمور بعضها، فعمر

الذي أعرفه قد إنتهى ولم يعد له وجود.. وعمر الموجود الآن هو عمر السابق على حضوره إلى آفلو، إنسان مهم ينتمى الى طبقة الحكام والعظماء، متزوج من امرأة أخرى تحبه ويحبها وتنتظر عودته إليها بفارغ الصبر.. أما أنا.. فما الذي لي عنده لأطالبه به خاصة وهو لا يذكر عنى أدنى شيء، لقد تقاضيت ثمن رعايتي له من سعادتي معه، لذا فحقي أخذته كاملاً غير منقوص، وما زاد عن ذلك لن يكون سوى صدقة أو عطف ومّن وإحسان، لا يا أمي.. لا أظنك ترضين لابنتك ذلك، ولا أنا قادرة عليه.. لأنني لن أستطيع لحظة تحمل نظرة الشفقة في عينيه، فدعيه يرحل يا أمي دون أن يعرف من أنا أو ما الذي كان.. ليعد إلى بلاده ومحبيه هناك تصحبه السلامة وتسهر عليه عناية الرحمن..

أجابتها الأميرة عائشة وهي تربت على يديها الباردتين بحنانها قائلة: الله يبارك فيك يا ابنتي، فأنت حقا ابنة الجزائر الأبية التي لا تفرط ولا تخون.. ولك أن ترفعي رأسك عالياً في عزة وإباء، فما أنت إلا سليلة مجد قديم، وإحدى حفيدات الأمير عبدالقادر، مجد يقارب ما فيه عمر من سلطان، إن لم يفق عليه.

بمثل ما أرادت جميلة، فعلت الأميرة عائشة.. أفاد الشريف بن أحمد عمر ووالده برفض الأسرة الجزائرية التي أشرفت على رعايته أثناء مرضه بالإفصاح عن نفسها، بحجة أنها ما فعلت سوى الواجب الذي كان يمكن أن تفعله أية أسرة جزائرية أخرى نحو بطل شقيق أريق دمه في الجزائر وهو يدافع عن شرفها وعزتها، لذا فلا شكر على واجب، وليعد عمر إلى بلاده عزيزاً مكرماً، مشكوراً مأجوراً على ما أداه نحو الجزائر من فضل وجميل سيسجل بفخار من نضار في سجل الأبطال..

الخاتمة

أمـــــــل

بعد الحكم ببراءته.. غادر عمر الجزائر في احتفال رسمي حضره العديد من قواد حرب التحرير الجزائرية وعلى رأسهم القائدين: عشراتي وبن دحمان، اللذين تألقا في ملابسهم العسكرية ذات الأوسمة اللامعة، بعد أن كرمتهما الثورة ووضعتهما على رأس السلطة في الجزائر، تعبيراً عن الشكر، وتقديراً لدورهما البطولي وكفاحهما المشرف من أجل التحرير والنصر..

كان فراق الأبطال حاراً ومؤثراً، حيث غالب الجميع كبرياءهم ليخفوا دموعهم التي سالت برغمهم على خدودهم المتوهجة.. لكن بن دحمان ما لبث أن ضم عمر إلى صدره بحرارة وهو يودعه قائلاً: لتكن في مصر.. أو لتكن في آخر الدنيا.. لكن تأكد من أن قلوبنا ستكون دائما معك، فلقد جمعنا رباط الدم الذي سال في الجبال، ما ليس له فصام أو انفصال..

تابعه عشراتي وهو يحييه تحية وقار، قال: على بركة الله تذهب.. وليرحم الله الشهداء..

ثم ما لبث أن أضاف عشراتي وهو يوصيه، قال: تها الله في نفسك (بمعنى أتقي الله في نفسك وأرعاها جيداً)

* * *

حينما أعتلت الطائرة أعلى قمم الجزائر الشاهقة، رفع عمر يده إلى رأسه في تحية عسكرية خاشعة يودع بها سنوات كفاح مشرقة قضاها مجاهداً من أجل الحق والكرامة على ربوع الجزائر الطاهرة إلى أن كللت بالنصر.. لم ينس أن يقرأ الفاتحة ترحماً على أرواح زملائه من الشهداء الذين هم أحياء عند ربهم يرزقون..

عاد عمر من الجزائر مبرئاً مكرماً كبطل من أبطال الثورة، وقد سبقته أخبار أمجاده التي كشفت عنها محاكمته، فكتبت الصحف مشيده ببطولاته لتصحح صورته التي اهتزت من قبل، ثم ما لبثت الدولة أن نصبته رمزاً للبطولة التي هو جدير بها، فأنعمت عليه بأعلى الأوسمة الحربية مع تسريحه من الخدمة العسكرية مراعاة لظروفه الصحية.

كانت تلك هي الفرصة الذهبية التي طالما إنتظرها هاشم حمدان، فما أسرع ما تلقف عمر بين يديه المدربتين، ليضعه على رأس العديد من شركاته التي تتعامل داخل مصر وخارجها، وهو على ثقة من نجاحه في إدارتها بعد أن طبقت

شهرته الآفاق وغدا مجده مضرب الأمثال وحديث النوادي والمجتمعات..

أما وفاء فقد وجدت في عودة عمر الجديدة المشرفة مدداً ينشلها من وهدة ترديها في علاقتها الشائنة مع حازم وجهازه الموبوء.. لذا فسرعان ما راجعت نفسها وهي تعود إليه وقد رجحت كفته، خاصة بعد أن ترك خدمة الجيش ليتفرغ لإدارة قطاعات هامة داخل الصناعة المصرية ذات الفروع العديدة مع الدول العربية والأجنبية، مما سيتيح لها ولا شك الفرصة لتحقق حلم حياتها بالسفر إلى الخارج ومشاهدة غرائب أوربا وباريس.. وبالفعل.. فقد بدأت مع الوقت تنسى حبها الطائش لذلك الولد التافه المسمى حازم، وتألقت بصحبة زوجها المحترم عمر في العديد من حفلات رجال الصناعة والمجتمع التي كثيراً ما دعيا إليها.. وشيئاً فشيئاً.. تعددت رحلاتهما سوياً إلى الخارج ومع الوقت استعاد عمر تألقه القديم، واستطاع في وقت قصير أن يحقق أحلامها القديمة في المجد والقوة والشهرة والنفوذ.. فعادت السعادة ترفرف على حياتهما مرة أخرى من جديد.. وشيئاً فشيئاً.. قلت الأحلام المزعجة التي كانت تنتاب عمر أثناء الليل عن ذكريات الحرب.. لم يبق منها سوى جنية شقراء ما فتئت تطل – بين الحين والحين – من خاتمه الفضي ذو الحجر الأزرق، فتلون ليله بلونها الوردي الجميل..

سرعان ما تماثلت جميلة للشفاء من مرضها العارض الذي ألم بها بعد فراقها لعمر.. عادت إلى حياتها المعتادة وقد تحملت بقوة جبارة وإرادة مصممة على اقتحام الصعاب.. عزمت على مواجهة الحياة مهما كانت مرارتها، فهي من جنس المجاهدين.. إما النصر أو الشهادة.. ولقد عاينت من قبل قسوة الجهاد وكافحت أكثر من مرة وانتصرت.. ولابد للمجاهدين من ثواب على أعمالهم الصالحة.. لذا فلها أن تتوقع من الحياة لحظات حلوة قادمة أيضاً.. منها تلك اللحظة التي استقبلت فيها طفلتها الجديدة التي جاءت ولادتها على يدى الدكتور سرباح، الذي أشرف على حملها وولادتها في الفترة الأخيرة، بعد أن تفرغ لعلاج المرضى في الجبال عقب تقاعده لبلوغه سن المعاش وإحالته للاستيداع..

سألها الدكتور سرباح وهو يمسك بالمولودة الجديدة من قدميها عقب ولادتها وهي ما فتئت تخبط الهواء بيديها من خلال صراخها قال: ماذا تسمين هذا الملاك الصغير؟..

تأملت جميلة مولودتها وهي مازالت قطعة من اللحم الأحمر، دارت بنفسها أحاسيس مبهمة قبل أن تجيبه وهي تتطلع إلى بعيد قائلة: "أمـل"..

ثم أضافت بصوت أشد خفوت قائلة: أمل .. عمار..

نعم.. ليكن أسمها: أمل.. عمر.. أو عمار.. لم تعد تدري فقد اختلطت أمامها الحقائق ، كما اختلط أمامها إسميي "عمر " و "عمار" من قبل.. غامت ذاكرتها وهي تتذكر الرجلين الذين اقتحما حياتها فأسعداها فترات قصيرة متلاحقة، ثم غابا إلى الأبد.. لكن هناك العوض دائما الذي تهبه الحياة لكل من أضاع غالياً أو فقد عزيزاً، وها هو ذا العوض يأتيها تلك المرة من داخلها، قطعة عزيزة من مشاعرها، تتخبط وتتلوى وتصرخ وهي تستقبل الحياة.. أنه الأمل الوليد.. وحمدا لله على تشابه أسماء الرجلين في حياتها.. بل لا فرق بينهما في كتابتهما باللغة الفرنسية التي هي لغة المكاتبات الرسمية في الجزائر حتى الآن.. لذا فما أسهل أن تنسب طفلتها الوليدة إلى زوجها السابق عمار، فهذا من شأنه أن يسهل الأمور ويزيل التعقيدات ويطوى صفحة من حياتها أراد لها الجميع أن تطوى وأن تنمحي من الوجود.. لتكن أمل عمار جزائرية تربى على ثرى الجزائر.. ولتكن هي الأمل الجديد للجزائر في غد مشرق سعيد، خالٍ من الكوارث والحروب، غدٌ يكون فيه العوض عن كل الشهداء الذين أضاعتهم الحرب، وعن بطلها الذي أضاعه النصر..

* * *

رفعت الأميرة عائشة أمل بين يديها إلى أعلى وهي تهدهدها وتضمها إلى صدرها، ثم ما لبثت أن تكلمت قائلة: أشعر الآن يا ابنتي عن يقين، وأنا في آخر أيامى على أبواب الفناء.. بأن القدر أراد أن يثيبك عن أعمالك الطيبة ويجازيك عنها خير الجزاء بوليدتك أمل، فهي ستبقى دائما قطعة عزيزة من بطلنا الغالي عمر، تذكرنا به.. وتخلد ذكراه..

فبهذا يا ابنتي.. يعتدل الميزان وتستقيم الأمور.. عمر يعود إلى بلاده حراً طليقاً بعيداً عن أية ذكريات محررا من كل القيود التي تشده إلى ماضيه، ليبدأ حياته الجديدة هناك.. وأنت تمنحين حياة جديدة تولد بين يديك، تعيشين بها مستقبلك السعيد، بعيداً عن أشباح الماضي ومآسيه..

استمعت جميلة إلى كلمات الأميرة عائشة المواسية في صمت بليغ، كأنما تتلقى بها رسالة قادمة إليها من بعيد.. حملقت الأميرة عائشة بعينيها الغائمتين في الفراغ اللانهائي المحيط بأعلى قمم الجبال، كأنما تستشف بهما من خلاله حجب الغيب، ثم ما لبث أن تمتمت قائلة: بل أكاد أرى الحكمة المستمدة من وراء ذلك الحدث العظيم.. فها هي ذي المولودة في بكائها وضحكها، ما تفتأ تنادي أباها.. ولا أظنه إلا عائداً إلينا مرة أخرى.. ملبياً ذلك النداء،،،

انتهى الجزء الأول

التعريف بالكاتب

الاسم: فاروق عبدالله عبد البر (اسم الشهرة: **فاروق عبد الله)**

العمل: محامى بالنقض والإدارية العليا والدستورية.

محامي اتحاد الكتاب للدفاع عن قضايا الأعضاء.

التليفون : 01005365200 Tel 02 23896393

E-Mail: Farouklaw@hotmail.com

- عضو مجلس إدارة اتحاد الكتاب، رئيس شعبة الترجمة، رئيس اللجنة القانونية/ سابقاً، عضو مجلس إدارة جمعية أنصار التمثيل ورئيس اللجنة الثقافية سابقاً، عضو مجلس إدارة نادي القصة بالقاهرة/ رئيس لجنة الترجمة
- أستاذ زائر لتدريس مادة القانون باللغة الإنجليزية بالجامعة.
- فاز بالجائزة الأولى للرواية من نادى القصة عام 1985، وجائزة الدولة التشجيعية لأدب الرحلات عام 1996
- تَعقد باسمه "**مسابقة عمر الفاروق للقصة القصيرة**" لطلبة الجمهورية تحت رعاية وزير التربية والتعليم، عقدت للعام

التاسع عشر على التوالي، ويقوم بمنح جوائزها الأولى لأفضل الأعمال الفائزة، وتُطبع في كتاب.

- تدرس بعض كتبه بالجامعات، وزودت مكتبات التربية والتعليم ببعض منها.
- يعقد بمكتبه ندوة شهرية يحضرها العديد من الأدباء والكتاب والمثقفين.
- قام بالدفاع في كثير من قضايا الرأي منها : عن العميد/ حمدي البطران، أمام مجلس التأديب الأعلى لضباط الشرطة، وعن الشاعر/ أمين الديب أمام نيابة أمن الدولة العليا، وعن د. لواء شرطة بالمعاش/ حسن فتح الباب انتهاءً ببراءته، وعن مجلة إبداع إنتهاءً بإعادة صدورها، وعن ألف ليلة انتهاء ببراءتها.
- قام بزيارة معظم دول العالم، وحضر بها العديد من المؤتمرات العلمية والثقافية.
- شارك في منتدى ثقافي بالجزائر 2002 ومنحه شهادة تقدير لمؤلفاته التي أشادت بالثورة الجزائرية.
- شارك في مؤتمر اتحاد الكتاب العرب الذى عُقد بالقاهرة عام 2003 وحاضر عن حرية الكلمة.
- شارك في العديد من اللقاءات الأدبية وورش الترجمة التي عُقدت في أستراليا عام 2004، تُرجمت فيها بعض كتبه

- شارك بمحاضرة عن الملكية الفكرية في المؤتمر العالمي لاتحاد الكتاب في نوفمبر 2005
- شارك في المؤتمر العالمي للملكية الفكرية بأكاديمية الشرطة في إبريل 2006
- شارك برئاسة المائدة المستديرة عن الملكية الفكرية بمؤتمر اتحاد الكتاب العرب بالقاهرة 2006/11
- شارك في المؤتمر العربي الأول للملكية الفكرية تحت رعاية الدولة يناير 2007
- شارك في المؤتمر الدولي للترجمة باتحاد الكتاب، عقد في ديسمبر 2008
- شارك في المؤتمر الدولي للموروث الشعبي بالأقصر نوفمبر 2009
- شارك في المؤتمر الدولي عن دول حوض النيل بالأقصر يناير 2011
- شارك في مؤتمر الثقافة الجماهيرية بشرم الشيخ – شخصية عامة – يناير 2013
- شارك متحدثاً عن الملكية الفكرية بكلية رياض الأطفال جامعة القاهرة في مارس 2013
- شارك متحدثاً عن الملكية الفكرية في مؤتمر الملكية الفكرية باتحاد الكتاب مايو 2014

- شارك متحدثاً عن التعديلات القانونية المواكبة للدستور الجديد باتحاد الكتاب يوليو 2014
- **شارك متحدثاً عن حقوق الملكية الفكرية بمعرض الكتاب فيراير 2015**
- **شارك بمؤتمر المركز العربي للوعي بالقانون بجامعة الدول العربية أكتوبر 2015**
- **شارك بالمؤتمر الدولي لتجديد الخطاب الثقافي وتجديد القانون مايو 2016**

أهم مؤلفاته:

1-"**رحلة إلى نهاية العمر**" رواية في حلقات بروز اليوسف 1986

2-"**كيراك**" رواية عن الهيئة العامة للكتاب عام 1987م الجائزة الأولي من نادي القصة 1985

3- قام بنشر قصص قصيرة بمعظم صحف ومجلات مصر والخارج منذ عام 1986 حتى تاريخه.

4- " **ملوك الظلام**" / رواية/ طبعة أولى عام 1994

5 - " **واحة العشاق**" / رواية عام 1994

6- "**آخر العائدين من بنى هلال**/ رواية/ طبعة أولى/ جائزة الدولة التشجيعية 1996

7-"**رباعيات حائرة**" شعر العامية المصرية 1995

8-"**ملك ليلة**" مجموعة قصص قصيرة عن الهيئة العامة للكتاب 1996

9-"**واحة الأمل**" رواية 1998

10-"**سهرة مع الأشباح**" مجموعة قصصية عام 1998

11- "**أشعار من قندهار**" ديوان شعر الفصحي 1998

12-"**وردة الصباح وقصص أخرى**" قصص للأطفال 1998

13-"**أم الأبطال**" تمثيليات للأطفال 1998

14- "**آخر الداخلين من المكافحين**" رواية 1999

15-"**فراق مع الأشواق** / يوميات محقق" رواية 1999

16 - "**العالم الآخر**" مسرحية عام 2000

17- "**أرجوك أوقفى القتال**" رواية في لمحات شعرية 2001

18- "**بندورا**" رسائل حب 2001

19- "**سيبيجاج 1**" رواية جزء أول عام 2001

20- "**سيبيجاج 2**" رواية جزء ثاني عام 2002

21= واحة الأمل ، رواية ، عن الهيئة العامة للكتاب 2008

22 = آخر العائدين من بني هلال، أدب رحلات، الهيئة العامة للكتاب مارس 2011

23= سيبيجاج 1، 2 طبعة ثانية 2016

24= أيام همام / بالله حاذر ، رواية تحت الطبع 2016

25= سيناريو واحة الأمل، فيلم سينمائي 2016

26= سيناريو شيطان البحر عن قصته: هو وهي والبحر ونسائم الصباح 2016

27= سيبيجاج 3 – تحت الطبع

English Books

- An Introduction to LAW 1998
- Commercial LAW 1999
- Thou Shalt not Kill

  Short Stories, Translated by Betty Pascoe 2004
- Rbaiyat

  Poems translated by Betty Pascoe 2005
- Short Stories, translated to English, ready to be published Associated with Irina Dunn, Head of Australian Writers Union

Ambassade
la République Algérienne
Démocratique et Populaire
Le Caire

سفارة
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
بالقاهرة

35/01/02

القاهرة في : 10 جانفي 2002

الأستاذ فاروق عبد الله المحترم
الكاتب والمحامي بالنقض والإدارية العليا

تلقيت بكل ابتهاج كتابكم بجزءيه والذي يحمل عنوان " سيبيجاج " والذي تفضلتم بإهدائه لي ، وقد تأثرت بلفتتكم الكريمة هذه ، وزاد تأثري عندما تصفحته ووجدته رواية أدبية تاريخية رائعة تناولت موضوع الثورة الجزائرية المجيدة ، ورصدت بعض معالمها وبعض أحداثها بمنطقة الغرب الجزائري وعرضت أحداثاً تاريخية حقيقية بأسلوب رائع ينم عن تعاطف صادق وإعجاب كبير بهذه الثورة التي رفعت رؤوس كل الجزائريين وكل العرب .

وأني إذ أشكركم جزيل الشكر آمل في لقائكم عن قريب .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام وتحياتي الأخوية

السفير

د . سليمان الشيخ

دراسة نقدية لرواية سيبيجاج

بقلم

أ. د/ محمد حمدي ابراهيم النائب الأسبق لرئيس جامعة القاهرة

أسعدني الحظ حينما أهدى إلي صديقي الأديب/ فاروق عبد الله، روايته الأدبية التاريخية **سيبيجاج**، المؤلفة من جزأين، وهي رواية ذات جاذبية طاغية، حيث أنها ترتكز من ناحية على الوقائع التاريخية، بيد أنها تستدعي من ناحية أخرى الخيال الأدبي كي تصبح الشخصيات التي وردت في الوثائق التاريخية شخصيات نابضة بالحياة من لحم ودم، تدفع القارئ إلى التعاطف معها، وتجعله يحزن لعذابها ويبتهج لسرورها، ويشاطرها مصائرها.

إن استخدام التاريخ ركيزة في الدراما وكذا في الرواية، أمر جد معروف منذ عدة قرون، مارسه أدباء كثيرون منذ أن كتب شاعر التراجيديا آيسخلوس مسرحيته الرائعة "الفرس" التي استقى مادتها من الحرب التي دارت رحاها بين الفرس واليونانيين بالفعل. وفي مصر يأتي علي رأس الأدباء الذين استلهموا التاريخ في أعمالهم أديبنا الكبير/ نجيب محفوظ في رواياته التاريخية المبكرة. وقد يعتبر التاريخ أحيانا في الرواية

متنفساً ينطلق من خلاله الأديب الفنان للتعبير الخلاق الأخاذ، ولكنه في أحيان أخرى قد يمثل عبئاً ثقيلاً يرزح الأديب تحت ثقله، أو يجثم على صدره فلا يستطيع الفكاك منه، فلا يقدم رواية ولا يقدم تاريخاً. وكانت القاعدة التي انتهجها الأدباء الرواد منذ قرون خلت تتطلب الحفاظ على وقائع التاريخ وتحترمها، فلا تغير الأحداث التاريخية أو الشخصيات التاريخية، ولكن من حق الأديب أن يسوق الدوافع الكامنة وراء تصرفات الشخصيات حسبما يروق له، وهذا أمر ليس مباحاً للمؤرخ الذي يعتمد على الدليل المادي الوثائقي. كما أن من حق الأديب كذلك أن يبين دخيلة الشخصية ويتعمق في دراسة نفسيتها، كي يقنعنا بأن هذه الدوافع طبيعية وإنسانية وليست مفتعلة أو مقحمة.

وأذكر أن الشاعر والروائي الراحل/ عبد السلام أمين، حينما كتب مسلسل "هارون الرشيد" الذي عرض ومثله الراحل المتمكن/ نور الشريف، وانبري النقاد لانتقاده بزعم أنه لم يقدم الشخصية التاريخية لهارون الرشيد بحذافيرها بل قدم شخصية تكاد أن تكون مناقضة لها، رد على هذا الانتقاد بأنه "يكتب ما سكت عنه التاريخ" ... ولقد أعجبت بهذه الإجابة أيما إعجاب، فهي جملة مختصرة معبرة قد لا يقولها إلا ناقد كبير.

وها هو الكاتب المسرحي الفريد دي موسيه يصرح بوضوح – في مقدمة مسرحية له بعنوان "لورنزا تشيو" "أنا لا أنكر التاريخ، لكنني لم أكن فيه"، كذلك فإن دي موسيه يستنكر ما يقوله الناس الذين يرون أن الأدباء عاجزون عن تقديم رؤية تاريخية صائبة عميقة، بزعم أن التاريخ فقط هو القادر على هذا، فيقول: "عيب التاريخ أنه لا يقدم لنا حقيقة الأحداث بحال من الأحوال..." ومن أراد هذه الحقيقة فعليه أن ينشدها عند الأديب، حيث أن الأديب هو الذي يعلم بحق وقائع النفس الإنسانية وخلجاتها".

وأعتقد أن الأديب/ **فاروق عبد الله** قد نجح وسبق كثيرين في هذا المضمار، فجعل روايته تبدو تاريخاً، وجعل التاريخ يبدو وكأنه رواية مشوقة. ذلك لأنه لم يقحم "من عندياته" تفسيراً معيناً على الأحداث، كما أنه حافظ على الترابط المنطقي والتسلسل الواقعي بمهارة تدعو إلى الإعجاب، ومزج بين الأحداث الواقعية ودوافعها مزجاً رائعا يأخذ بالألباب، وأجاد حبك الأحداث وإجراء الحوار في سلاسة ويُسر، فضلاً عن ذلك فقد جعل الوصف مختصراً وفي الوقت نفسه كاف لأداء وظيفته، ولم يسهب في الوصف ولا في الحوار، فجاء حواره درامياً مكثفاً بطريقة تقنعنا أننا أمام موهبة درامية قبل أن تكون روائية.

وتدور أحداث روايتي "**سيبيجاج**" باختصار حول ضابط مصري على مستوي عال من الكفاءة القتالية يدعى عمر، أرسلته القيادة المصرية في عهد الرئيس عبد الناصر – أيام الثورة الجزائرية – لمد يد العون إلى المجاهدين الجزائريين وتدريبهم على فنون القتال الحديثة من كر وفر، حتى تمكنوا من الصمود أمام شراسة الفرنسيين وقسوتهم وأساليبهم الوحشية في وأد الثورة واستئصال شأفتها بلا رحمة، ويصاب الضابط عمر في إحدى المعارك الحامية الوطيس، فيضطر زملاؤه الجزائريين إلي تركه في رعاية امرأة جزائرية تجيد فن التمريض تدعى جميلة. وكان زوجها مجاهداً جزائرياً يدعى عمار، لكنه قضى نحبه قبل هذه المعركة بوقت قليل على أيدي جنود الاحتلال الفرنسيين.

وتنجح جميلة بعد عناء طويل في نقل هذا الضابط المصري، الذي لا تعرف عنه سوى النذر القليل من المعلومات، فتهرب به إلى منزل والديها في أقاصي الريف الجزائري، حيث سهرت مدة طويله على علاجه ورعايته بصبر يدعو إلى الدهشة إلى أن أفاق من غيبوبته، واضطرت المرأة إلي أن تخبر والديها بأن هذا المصاب الذي يرقد بين الحياة والموت هو زوجها عمار الذي لم يسبق لهما رؤيته، وبعد أن يسترد الضابط عمر وعيه يجد نفسه فاقداً للذاكرة تماماً وعاجزاً

عن النطق، فتظل جميلة تحاول دفعه إلى النطق وتتفاهم معه بطريقة الكتابة على الورق بالقلم، وتمكنت بهذه الوسيلة أن تخبره ببعض المعلومات عن حياته السابقة، وبعد فترة من شفائه يقع الضابط عمر في حب جميلة، وتشترط هي منه أن ينطق أولا كي يخبر والديها برغبته في الزواج منها، ومن فرط حب الضابط لها استطاع في موقف عصيب تهددها فيه الخطر أن ينطق باسمها ويتكلم معها، ثم يذهب لخطبتها من والدها بعد أن شرحت جميلة للأبوين حقيقة الأمر، ويتزوج الحبيبان. ثم تعرف جميلة من أستاذها الطبيب الذي تتلمذت علي يديه كي تصبح ممرضة ماهرة، أن عمر الذي فقد ذاكرته سوف ينساها تماماً عندما تعود له ذاكرته وينسى معها كل هذه الفترة التي تبدأ بإصابته، وأنه سيتذكر فقط الفترة السابقة على معرفته بها.

ولا أريد أن استرسل في سرد الأحداث حتى لا أفسد على القارئ متعة الدهشة والمفاجأة فأعود إلى ما سبق أن قلته من أن هذه الرواية التاريخية نسيج وحدها، فهي رواية تستدعي التاريخ ليكون شاهداً على وقائعها وأحداثها، ولا تقدم لنا أحداثاً يمكن أن توضع على هامش التاريخ. إنها رواية أفلتت من الوقوع في المثالب التي سبق أن انزلقت إليها روايات أخرى كثيرة ارتكزت على التاريخ في سرد وقائعها.

وفي ظني أن فاروق عبد الله، استطاع أن يذيب روحه وأن يصهر ذاته في تأليف هذه الرواية الرائعة، حيث وظف فيها خبرته المتراكمة منذ سنين عدداً، ووصل بفنه إلى الذروة من حيث الإتقان والصقل، وليس بوسع القارئ أن يعثر في هذه الرواية علي فصل تعسفي بين ما هو تاريخي وما هو نتاج لخيال المؤلف، بل سيجد مزيجاً سحرياً يتداخل فيه التاريخ مع دراما الرواية، ويتفاعل فيه الروائي مع المؤرخ...، إنها رواية تستحق الإشادة والثناء، وكلي ثقة بأنها ستجد مكانتها المستحقة حين نشرها ويذيع صيتها ويعرف بطلاوتها القاصي والداني،،،

أ د/ محمد حمدي ابراهيم

أستاذ الدراسات اليونانية واللاتينية بكلية الآداب، جامعة القاهرة.

نائب رئيس جامعة القاهرة الأسبق

فهرســــــــت

.1	الفصل الأول: **معركة الثلوج البيضاء**	13
.2	الفصل الثاني: **جميلــة**	33
.3	الفصل الثالث: **الهجـوم المضـاد**	49
.4	الفصل الرابع: **الجــريــح**	63
.5	الفصل الخامس: **البحث عن الجريح**	75
.6	الفصل السادس: **نهـر سيبيجـاج**	95
.7	الفصل السابع: **عمـار الجـديد**	115
.8	الفصل الثامن: **البـــاشـا**	127
.9	الفصل التاسع: **الثعبان الأرقــم**	143
.10	الفصل العاشر: **الخاتم الفضـى**	155
.11	الفصل الحادي عشر: **عودة الذاكرة**	173
.12	الفصل الثاني عشر: **أغنية على النهر**	191
.13	الفصل الثالث عشر: **لعبـة الحياة**	207
.14	الفصل الرابع عشر: **وفـــاء**	219
.15	الفصل الخامس عشر: **المحـاكمـة**	239
.16	الفصل السادس عشر: **القلب المكسور**	259
.17	الخـاتمـة: **أمـــــــل**	267